

بيرل باك

براجا



د. غبريال وهبة

ترجمة
ولفديم

الدار المصرية اللبنانية

پروپوزیشن

15

روايات جائزة نوبل

سلسلة تصدرها

الدار المصرية اللبنانية

المدير العام : محمد رشاد

رئيس التحرير : فتحى العشرى

الإعداد والصياغة : محمد فتحى

١٦ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون . ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس . ٣٩٠٩٦١٨ - رقيقاً : دار شادو

ص ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع ٨٥٧٠ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى 5٠ - 610 - 270 - 977

جميع حقوق الترجمة والطبع والنشر محفوظة للناسر

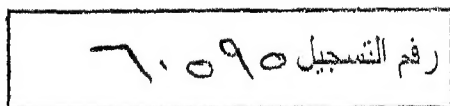
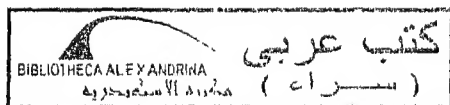
الطبعة الأولى : صفر ١٤٢١ هـ - مايو ٢٠٠٠ م

رياح الشرق ريح الغرب

EAST WIND : WEST WIND

بيرل باك

نوبل / 1938



د. غبريال وهبة

ترجمة
وتقديم



1 هذه الأشياء يمكن أن أرويها لك يا أختاه، لا يمكنني أن أتحدث هكذا إلى واحدة من بنات وطني أو إليهن، إذ إنها لن تفهم البلدان البعيدة حيث عاش زوجي اثني عشر عاماً، كما لا يمكنني أن أتكلم بصراحة إلى واحدة من النساء الأجانب اللاتي لا يعرفن شعبنا، وأسلوب الحياة التي ألفناها منذ عصر الإمبراطورية القديمة . ولكن أنتِ .. لقد عشتِ بيننا كُلَّ سِنِي عمركِ ، وعلى الرغم من أنكِ تنتمين إلى تلك البلدان الأخرى التي دَرَسَ فيها زوجي كتبه الغربية فإنكِ ستفهمين . إنني أتكلم الصدق ، لقد أسميتُكِ أختي ، وسأخبركِ بكل شيء .

إنكِ تعلمين أن أسلافي المبجلين قد عاشوا في هذه المدينة القديمة إبان المملكة الوسطى التي استمرت طوال خمسمائة عام . لم يكن هناك أحدٌ من أبناء ذلك العصر ذو نزعة حديثة ، أو له رغبة في تغيير نفسه . لقد عاشوا جميعاً في هدوء وسكون ووقار ، واثقين من استقامتهم وصحة رأيهم . وهكذا نشأنا والدائى في ظل كل تقاليد الشرق . لم أحلم قط

بأننى يمكن أن أرغب فى أن أكون مختلفة عنهم وبدون أن أفكر فى الامر بدأ لى أننى كما كنت، فإن جميع الناس الحقيقيين كانوا مثلى وكنت إذا ما سمعتُ همساً عن نساء لا يشبهننى من أنحاء نائية خارج أسوار فناء الدار ، وأنهن يَرْحَنَ وَيَجِئْنَ بحرية مثل الرجال ، لا أنظر إليهن بعين الاحترام وكما تعلمتُ سِرْتُ على الدرب الذى رَأَى لأسلافي . ولم أتأثر قط بأى شىء من الخارج ، ولم أرغب البتة فى شىء على الإطلاق ، ولكن ها قد جاء الآن اليوم الذى صرْتُ أتلُف فيه على مراقبة هذه المخلوقات الغريبة -- أولئك النسوة العصريات -- وأنا أنشد كيف أصبح مثلهن ولم يكن يا أختاه من أجلى ، ولكن فى سبيل زوجى .

إنه لا ينسجم معى ' وهذا لأنه عَبَرَ البحارَ الأربعة إلى بُلدان أخرى فى الخارج، وتعلَّم فى تلك المواطن النائية أن يحب أشياء وعادات جديدة والدتى امرأة حكيمة ، ففى العاشرة من عمرى لم أعد طفلة ، وأصبحتُ فتاة عذراء ، فقالت لى تلك الكلمات .

« إن المرأة فى حضرة الرجال يجب أن تحتفظ بصمت الزهرة ، وعليها أن تنسحب مبكراً فى اللحظة الممكنة دون ارتباك »

وعلى ذلك تذكرتُ ما قالتة لى حين وقفتُ أمام زوجى ، أحنيتُ رأسى، ومددتُ كلتا يديَّ أمامى ، ولم أنبس بِبَنْتِ شفة حين تحدّثَ معى . ولكن أوه ' لقد خفتُ أن يجد فى صَمْتى تَبَلُّداً فى جِسِّى !

وعندما أبحث فى عقلى عن شىء يثير شوقه ، كنتُ أفاجأ بأن ذلك

الشيء عقيم فارغ ، كحقول الأرز بعد الحصاد . وحين أكون وحدي منشغلة بالتطريز ، فإننى أفكر فى كثير من الأشياء الجميلة الرقيقة لأحدثه بها . سأقول له كيف أحبه ليس - كما تتذكرين - بكلمات وقحة أحاكى فيها الغرب الجشع الضارى ، ولكن بكلمات مستترة ، مثل هذه

« سيدى ، هل لاحظت كيف بزغ الفجر فى هذا اليوم ؟ لقد كنت كما لو أن الأرض المتبلدة قد قفزت لتلتقى بالشمس . كان الظلام جائئاً ، ثم أشرق ضوء رائع كموسيقى عذبة تنساب فجأة يا سيدى العزيز ، إننى أرُضك المتبلدة التى تنتظر ... » .

أو أقول له عندما يبحر فوق بحيرة اللوتس فى المساء .

« ماذا لو أن المياه الواهنة الشاحبة لم تعد تشعر كيف يثير القمر انتباهها؟ وماذا لو أن الموجة لم يبعث فيها ضوءه الحياة مرة أخرى ؟ أوه يا سيدى كن حذراً ، وعُدْ لى سالماً ، مخافة أن أكون ذلك الشيء الواهن الشاحب دونك! » .

بيد أننى لم أقو على التَّقوهِ بتلك الأشياء حينما يجىء متدثرًا بملابس أجنبية غريبة . أو يرجع ذلك إلى أننى تزوجت أجنبيًا ؟ إن كلماته قليلة ، ويتحدثها بلامبالاة ، وتنزلق عيناه فوقى بتعجل ، على الرغم من أننى أرتدى ثوباً من « الساتان » بلون الخوخ ، ورَيئْتُ شعرى المعقود حديثاً بالآلىء .

هذه أحزاني .. لقد تزوجتُ منذ شهرٍ عشتُ خلاله في عزلة ، وإننى
لستُ جميلة في عينيهِ .

أُختاه.. إننى أفكر الآن ملياً طوال ثلاثة أيام يجب أن استعمل المكر ،
وأبحث عن وسيلة لجذب عَيْنِي زَوْجِي نحوى . أو لستُ من سلالة أجيالٍ
من النساء لاقَيْنَ استحساناً في أعين أزواجهن ؟ لم تكن هناك واحدة
تفتقر إلى الجمال طوال مائة عام مضت سوى واحدة فقط تدعى « كواى
- ماى »، التى عاشت في عصر « سونج » وأُصيبَت بالجدري وهى في
الثالثة من عمرها ، فخلف المرضى نُدوباً وحفراً في وجهها . ومع هذا فقد
دُوِّن في السجلات أنها على الرغم من ذلك كانت ذات عَيْنين سوداوين
تبدوان كلؤلؤتين ، وصوت كان يهز أفئدة الرجال ، كما تفعل الرياح
بالغاب في الربيع . وقد أعزَّها زوجها إعزازاً كبيراً ، فعلى الرغم من وجود
سِتِّ محظيات له يُناسِب ثروته وجاهه وطبقته ، فإنه لم تحظ واحدة
منهن بمثل الحب الذى كان يُكِنُّه لزوجته وكانت « يانج كواى - فائى »
إحدى جداتى في سلسلة أسلافي ، التى كان منقوشٌ على معصمها طيراً
أبيض ، كانت تسيطر على الإمبراطورية براحتى يديها المعطرتين منذ أن
قُتِنَ الإمبراطور - ابن السماء - بجمالها . ولما كنتُ آخر أولئك النبيلات
الشريفات المبهجات ، فلا بد أن دماءهن تسرى في عروقى ، وعظامهن هى
عظامى .

لقد تفحصتُ صورتي في مرآتى البرونزية ، لا من أجلي ، ولكن من

أجله هو ، وهانذى أُخبركِ بأننى أرى أن هناك غيرى أقل منى جمالاً إن عَيْنَيَّ فيهما تشده بياضٍ محدد بوضوح عن سوادهما ، وأرى أَدْنَى الصغيرتين تعانقان رأسى برقة ، ولذا فإن أقراطى المصنوعة من الأحجار الكريمة والذهب تظل معلقة على مقربة من صدغى ، وكذلك أرى فمى صغيراً أيضاً ، ويصنع منحنباً ينسجم مع وجهى اليبضاوى وكم وددتُ ألا أكون بمثل هذا الشحوب ، وأن بمتد حاجباى بمقدار ثُمس بوصة صوب صدغى . إننى أصحح شحوبى بلمسة من اللون الأحمر الوردى على راحتى اللَّتَيْن أدلك بهما خدى . وأزججُ حاجبى بفرشاة مغموسة فى طلاء أسود . فيبلغان حد الكمال فى دقتهما وطولهما

إننى على قَدَرٍ كافٍ من الحُسن ، ومستعدة له ، ولكنه فى اللحظة التى تقع فيها عيناه عِلى ، أدرك ، أنه لم يلحظ شيئاً ، لاشْفَتى ولا حاجبى ، إنه يهيم بأفكاره فوق الأرض ، وعبر البحار ، وكل مكان عدا المكان الذى أقف فيه منتظرة إِيَّاه

عندما تكهن ضارب الرمل محدداً يوم زواجى ، وحين كانت الصناديق الحمراء المصقولة ممتلئة إلى حافتها ، وعندما تكدست أغطية «الساتان» الموشى بالأزهار القرمزية عالياً فوق المناضد ، وارتفعت كعكات العُرس مثل أبنية الباجودا البوذية المتعددة الطوابق ، دعتنى والدتى للمجىء إلى حجرتها . غسلتُ يَدَيَّ ، وسويتُ شعرى ، ودخلتُ إلى مقر سكنها . كانت تجلس على كرسيها الأسود المنقوش تحتسى الشاى

كان غليونها المصنوع من الغاب المطعم بالفضة يستند إلى الجدار بجوارها . وقفتُ أمامها خافضة الرأس دون أن أجرؤ على ملاقات عينيها ، ومع ذلك شعرتُ بنظرتها الحادة تحقّق في وجهي ، وتغمر جسمي وقدمي . وقد نفذ دفئها فجأة إلى أعماق قلبي من خلال الصمت . وأخيراً أمرتني بالجلوس وراحت تتسلى بقزقة بذور البطيخ من طبقٍ على المنضدة على مقربة منها ، وكان وجهها هادئاً بتعبيره الحزين الغامض المؤلف . كانت أُمي حكيمة .

قالت لي « كواي - لان ، يا بُنتي . إنكِ على وشك أن تتزوجي الرجل الذي خُطبت له من قبل أن تولدي . كان والدك ووالده صديقين حميمين كما لو كانا شقيقين .. لقد أقسما على أن يرتبطا معاً من خلال أبنائهما . كان خطيبك حينذاك في السادسة من عمره . وقد ولدتِ أنتِ في غضون ذلك العام . وهكذا شاء القدر أن يكون ذلك نصيبك . لقد رُبيتِ من أجل تلك الغاية .

وطوال السبعة عشر عاماً من حياتك كانت ساعة زواجكِ هذه في ذاكرتي . ومن كل شيء علمتُكِ إيّاه أخذتُ بعين الاعتبار شخصين . والدة زوجك ، وزوجك . وإكراماً لها علمتُكِ كيف تُعديّين الشاي وتقدمينه لمن يكبرك سنّاً ، وكيف تقفين في حضرته ، وكيف تنصتين في صمت عندما يتحدث ، سواء بالمدح أو اللوم ، وفي كل تلك الأشياء علمتُكِ أن تستسلمي كما تستسلم الزهرة ممثلة للشمس والمطر على حد سواء .

ومن أجل زَوْجِك علمتُكِ كيف تجمّلين نفسك ، وكيف تتحدثين إليه

بعينيك المعبرتين دون أن تتفوهى بأية كلمات ، وكيف تـ.... بيد أن هذه الأشياء ستفهمينها عندما تحين الساعة وتكونين وحدك معه.

بناء على ذلك فأنت متمكنة من جميع واجبات السيدة الفاضلة ، حلوة الشمائل . إنك تدركين أن إعدادَ المربّى والحلوى والأطعمة اللذيذة قد تفتح شهية زوجك وتغريه على تناول طعامه ، وتجعله يركز أفكاره على أهميتك ، ويقدرك حق قدرك . ولا تتوانى أبداً عن إمتاعه ببراعتك في صنع شتى الأطباق .

وأنت تعرفين عادات وسلوك وآداب المعاشرة في الحياة الأرستقراطية.. كيف تدخلين وتغادرين في حضرة مَنْ هم أعلى مقاماً ، وكيف تتحدثين مع مَنْ هُمْ أدنى منزلة ، وكيف تدخلين محفلك ، وكيف تُحيين والدته في وجود الآخرين .. هذا وكيف تتصرف المضيفة ، ورقة الابتسامات، وفن تزيين الشعر بالحلى والأزهار، وصبغ شفتيك وأظفارك ، واستعمالك للعطر ، وبراعة لبس أحذيتك في قدميك الصغيرتين .. وأها، لقدميك وما كلفتا من دموع ! ولكننى أعلم أنه لا يوجد أصغر منهما في جيبك . إن قَدَمَيَّ كانت أصغر قليلاً عندما كنتُ في مثل سنِّكِ وهذا شيء نادر . وكم أرجو أن تكون أسرة « لى » قد اهتمت برسائلى وربطت جيداً قَدَمَيَّ ابنتهم خطيبة ولدى .. شقيقك . غير أننى أخشى من هذا الأمر ، لأننى سمعتُ أنها تعلمت في الكتب الأربعة ، ولم تكن النساء اللاتى تعلمن من الحسناوات على الإطلاق . يجب أن أعاود إرسال كلمة بخصوص هذه المسألة لمن توسَّط بيننا .

أمّا من جهتك يا بُنيتى ، إذا كانت زوجة ابنى تضاهيك ، فلن أشكو كثيراً ، فأنت قد تعلمت العزف على الهارب القديم الذى طالما مَسَّتْ أوتارُهُ برشاقة أجيالٍ من نساءنا ليهجن أزواجهن إن أناملكِ ماهرة، وأظفارك طويلة . وقد تعلمتِ أيضاً أشهر قصائد قُدامى الشعراء ، ويمكنك أن تنشدينها غناءً عذباً وأنت تعزفين على آلة الهارب . وإننى لا يمكن أن أرى حماك ، ستجد شيئاً قد فاتنى فى تربيتك ، إلا إذا لم تنجبنى لهم ولداً بيد أننى سأوجهه إلى المعبد، وأقدم للإلهة قرباناً إذا انقضى العام الأول دون أن تحملى»

صعد الدم إلى وجهى لا يمكننى أن أتذكر متى كنت لا أعلم شيئاً عن الولادة والأمومة^٩ إن الرغبة فى إنجاب الأولاد فى أسرة مثلنا تشمل ثلاث محظيات لأبى ، جُلُّ هَمِّهِنَّ ينحصر فى الحمل وإنجاب الأطفال، كان شيئاً عادياً لا يكتنفه أى سر أو غموض ، حتى التفكير فى ذلك من أجلى لم يجعل والدتى ترى احمرار وجنتى . لقد جَلَسْتُ مستغرقةً فى التأمل ،وعاودت التسلى مرة أخرى بقزقة لب البطيخ .

وأخيراً قالت .

- هناك شىء واحد فقط . لقد كان فى الخارج فى بلاد أجنبية ، ودرس طبها وأدويتها إننى لا أعرف .. ولكن كفى ! فالزمن كفيل بإظهار كل شىء .. انصر فى .

* * *

لا أستطيع يا أختاه أن أتذكر متى تحدثت والدتي بمثل هذا الكم من الكلمات ، فهي في الواقع نادرًا ما تكلمت إلا لُتَصَحَّحَ أو لتأمر . وهذا حقها، فلم تكن هناك امرأة أخرى في جناح النساء الخاص بنا تضاهيها ، فقد كانت السيدة الأولى في المكانة وقدرتها الفطرية .

لقد رأيت والدتي يا أختاه .. إنها - كما تتذكرين - سخيفة جدًا ، ويبدو وجهها كما لو كان منحوتًا من العاج لاصفراره وشحوبه وهدوئه . لقد قيل - كما سمعت - إنها كانت في شبابها قبل أن تتزوج ذات حاجبين كحاجبي الفراشة في جمالهما الأخاذ ، وشفتين في رقة براعم أشجار السفرجل بلونها القرمزي الغامق الذي يُحاكي لون هياكل المرجان . بل إن وجهها - على الرغم من عدم اكتنازه باللحم - ما زال يحتفظ بشكله البيضاوي الواضح كذلك الذي نراه في لوحات النساء من القدماء . وبالنسبة لعينيها فإن السيدة الرابعة ، وكانت لَسِنَّةً ، قالت عنهما ذات مرة .

« إن عَيْنِي السيدة الأولى جوهرتان حزينتان ، لؤلؤتان سودوان ، خمدتا من وفرة ما خبرته من مأس ومحن ! » .

آه يا أماه !

لم يكن أحد يماثلها، عندما كنتُ في طفولتي كانت تفهم أشياء كثيرة ، وتتحرك بوقار فطري هادئ جعل المحظيات وأبناءهن يرهبونها جميعاً، ويوقرونها حينما يكونون في حضرتها . غير أن الخدم كانوا يكرهونها ،

على الرغم من أنهم يعجبون بها . واعتدت أن أسمعهم يُدمدمون تدمراً ، لأنهم لم يكن تسنح لهم فرص كثيرة لسرقة قطع من الطعام في المطبخ ، دون أن تظن إلى هذا الأمر . ومع ذلك لم يحدث قط أن أنبثهم بصوت عالٍ ، كما كانت المحظيات يفعلن حين يغضبن . وعندما كانت والدتي ترى ذلك الذى لا يرضيها ، فإن كلمات قليلة تخرج من بين شفثيها ، إلا أن تلك الكلمات كانت حادة ، تحمل احتقاراً وازدراءً ، تسقط على المذنب كما يسقط الثلج القارس البرودة على اللحم .

كانت تحنو على أخى وعلئ ، ولكنها كانت تتمسك بالشكليات ، وتحفظ في التعبير عن عواطفها ، كما يقتضيه الواقع لمن كانت في مثل مكانتها في الأسرة . لقد انتزعت قسوة الآلهة أربعة من أبنائها الستة ، وهم في طفولتهم المبكرة ، ولهذا حظى ولدها الوحيد - أخى - بتقديرها واهتمامها . وطالما أنها أنجبت لوالدى ابناً واحداً حياً يرزق ، لم يكن لديه سبب شرعى يجعله يتذمر منها .

وفوق ذلك كانت في أعماقها فخورة بشقيقى لشخصه .

هل رأيت شقيقى ؟ إنه مثل أمى بجسمه النحيل ، وعظامه الرقيقة ، وقامته الطويلة المستقيمة كشجرة بوص ناشئة . وكالأطفال الصغار كنا متلازمين معاً على الدوام ، وكان أول من علمنى أن أسس خطوط الحروف المرسومة في كتابى الأول (لتعليم مبادئ القراءة) بفرشاتي

المبللة بالحبر . ولكنه كان صبيًا ، وأنا كنت مجرد بنت . وعندما بلغ التاسعة - وكنت أنا في السادسة -أخذه من جناح النساء إلى الجناح الذى يعيش فيه أبى . وكنا نادرًا ما نلتقى ، لأنه كلما نما وكبر اعتبرَ زيارة النساء شيئًا مخجلًا ، بالإضافة إلى أن والدتى لم تكن تشجعه على ذلك .

وأنا بلا ريب لم يكن يُسَمَح لى قط بالذهاب إلى الأبنية التى يقطنها الرجال . وعندما فصلوا شقيقى لأول مرة عن النساء ، تسلفت فى إحدى المرات فى غَسَق الليل إلى بوابة القمر المستديرة التى تؤدى إلى جناح الرجال، واتكأت على الجدار المقابل ، وحدقت فيما وراء الساحة آملة أن أرى شقيقى ، ربما فى الحديقة، ولكننى رأيت فقط خدماً من الرجال ، يهرولون جيئةً وذهاباً يحملون سُلطانيات تتصاعد منها أبخرة الأطعمة الساخنة ، وحين فتحو الأبواب التى تفضى إلى جناح والدى، انسابت ضحكات صاخبة ، مختلطة بصوت رقيق لامرأة تغنى بصوت عالٍ . وعندما أغلقت الأبواب الثقيلة ران الصمت على الحديقة.

وقفتُ طويلاً استمع إلى ضحكات المدعوين إلى الوليمة ، وهم يتناولون أطايب الطعام ، وقد اعترتنى دهشة لم تَخُلْ من حُزن ، وأنا أتساءل عَمَّا إذا كان شقيقى وسط هذا المرح وتلك المسرات البهيجة ، وفجأة أحسست بذراعى تُجَذَّب بشدة . لقد كانت «وانج دا ما » ، كبيرة خادمت والدتى، والتى صاحت .

— هل أخبر والدتك عَمَّا بَدَرَ مِنْكَ الآن ؟

- هل رأى أحدٌ من قبل فتاةً غير محتشمة، تذهب لتختلس النظر إلى الرجال ؟

لم أجسر على التحدث أكثر من أن أتمتم معذرة لفرط خجلى .

- كنتُ فقط أبحث عن شقيقى !

ولكنها أجابت فى حزم .

- إن شقيقك أصبح الآن رجلاً .

ولهذا نادراً ما رأيته مرة أخرى .

غير أننى سمعت أنه ولوع بالدراسة ، وأصبح فى وقت مبكر بارعاً فى «الكتب الأربعة» ، و«الكلاسيكيات الخمس» ، مما دعا والدى إلى أن يهتم بتوسله وسمح له أن يلتحق بمدرسة أجنبية فى «بكين» .

وفى الوقت الذى تزوجتُ فيه كان يدرس فى الجامعة القومية ببكين، وفى رسائله التى كان يبعث بها إلى البيت، كان يرجو بإلحاح أن يُسمح له بالذهاب إلى أمريكا . وفى بادئ الأمر لم يعر والدائى أدنى صاغية لهذا الأمر، ولم توافق عليه والدتى ، ولكن أبى كان يكره ما يعكر عليه صفوه، وكنت أرى أن شقيقى بإلحاحه سيفوز بمبتغاه فى النهاية .

وفى العطلتين اللتين قضاهما فى البيت قبل رحيل عنه، كان يتحدث كثيراً عن كتاب أسماه «العلم» . وقد شعرت والدتى بأن ذلك شيئاً يُؤسف له ، لأنها ترى أن هذه المعرفة الغربية لا جدوى منها بالنسبة

لحياة سيد صيني . وفي آخر مرة جاء إلى البيت ارتدى ثياباً أجنبية فأثار استياء أمي. وعندما دخل الحجرة بمظهره الأجنبي الكئيب ، طرقت والدتي الأرض بعصاتها وصاحت

- ما هذا ؟ ما هذا ؟ ألم تَسْتَحْ أن تقابلني بمثل هذا الزي الأجنبي ؟

لذا اضطرر إلى ارتداء ثيابه الخاصة، برغم أنه كان غاضباً ، وتأخر يومين عن لقائها ، إلى أن ضحك أبي منه ، وأمره بمقابلتها . كانت أمي محقة فشقيقي في ثيابه الصينية كان يبدو عالماً جليلاً في حين أن ساقيه اللتين كشف عنهما في زيه الأجنبي، لم يكن يشبه شيئاً رأيناه أو سمعنا عنه في أسرتنا

بيد أنه حتى في زيارتيه لم يتحدث معي إلا نادراً لم أكن أعرف شيئاً عن الكتب التي أحَبَّها ، إذ لم أتمكن من توفير الوقت لأتابع مزيداً من الكلاسيكيات لكثرة الأشياء التي شغلتنى استعداداً للزواج .

أما عن زواجه فنحن لم نتحدث عنه قط ، فذلك الأمر لا يكون لائقاً بين شاب وشابة، وقد علمت فقط من الخدم الذين يسترقون السمع أنه كان ثائراً ضد هذا الزواج ، ويمانع فيه ، مع أن والدتي حاولت ثلاث مرات تحديد يوم الزفاف ، وفي كل مرة كان يقنع والدي بتأجيل الزواج حتى يتسنى له تحصيل مزيد من العلم ، وكنت أعرف طبعاً أن خطبته كانت قد عُقدت على الابنة الثانية لآل «لى»، وهى أسرة لها مكانتها في المدينة ، لثرائها ومركزها ، وطوال ثلاثة أجيال قبلنا كان رب بيت آل «لى» ورب بيتنا حُكَّاماً لإقليمين متجاورين في المقاطعة نفسها .

- إننا بالطبع لم نكن قد رأينا خطيبته ، فهذه المسألة قد سَوَّاهَا أبى قبل أن يبلغ شقيقى العام الأول من عمره ، ولهذا لم يكن من اللائق لأُسرتينا أن تَتَزَاوَرَا قبل أن يتم زواج أخى . وفى الواقع لم يكن هناك حديث يتعلق بالخطيبة ، باستثناء ما سمعته فى إحدى المرات من «وانج دا ما » وهى منهمكة فى القيل والقال مع الخادِمات الأخريات ، كاشفةً أسراراً شخصية هكذا .

- مما يدعو للأسف والرتاء أن ابنة «لى» تكبر سيدنا الشاب بثلاثة أعوام. إن الزوج يجب أن يكون أرفع منزلة حتى فى السن ، ولكن الأسرة عريقة، وثرية، و ..

ثم رأتنى فلاذت بالصمت ومضت إلى عملها .

لم أستطع أن أفهم لماذا رفض أخى أن يتزوج . لقد ضحكت المحظية الأولى حين سمعت بذلك وصاحت قائلة .

- لابد أنه وجد فتاة جميلة من منطقة «مانتشوا» ولكننى لا أعتقد أن أخى يحب أى شىء سوى كتبه. وهكذا نشأتُ وبلَّغْتُ رشدى فى ساحات النساء .

وبالطبع كان هناك أطفال المحظيات ؛ ولكننى عرفتُ أن أمى تعتبرهم مجرد أفواه كثيرة تحتاج إلى الطعام ، عندما كانت توزع عليهم حصصهم اليومية من الأرز والزيت والملح ، ولم تكن تُعيرهم اهتماماً سوى إصدار

الأمر بالياردات اللازمة من قماش القطن الأزرق العادي غير المزخرف
لثيابهم .

أما المحظيات فلم يَكُنَّ في الواقع غير نساء جاهلات لا غير ، وكثيراً ما
يتعاركن ، وتمزقهن غيرة مميتة حول مكانة الواحدة منهن في تعلق أبي
بها . لقد أولع بهن والدى في أول الأمر لجمالهن الذى لم يلبث أن ذَوَى
تدريجياً ، كما تذبل الأزهارُ التى قُطفت في الربيع ، وفَقَدَنَ حظوتهن لديه
عندما وَلَّى جمالهن القصير الأمد ، ولكن يبدو أنهن لم يستطعن إدراك أن
جمالهن قد زال . وكن قبل مجيئه بأيام ينهمكن في تلميع حليهن
وأثوابهن . كان والدى يعطينهن نقوداً في أيام الأعياد ، وحين يواتيه الحظ
في لعب القمار ، إلا أنهن كُنَّ يُنْفِقْنَها بغباء على الحلوى والأنبذة التى
يُحِبُّنها ؛ فلا يبقى لهن شىء قبل مجيء أبى ، فيقترضن النقود من
الخادِمات لشراء أحذية فيقترضن النقود من الخادِمات لشراء أحذية
جديدة وحليّات لتزيين الشعر . كانت الخادِمات ينظرن بازدراء
للمحظيات ، بعد أن فَقَدْنَ حُبَّ والدى ، فيندفعن معهن في مساومات
قاسية .

كانت أكبر المحظيات سنّاً مخلوقة بدينة قصيرة ، وكانت ملامحها
البالغة الصغر غائرة في وجنتيها النائتتين ، ولم يكن يميزها شىء سوى
يديها الصغيرتين الجميلتين اللتين كانت تتيه بهما فخراً ، فتغسلهما
بالزيت ، وتصبغ راحتيهما باللون الأحمر الوردى ، وتطلى أظفارها

البيضاوية الناعمة بصبغ الزنجفر القرمزى ، ثم تعطر يديها بعطر
المانوليا النفاذ .

كانت أمى أحياناً تسأم من حماقة هذه المرأة وتفاهتها وزهوها
الأجوف، وبشئ من الخبث تأمرها بأداء بعض الأعمال الخسنة من
غسيل وحياكة وكانت « السيدة الثانية » البدينة لا تجرؤ على العصيان ،
غير أنها كانت تنتحب وتئن ، وتبث شكواها سراً إلى المحظيات الأخريات
من أن أمى تغار منها ، وتريد أن تفسد جمالها ليعزف عنها أبى ، وكانت
تقول هذا وهى تعنى بيديها فى تلك اللحظة ، وتتفحسهما بعناية شديدة
لترى ما إذا كان الجلد الرقيق قد أصابته خدوش أو أصبح غليظاً . ولم
أكن أنا أحتمل أن ألمس يديها ، فقد كانتا بضئى دافئتين ناعمتين ، تكادان
تنصهران عند الإمساك بهما

مضى وقت طويل منذ أن كَفَّ والدى عن الاهتمام بهذه المرأة ، بيد أنه
كان حين يجىء يمنحها نقوداً ، ويقضى ليلة فى شقتها خشية أن تصيح
بصوت عال فى الساحات والأفنية فتضايقه وتثير السخرية منه
بتوبيخها وكان له منها ولدان ، الأمر الذى يُحوّل لها أن تحظى ببعض
الاهتمام .

كان ابناها بدينين ويشبهان أمهما تماماً ، ولم أكن أستحضرهما فى
ذهنى ، إلاّ وتصورتها يأكلان ويشربان باستمرار . كانا يتناولان
الطعام على المائدة مع الآخرين ، إلا أنهما يتسللان بعد ذلك إلى فناء الخدم
ويتعاركان معهم من أجل ما تبقي من فضلات الطعام . وكانا دائمي

التجول بخبث خوفاً من والدتي، التي كان أكره شئٍ لديها الجشع والشرّ، ولم تكن هي نفسها تتناول أكثر من سلطانية أرز وقطعة من السمك المملح، أو شريحة رقيقة من لحم الدجاج البارد، ورشفة من النشاي المعطر.

إنني لا أتذكر عن السيدة الثانية أكثر من أنها كانت دائماً تخشى أن تموت. كانت تُكثر من تناول كعك السمسم المشبع بالزيت، وعندما تسقط فريسة للمرض، كانت ترقد وهي تئن وتتأوه في فزع شديد، ثم تدعو الكهنة البوذيين، وتعد بأن تمنح المعبد حلق شعرها اللؤلؤية إذا شفتها الآلهة. ولكنها ما إن تبَلَّ من مرضها حتى تعاود تناول الكعك مرة أخرى وتتظاهر بنسيان ما وعدت به.

وكانت المحظية الثانية «السيدة الثالثة» امرأة غامضة، قلما تتحدث، ولا تسهم في حياة الأسرة إلا بالنزير اليسير. كان لها خمسة أطفال من البنات، عدا الأصغر، وقد أضعف هذا من معنوياتها، وأوقع الغم في نفسها. لم تكن تعنى بالبنات، وأهملتهم، وكُنَّ لا يتميزن كثيراً عن الجاريات اللاتي كنا نشترينهن للخدمة. كانت تقضي وقتها في ركن مشمس بالفناء ترضع ابنها الثقيل الشاحب، الذي بلغ الثالثة من عمره، وما زال عاجزاً عن الكلام والمشى، ويكثر من البكاء، ويمضي أيامه متعلقاً بئديّ أمه الطويلين المترهلين.

أما المحظية الثالثة فقد كانت أحب المحظيات إلى نفسي، وهي راقصة صغيرة من «سوتشو». كان اسمها الأصلي «لا - ماي»، وهي جميلة

مثل زهرة « اللا - ماى » نفسها ، التى تنمو أزهارها الذهبية الشاحبة فوق الأغصان العارية من الأوراق فى باكورة الربيع . لم تكن تضع طلاءً على وجنتيها مثلما تفعل الأخريات ، مكتفية بتحديد حاجبيها الرفيعين باللون الأسود ، ولمسة باللون القرمزى تضعها على شفتها السفلى . وكنا قليلاً ما نراها فى بادئ الأمر ، إذ أن أبى كان فخوراً بملاحظتها ، ويصطحبها معه إلى كل مكان .

وفى العام الأخير قبل زواجى ، لَزِمَتِ البيتَ فى انتظار ولادة طفلها . كان ولدًا جميلًا محببًا إلى النفس ، سمينًا ، وسيماً . كنت تحمله وتضعه بين ذراعى أبيه . وهكذا رَدَّتْ إليه ما طوقها به من حُلٍّ وحُبٍّ .

وقبل مولد الطفل كانت « السيدة الرابعة » ذات مزاج مفعم بالإثارة ، ويرتفع رنين ضحكاتها عاليًا ، ويُنْتَشَى على جمالها ثناء مستطابٍ أينما حلت ، وفى الواقع لم أر قط مَنْ تفوقها فتنة وملاحة . كانت ترتدى أثوابًا من الساتان بلون اليشب الأخضر ، والقטיפىة السوداء ، وتُعلّق قرطين من اليشب فى أذنيها الرائعتين . وكانت تزدرينا بعض الشيء ، على الرغم من كرمها الطائش ، وهى توزع علينا الكعك والحلوى التى يمنحونها إياها فى الولائم ، التى كانت تحضرها كل ليلة مع أبى . وبدأ أنها لا تكاد تتناول شيئاً سوى كعكة بالسّمسم فى الصباح بعد أن يغادرها أبى ، ونصف سلطانية من الأرز ، وجزء من عودٍ من البامبو ، أو شريحة رقيقة من لحم البط المملح عند الظهر . وكانت تحب الأنبذة الأجنبية ، وتلاطف والدى

وتتملقه ليشترى لها سائلاً أَصْفَرَ باهتاً ذا فقاقيع فضية تندفع إلى أعلى من القاع ، كان ذلك السائل يجعلها تضحك وتكثر من الثرثرة ، وتتلاً عيناها مثل بُلُورات سوداء ، ثم تسلى أبى وتمتعه إلى أبعد حد ، فيطالبيها بأن ترقص وتغنى له .

ولكن عندما كان أبى يحتفل ويقيم مأدبه ، كانت أمى تجلس في شقتها تقرأ أقوال كونفوشيوس الجليّة . وبالنسبة لى - حين كنت فتاة صغيرة - كنت عادة أتجول في ليالى الحفلات هذه ، وأنا أتوق إلى اختلاس النظر ، كما فعلت ذات مرة ، عندما بحثت عن أخى من خلال الشقوق المحفورة في بوابة القمر المستديرة إلى شقق الرجال ولكننى أعلم أن أمى لم تكن تسمح بذلك على الإطلاق ، وكنت أخجل أن أخدمها .

ومع ذلك ، ففى إحدى الليالى - وأنا الآن ممثلة خجلاً من عصياني غير اللائق بابنة ١ - تسلفت سرّاً وسط الظلمة التى جثمت على ليلة من ليالى الصيف غير المقمرة ، حملت مرة أخرى من خلال البوابة وتطلعت إلى داخل شقق والدى .. لا أعرف لماذا فعلت ذلك .. لم أعد أفكر في شقيقى .. كانت تملؤنى رغبة عجيبة غامضة ، جعلتنى قلقة متضجرة خلال اليوم الحار الطويل . وعندما هبط الليل يحمل معه الدفء والظلمة وأريج زهور اللوتس ؛ اختفى معه هدوء حجرات النساء ولم يعد له وجود. تسارعت دقات قلبى عندما حملتُ . كانت الأبواب مفتوحة على مصاريعها ، وانساب الضوء المنبعث من مائة فانوس مخترقاً الهواء

الساكّن الحار . وفي الداخل رأيت رجالاً يجلسون حول موائد مربعة ، وهم يتناولون الطعام والشراب ، والخدم يهرولون ذهاباً وإياباً وهم يحملون الطعام . وخلف مقعد كل رجل كانت تقف فتاة بقوامها الرفيع الذى يشبه قوام سيقان الكروم . ولكن « لا - ماى » كانت تجلس بجانب أبى ، وهى المرأة الوحيدة الجالسة إلى المائدة . تمكنتُ من أن أراها بوضوح تام ، وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة خفيفة ، تطل من وجهها ، الذى كان مشرقاً كَبِتْلَات زهرة شمعية حينما استدارت نحو أبى . قالت شيئاً بصوت منخفض وشفاتها لا تكادان تتحركان ، ثم انطلق ضحك الرجال يهدر صاخباً . لم تتغير ابتسامتها ، وظلت كما هى خفيفة رقيقة دون أن تضحك .

وفي هذه المرة اكتشفتنى أمى بنفسها ، ونادراً ما كانت تغادر البيت ، ولا حتى لكى تتمشى في الأفنية ، غير أن ارتفاع الحرارة في تلك الليلة دفعها للخروج ، ومكنتها عيناها الحادثان من أن تفتن إلى على الفور . أمرتنى بالعودة في الحال إلى حجرتى ، وتبعتنى إلى هناك حيث ضربتنى بشدة على راحتي يديّ بمروحتها الخيزرانية المطوية ، وسألتنى باحتقار عمّا إذا كنتُ قد رغبت في مشاهدة بنات الهوى وهُنَّ يُمارِسْنَ مهنتهن . اعترانى الخجل وبكيت !

وفي اليوم التالى أمرت بوضع شبكة من الأصداف المعتمدة على بوابة القمر ، ولم أعد قط إلى النظر خلالها بعد ذلك .

ولكن أمى كانت على الرغم من ذلك تحنو على السيدة الرابعة . وكان

الخدم يثنون على والدتي بصوت عالٍ بسبب تحمّلها وصبرها ولينها تجاه تلك السيدة . ولو أنني أعتقد أن المحظيات الأخريات كان يسعدن أن يروا أمي تقسو عليها كالمتبع عادة من السيدة الأولى نحو الأخريات ، وربما كانت أمي عليمة بخفايا الأمور .

وحين وضعت السيدة الرابعة طفلها ، ظننت أن والدي بالطبع سيعاود اصطحابها معه مرة أخرى ، لم ترضع الطفل من ثديها حتى لا تشوه جمالها ، وبدلاً من ذلك سلمته لجارية قوية ، هذه الجارية كانت ضخمة القوام ، بذيئة اللسان ، إلا أن الطفل الصغير كان ينام على ثديها وفي أحضانها طوال الليل ، ومحمولاً على ذراعيها طوال النهار ، وكان اهتمام أمه به قليلاً ، إلا حين تلبسه ثوباً أحمر في مهرجان أو احتفال ، وتضع في قدميه حذاءين مرسوم على كل منهما وجه قطّة ، وتلاعبه لفترة قصيرة . وإذا بكى تدفع به نافذة الصبر إلى ذراعى الجارية .

بيد أن الصبى لم يشدد قبضتها على أبي ، ومع أنها ردت له شرعياً ما تدين به إليه ، فقد كانت تسعى يومياً لتدبير الحيل والمكائد للسيطرة على أحاسيسه ، كما اعتادت نساؤنا أن يفعلن ذلك ، حتى خبثها لم يكن كافياً ، ولم تعد بمثل جمالها كما كانت قبل ولادة الطفل . تراخى وجهها الناعم اللؤلؤى إلى حدٍّ سلّبها شبابها الغض . كانت ترتدى ثوبها الأخضر اليشبى ، وتُعلق قرطين في أذنيها ، ويُسمع لضحكاتها رنين خافت ، وبدا على والدي سروره بها كسابق عهده ، عدا أنه حين سافر في رحلته التالية لم يصطحبها معه .

أصابته دهشة ، وبدا غضبها رهيباً مفرعاً ، وعمَّ السرور المحظيات
الأخريات في سرهن ، وابتسمن كثيراً وهن يتظاهرن بمواساها . أبدت
أُمى بعض الشفقة عليها أكثر من المعتاد . لقد سُمعت « وانج دا ما »
تغمغم في غضب

- آه ، نعم ، الآن سرعان ما ستحل امرأة كسول جديدة نقوم
بإطعامها. إنه حالياً قد سئم من هذه

ومنذ ذلك اليوم جلست السيدة الرابعة في سَكينة مستغرقة في التفكير.
لقد أصبحت مستاءة ساحظة ، تنتابها نوبات من جِدَّة الطبع ، وسرعة
الانفعال ، وشدة الضجر والملل من رتابة الحياة في جناح الحريم ، وهى
التي اعتادت الحفلات والولائم وإعجاب الرجال بها . أصبحت منقبضة
النفس ، وحاولت فيما بعد أن تضع حداً لحياتها ، ولكن ذلك حدث بعد
زواجى . ومن كل ما ذكرت يجدر ألاً نتصور أن حياتنا في البيت كانت
كثيبة محزنة ، حقاً لقد كانت حياة سعيدة ، وكثير من جيراننا كانوا
يحسدون والدتى ، ولم يتوقف أبى قط عن احترامها لفكرها ومقدرتها في
إدارة شئونه، ولم يحدث على الإطلاق أن لامته على شىء .

وهكذا كانت الحياة يسودها الاحترام والسلام .

آه يا بيتى الحبيب ! إن طفولتى تمر أمامى في صور ينيها ضوء
النيران المنبعثة من أحد المواقد في الأفنية ، حيث كنت أراقب براعم اللوتس

تتفتح في الفجر إلى أزهار في البركة ، وزهور الفوانيا في أوج تفتحها في حدائقها المستطيلة ، التي تتوسط الساحة بالقرب من حجرات الأسرة ، حيث يتعثر الأطفال فوق القرميد الذي يكسو أرضيتها ، وحيث الشموع بضوئها الخافت أمام آلهة البيت ، وحجرة والدتي ، حيث أرى منظرًا جانبياً لها وجهها الصارم وهي منحنية على كتاب ، وفي الخلفية يقبع السرير الضخم الذي يعلوه ظلُّ العرش

ومن أعز كل هذه الأشياء قاعة الضيوف الفخمة بآرائكها ومقاعدھا الثقيلة المصنوعة من خشب السَّاج الأسود ، والمنضدة الطويلة ذات النقوش ، وستائر الساتان القرمزية على مداخل الأبواب ، وهناك لوحة للإمبراطور « مينج » معلقة فوق المنضدة .. وجه لا يقهر بذقنه التي تشبه منحدرًا صخريًا .. وتوجد لفيفة ذهبية ضيقة ، مُدَوَّن عليها وثيقة معلقة على كل جانب من اللوحة . والجانب الجنوبي بأكمله من القاعة مكون من إطارات نوافذ منقوشة ، وعليها شبكة من أوراق الأرز . وكانت هذه الأوراق ينبعث منها ضوء خافت ذو بريق لؤلؤي يتخلل وقار الحجرة المعتم ، ويمتد حتى عوارض السقف الثقيلة ، ويضيء حوافها القرمزية والمذهَّبة . إن جلوسى بهدوء في قاعة أسلافي هذه ، وأنا أراقب ضوء الشفق يهبط عليها في السكون المعتم ، كان بالنسبة لي مثل الموسيقى .

وفي اليوم الثاني للسنة الجديدة ، الذي كان يوم السيدات العظيمات

اللاتى يتبادلن فيه الزيارات ، كانت القاعة يغمرها ابتهاج ناعم رقيق
ويأتى جَمْعٌ من السيدات على مشارف الشيوخوخة فى ملابسهن المتألقة
تتلاأ الأضواء ، وتنبعث الضحكات ، وتدور الأحاديث العادية ، ويمر
العبيد حملون الكعك الصغير على صوانى الحلوى المطلية باللون الأحمر .
وكانت أمى تترأس كل ذلك بكياستها الرزينة . إن أشعة الضوء العتيقة
أطلت على المشهد نفسه على مدى مئات الأعوام .. رءوس سوداء ، وعيون
نجلاء ، حرير وساتان بلون قوس قزح ، حليات شعر من اليشب
والياقوت ، وفيروز وذهب ، تتوهج على الأيدى العاجية النحيلة .

آه يا بيتى الحبيب آه أيها الحبيب العزيز !

هأنذى أرى نفسى شكلاً بشرياً صغيراً وقوراً ، متعلقة بيد شقيقى ،
أقف بجانب النيران فى الفناء حيث تقف آلهة المطبخ على وشك أن تُحرق .
وكان هناك عسل قد وُضع على شفاهها الورقية لعلها تصعد إلى السماء
تحمل كلمات حلوة ، وتنسى أن تروى عن الأوقات التى تعارك فيها
الخدم عندما سرقوا الطعام من الآنية . وكنا نمتلىء رهبة حين يدور
بخلدنا هؤلاء الرسل الذين سيذهبون بعيداً نحو المجهول . وكنا لا نتفوه
بكلمة ونلوذ بالصمت .

إنى أرى نفسى فى مهرجان « التنين » وقد تدرتُ بأفضل أثوابى
الحريرية القرنفلية اللون الخاصة بيوم العيد ، والمطرزة بأزهار البرقوق،
منتظرة - بشق النفس - حلول المساء حين يأتى شقيقى الذى
سيصحبنى لأرى سفينة التنين عبرالنهر .

وأرى فانوس اللوتس المتأرجح الذى تحضره لى مربيتى العجوز فى عيد الفوانيس ، وتضحك حين يجن الليل فيثيرنى أن أضىء الشمعة الحمراء داخل الفانوس فينبعث منها الدخان .

وأشاهد نفسى أسير ببطء بجوار والدتى إلى المعبد الكبير . وهناك أرقبها وهى تضع البخور داخل الحجرة ، وأركع معها فى خشوع أمام الإله وأنا أحس بصقيع الخوف بين ضلوعى .

إننى أسالك يا أختاه ، على مدى تلك السنين التى شككتنى ، كيف تم إعدادى لمثل هذا الرجل كزوج لى ؟ كل إنجازاتى ليست ذات نفع . لقد خططت فى السر أننى سأرتدى المعطف الحريري الأزرق ذا الأزرار السوداء المزخرفة بالفضة ببراءة ، وسأضع زهور الياسيمين فى شعرى ، وأنتعل حذاءين أسودين مطرزين باللون الأزرق . وسأحبيه حين يدخل . ولكن عندما مرَّ كل ذلك ، إذا بعينيه تهربان بسرعة صوب أشياء أخرى .. رسائله ، وكتابه .. لقد أصبحت منسية .

إن الخوف يتلوَّى داخل قلبى .. هأنذى أتذكر يوماً قبل زواجى . إنه اليوم الذى سطرت فيه أمى بخط يدها رسالتين على وجه السرعة ، إحداهما لأبى ، والأخرى لحماتى المستقبلية ، وبعثت بهما على عَجَلٍ مع البواب العجوز . لم يسبق لى قط أن رأيتهما بمثل هذا القلق . وفى ذلك اليوم سمعتُ الخدم يتهامسون بأن خطيبى أراد أن يفسخ خطبتنا لأننى غير متعلمة ، ولأن لى قدمين مربوطتين . لقد انفجرت باكية ، وانهمرت

دموعى ، وذعر الخدم وأقسموا بأننى لم أكن التى تحدثوا عنها ، وإنما
قصدوا الابنة الثانية البدينة للسيدة « تار »

إننى أتذكر هذا الآن وأتأمل فيه ملياً وأنا قلقة ثائرة . أترانى كنت
المقصودة ؟ إن الخدم كاذبون على الدوام ، وفوق ذلك فإننى لست غير
متعلمة . لقد تدربت بدقة على كل ما يخص الشؤون المنزلية ، وعلى العناية
بنفسى أما بالنسبة لقدمى ، فمن المؤكد أنه ليس هناك أحد يفضل
الأقدام الضخمة الخشنة كقدمى بنت فلاح . لم أكن أنا المقصودة لا
يمكن أن أكون تلك التى تحدثوا عنها !



2

حين قلت وداعاً لبيت والدتي ، وخطوت إلى المقعد الأحمر الكبير وجلست فيه لأُحْمَل إلى بيت زوجي ، لم يدر بخلدني على الإطلاق أنني قد لا أروقه ، فبالنسبة لي ، تذكرت أنني كنت سعيدة، وصغيرة، ورشيقة، وذات وجه بيضاوى يسر الآخرين حين ينظرون إليه . وهنا على الأقل لن يُصاب زوجي بخيبة أمل.

وفي أثناء الاحتفال بطقس النبذ اختلستُ النظر إليه من خلف الخيوط الحريرية الحمراء لنقابى ، فرأيتَه يقف هناك بشيابه الأجنبية السوداء الكثيفة. كان طويلاً مستقيماً القامة مثل عصا من البوص الغض . شعرت ببرودة وحرارة تكتنف قلبي مع بعضها البعض . كنت أتوق إلى نظرتَه الغامضة ، غير أنه لم يُدِرْ عينيه ليخترق نقابى . شربنا كئوس النبذ معاً . وانحنينا أمام لوحات أجداده . وركعت معه أمام والديه المهيبين . لقد أصبحت ابنتهما ، تاركة أُسرتى وعشيرتى إلى الأبد . لم ينظر نحوى إطلاقاً.

* * *

وفي تلك الليلة - بعد أن انتهت الوليمة ، وضحكات المزاح - جلستُ وحيدة على الأريكة في حجرة العروسين ، كدت أختنق خوفاً . إن الساعة التي تخيلتها وفزعت منها واشتقت إليها طوال حياتي قد أتت . الساعة التي نظر فيها زوجي إلى وجهي لأول مرة ، وكنا وحدنا معاً كانت يداي الباردتان تضغط إحداهما على الأخرى في طية ثوبي التي تغطي الركبتين والفخذين . ثم دلف إلى الداخل ، وهو لم يزل طويلاً كثيباً وهو يتدثر بتلك الثياب الأجنبية القاتمة اتجه نحوي على الفور ، ورفع النقاب عن وجهي في صمت ، ونظر إلّئ ملياً ، وهكذا تعرف عليّ ، ثم تناول إحدى يديّ الباردتين ، وكانت حكمة أُمي قد علمتني ما يلي .

« كوني باردة أكثر منك دافئة كوني في نكهة النبيذ .. أكثر من أن تكوني متخمة بحلاوة العسل آنذاك لن تضعف رغبته فيك » .

لذا مَانَعْتُ في إعطائه يدي . سحب يده في الحال وحملق في وجهي صامتاً، ثم بدأ يتحدث بلهجة جادة وقورة .. في أول الأمر لم أستطع فهم كلماته بسبب صوته العجيب في أذنيّ ، صوت رجل هادئ عميق جعل جسدي يتورد خجلاً . ولم ألبث أن أدركت كلماته في دهشة . فماذا كان يقول؟

« ليس من المفروض أن تتقدمي نحوي وأنت تشاهدينني لأول مرة ، مثلما أشاهدك أيضاً لأول مرة . لقد أُجْبِرْتُ على هذا الزواج كما أُجْبِرْتَ عليه . كنا لا حَوْلَ لنا ولا قوة تجاه هذا الأمر حتى الآن ، ومع ذلك

فيمكننا - ونحن وحيدان الآن - أن نخلق حياتنا طبقاً لرغباتنا ، وفيما يتعلق بى أريد أن أتبع الأساليب الحديثة ، أود أن أراك فى كل شىء على قدم المساواة معى، ولن أجبرك على شىء بتاتاً .. أنتِ لست من ممتلكاتى ، ولا أمتعتى، ويمكنك أن تكونى صديقتى إذا أردتِ .

تلك كانت الكلمات التى سمعتها فى ليلة عرسى . وقد ذهلت فى بادئ الأمر ، لأن معناها كان فوق فهمى . أنا على قدم المساواة معه ؟ لكن لماذا؟ ألم أكن زوجته ؟ إذا لم يكن أخبرنى ماذا أفعل ، فمن غيره يخبرنى؟ ألم يكن سيدى بحكم القانون ؟ لم يجبرنى أحد على الزواج منه. ماذا كان بوسعى أن أفعل إذا لم أتزوج ؟ وكيف كان يمكننى أن أتزوج بغير مادِّبَره والداى لى ؟ ومن ذا الذى كنت أستطيع أن أتزوجه إذا لم يكن الرجل الذى خطبت له طوال حياتى ؟ كان كل ذلك طبقاً لعاداتنا ، ولم أر فيه أى إكراه .

ثم اشتعلت كلماته فى أذنى مرة أخرى . « لقد أجبرتُ على هذا الزواج كما أجبرتِ عليه ! » وفجأة كاد يغشى عني من فرط ما اعترانى من خوف . أتراه كان يريد أن يقول إنه لم يكن يرغب فى الزواج منى ؟

آه يا أختاه ! يا له من كربٍ ذلك الألم المريع !

بدأت ألقى يديّ فى طية ثوبى ، دون أن أجرو على الحديث ، ودون أن أعرف كيف أجيب . وضع إحدى يديه فوق يديّ ، ولُذْنَا بالصمت لبرهة قصيرة . غير أننى تمنيت أن يسحب يده بعيداً . أسست بعينيه مسطرتين على وجهى . وأخيراً تكلم .. كان صوته خافتاً ومريراً

- لقد حدث تمامًا ما كنت أخشاه لن تجعليني أرى فكرك الحقيقي ، ولن تستطيعي .. لن تتجاسرى على الانفصال عما تَعَلَّمْتِهِ من حيث ما يجب أن تقوليه وتفعله في هذا الوقت . اسمعيني . أنا لا أسألك أن تتحدثي ، ولكنني أرجو منك ميزة صغيرة ، وإذا كنت مستعدة لمحاولة السير معي في الطريق الحديث ، فاحني رأسك قليلاً .

لقد راقبني بانتباه ، واستطعت أن أحس بيده مستمرة في الضغط . ماذا يعني ؟ لماذا لا تمضي الأشياء في طريقها المتوقع ؟ كنت مستعدة لأن أكون زوجته . وودت أن أكون أمًّا لأبناء . آه ! ثم بدأت أحزاني .. هذا العبء الثقيل الذي بأبي أن يزايلني في ليلى ونهارى ! لم أعرف ماذا أفعل ؟ وفي غمرة يأسى وجهلى أحنيت رأسي

قال

- إنني شاكر

ونفض واقفًا على قدميه ، وسحب يده ، ثم أردف قائلاً :

- أستريح في هدوء في هذه الحجرة . تذكرى أنه لن يكون هناك شيء تخافينه الآن أو في أي وقت . إنني سأنام هذه الليلة في الحجرة الصغيرة المجاورة .

واستدار بخفة ومضى إلى الخارج

يا « كوان ين » يا إلهة الرحمة ، أشفقى على . أشفقى على ! فأننا طفلة . وكذلك صغيرة ومرتعبة في وحدتى ! لم يسبق لى البتة أن نمتُ بعيداً عن بيتى ، وهأنذى أنام الآن فى عزلة ، وقد عرفت أخيراً أننى لم ألقِ استحساناً فى عينيه !

هرولتُ صوبَ الباب ، وقد اعتقدت فى غربتى الموحشة بأننى يمكننى أن أهرب وأعود إلى بيت والدتى . ولكننى حين وضعت يديّ على المزلج الحديدى الثقيل عُدْتُ إلى وَعْىى فالعودة مستحيلة بالنسبة لى . حتى لو هربت بمعجزة عبر الأفنية المجهولة فى بيتى الجديد ، فسألتقى بالشارع الغريب .. حتى لو عثرت بمعجزة على طريقى إلى البوابة المألوفة ، فلن تفتح أبداً لتستقبلنى .. ولو أثار صوتى مشاعر البواب العجوز فسمح لى بالتعثر خلال أبواب طفولتى ، فستكون والدتى هناك فى انتظارى لتعيدنى إلى ما يحتمه الواجب على . إننى أستطيع أن أراها عنيده صلبة حزينه تأمرنى بالعودة حالاً إلى بيت زوجى ، فأننا لم أعد أنتسب لأسرتها. خلعتُ ثوبَ الزفاف آنئذ ببطء وطويته . جلستُ طويلاً على حافة السرير الضخم ذى الستائر خائفة أن أزحف تحت ظلالها . وكلماته تتقلب باضطراب جنونى فى عقلى بلا معنى . وأخيراً اندفعت الدموع إلى عينيّ ، وأسرعت رابضة تحت الأغطية ، وأخذت أنشج باكية عدة ساعات حزينه مرهقة ، حتى اعترانى نوم خفيف مفعم بالقلق

وحين بدأ الفجر يبعث بضوئه الدقيق استيقظت ، وأخذنى العجب فى

أول الأمر عندما رأيت الحجرة الغريبة ، ثم أحدقت بى ذكرياتى البائسة . نهضت من فراشى على عجل ، وارتديت ثيابى . ولما جاءت الخادمة بالماء الساخن ابتسمت وراحت تطلع حولها متسائلة .. استدرت جانباً وجلست كنت مسرورة لأننى تعلمتُ الكرامة من والدتى وعلى الأقل لا يجب أن يعرف أحد أننى لم أرُقْ لزوجى . وقلت .

– خذى الماء لسيدك ، إنه يرتدى ثوبه فى الحجرة الداخلية .

ارتديتُ فخورة ثوباً مطرزاً بخيوط الحرير القرمزية ، وعلقتُ قرطين ذهبين فى أذننى

دار القمر دورته منذ أن التقينا يا أختاه ! وقد اضطربت حياتى بأحداث غريبة

لقد انتقلنا من بيت أسلافه ! وقال فى جراءة : إن أمّه المبجلة أوتوقراطية مستبدة ، وإنه لا يريد لزوجته أن تكون خادمة فى البيت

وفى الواقع لقد جاء كل ذلك من شىء صغير ، فحين انتهت احتفالات الزفاف قدمت نفسى لوالدته هكذا . نهضت مبكرة ودعوت جارية ، وطلبت منها أن تحضر ماءً ساخناً ، وصبيته فى طست نحاسى ، ثم تقدمت الجارية أمامى ، ومضيت إلى حيث تجلس والدّة زوجى . انحنيت وقلت لها

– أرجو أن تقبل السيدة المبجلة أن تنعش نفسها وتغتسل بهذا الماء

الساخن .

كانت ترقد في فراشها .. كتلة جبلية ضخمة ملتحفة بأغطية من
الساتان . لم أجرو على التطلع إليها عندما نهضت جالسة لتغسل يديها
ووجهها .. ولما انتهت من ذلك أومأت إليّ - دون أن تتكلم - كى أنقل
الطست وأنصرف . ولا أدري ما إذا كانت يدي قد علقت بستاثر السرير
الحريرية الثقيلة، أو أن يدي قد اهتزت من جراء الخوف ، حتى أننى
عندما رفعتُ الطست مأل فتناثر بعض الماء فوق الفراش . أحسست
بدمى يتجمد في عروقي من الذعر . صرخت حماتي في غضب منكر عنيف

- ماذا بعد ؟ هل لزوجة الابن أن تفعل هذا ؟

عرفت أننى لا يجب أن أتكلم لأبرىئ نفسى ، ولذلك استدرتُ حاملة
الطست الذى كان يتقلقل في يدرئى ، لأن الدموع حجبت الرؤية عن عينيّ ،
وانصرفت من حضرتها . وحين خطوت خارجة من الباب كان زوجى يمر
هناك ، ولاحظت أنه كان غاضباً لسببٍ ما . خشيت أن يؤنبني لأننى فى
أول فرصة لم أرض والدته . لم أستطع أن أرفع يديّ لأكفكف دموعى ،
وأحسستُ بها تتجمع وتشق طريقها ، وتنحدر فوق وجنتي . غمغمتُ فى
ارتباك مثل طفلة

- إن الطست كان زلقاً ..

ولكنه طمأننى قائلاً .

- أنا لا ألومك . غير أننى لن أسمح بعد ذلك بقيام زوجتى بعمل

الخدمة . إن أمى لديها مائة من الجوارى !

حاولت أن أخبره بأننى رغبت أن أقدم لوالدته الطاعة الصحيحة التى تليق بها ، فقد أرشدتنى أمى وعلمتنى جيداً كل ما تقوم به زوجة الابن من عناية واهتمام بوالدة زوجها . أن أقف لها بأدب وأظل واقفة فى حضرتها . أن أقودها إلى أفضل المقاعد ، وأغسل برفق قدح شايها ، وأصب فيه ببطء شايأ أخضر طازجاً أقدمه لها بعناية بكلتا يديّ ، وألاً أرفض لها طلباً ، ويجب أن أحمل لها إغزازاً كوالدتى ، وأن أتحمل تأنيبها لى مهما كان جائراً ظالماً دون أن أتلفظ بكلمة . وكنت مستعدة للخضوع والإذعان لها فى كل شىء . إلا أنه كان قد عقد النية على تنفيذ قراره ، ولم يبالِ بشىء مما قالت

ولم يكن من الفروض أن يتم التغيير فى سهولة ويسر . لقد أمره والداه أن يمكث فى بيت الأسلاف طبقاً للعادة القديمة . كان والده عالماً حياً صغير الجسم ، أحنى التعليم ظهره . وبينما كان جالساً إلى يمين المنضدة فى حجرة الجلوس - تحت لوحات الأسلاف - إذ مرَّ يده برفق على لحيته البيضاء الضئيلة ثلاث مرات وقال

- يا بنى أبى فى بيتى ، فما أملك هو ملكك ، وهنا طعام وفير ، وفسحة فى المكان . إنك لست فى حاجة إلى تبديد قواك فى العمل الجسدى . أنفق أياك فى راحة مشرفة ، وفى الدراسة التى تتفق مع مبولك . ودع زوجتك ، تلك الفتاة النبيلة تنجب أبناءً . إن ثلاثة أجيال من الرجال يعيشون تحت سقف واحد لمظنر يسر السماء

غير أن زوجى كان سريع الغضب ، نافذ الصبر ، ودون أن يتوقف
لينحنى لأبيه صاح قائلاً

- ولكننى أريد أن أعمل يا أبى .. لقد تدربتُ على مهنة علمية ، هى أنبل
المهن فى العالم الغربى ، أمّا الأبناء فليس لهم الأولوية فى رغباتى . إننى
أود أن أقدمَ ثمرة عقلى لصالح بلادى إن مجرد كلب طليق خليق بأن
يملاً الأرض بثمار جسده !

لقد سمعت بنفسى الابن يتحدث هكذا إلى والده ، وأنا أختلس النظر
من خلال الستائر الزرقاء ، فامتلتُ رعباً ، فلو كان الابن الأكبر ، أو لو
كان قد تَزَبَّى فى نطاق الأساليب القديمة ، لَمَا استطاع على الإطلاق أن
يُقاوم أباه بهذا الشكل . إن الأعوام التى قضاها فى الخارج بتلك البلدان -
حيث الصغير لا يوقر الكبير - قد جعلته يسلك ذلك السلوك غير اللائق
بابنٍ نحو أبيه ، ولكنه فى الحقيقة قال كلمات دمتة لوالديه عند رحيله ،
ووعدهما بأن قلبه سيظل قلب ابنٍ لهما على الدوام . ومع ذلك فقد
ارتحلنا

هذا السبت الجديد لا يشبه شيئاً مما رأيت فى حياتى الماضية ، فليس له
أفنية ، هناك ففط صالة صغيرة مربعة بها مداخل الحشرات الأخرى ،
كما يوجد سلم يرتفع منها إلى أعلى ، وعندما ارتقىته لأول مرة خشيت أن
أسقط من فوقه إلى أسفل مرة أخرى ، لأن قدمى لم تعتادا على سُلَّم بمثل

ذلك الانحدار الشديد . ولهذا جلستُ وزَلْتُ قدمي من درجة إلى درجة ، وأنا متعلقة بالحاجز الخشبي . وشاهدت فيما بعد أن قليلاً من الدهان الجديد قد عَلِقَ بسترتي ، فسارعت بتغييره مخافة أن يسألني زوجي عن ذلك ، ويسخر من خوفي . إنه يضحك على نحو سريع وفجائي بصوت صاخب .. إنني أخشى ضحكه !

ومن جهة ترتيب الأثاث لم أكن أعرف كيف أضعه في مثل ذلك البيت .. لم يكن يتسع لأي شيء .. وكنت قد أحضرتُ من بيت والدتي - كجزء من بائنتي - منضدة ومقاعد من خشب الساج الصلب ، وسريراً ضخماً ، كسرير زواج والدتي . وَضَعْتُ زوجي المنضدة والمقاعد في حجرة ثانوية أسماها « حجرة الطعام » . أما السرير الضخم الذي ظننت أنه سيكون مهبطاً لأبنائي لم يكن من المستطاع وضعه في أي غرفةٍ من الغرف الصغيرة العلوية . وأصبحت أنام على سرير من البوص مثل خادمة . أما زوجي فهو ينام في غرفة أخرى على سرير من الحديد ضيق مثل الدُّكَّة . إنني لا أستطيع أن أعتاد مثل هذه الغرائب .

وفي الحجرة الرئيسية أو التي يطلق عليها زوجي اسم « قاعة الاستقبال » وضع مقاعد اشتراها بنفسه ، وكانت أشياء غريبة مشوهة لا يشبه أحدها غيره ، بل إن بعضها قد صُنِعَ من البوص العادي . ووضع في وسط تلك الحجرة منضدة صغيرة فوقها قطعة قماش حريري بلون الحريري الطبيعي ثم بعض الكتب . يا له من قبح !

وعلى الجدران عَلِقَ صوراً مطوّقة بإطارات لزملاء الدراسة ، وقطعة

مربعة من اللَّبَاد عليها حروف أجنبية . سألته عَمَّا إذا كانت هذه هي شهادة الدبلوم التى حصل عليها ، فأغرق فى الضحك ، ثم أرانى بعد ذلك شهادة الدبلوم التى مُنحت له . إنها قطعة منبسطة من الجلد ، منقوش عليها حروف سوداء غريبة . وأشار إلى اسمه الذى تلتته علامات معقوفة . كان الأولان يدلان على كليته العظيمة ، والثانيان يعنيان مقدرته كدكتور متخصص فى الطب الغربى . وتساءلت عَمَّا إذا كانت تلك العلامات مساوية فى الدرجة إلى شهادتنا من الأكاديمية الإمبراطورية القديمة ، فضحك مرة أخرى وقال . إنه ليس هناك وجه للمقارنة . وهذا الدبلوم يوضع فى إطار ويغطيه لوح من الزجاج ، ويُعلَّق فى أشرف مكان على الجدار ، مثل ذلك المكان الذى تعلق فيه لوحة الإمبراطور القديم « مينج » على حائط قاعة الضيوف فى منزل والدتى .

ولكن هذا البيت الغربى البشع كيف أشعر فيه أنه بيتى ؟

هذه النوافذ ذات الألواح الزجاجية الشفافة بدلاً من تلك المنقوش عليها شبكة من ورق الأرز المعتم .. وضوء الشمس الساطع الذى يتألق على الجدران البيضاء ، ويروع فجأة كل دقيقة من دقائق الغبار فوق الأثاث .. إننى لم أَعْتَدْ مثل ذلك الضوء الذى لا يرحم . فإذا ما جَمَلْتُ شفَتى بصبغ الزنجفر القرمزى ، وطليتُ جبھتى بمسحوق الأرز الناعم – كما علمونى أن أفعل ذلك – فإن هذا الضوء يكشفنى إلى الحد ، الذى أجد فيه زوجى يقول لى .

- أرجو ألا تصبغى نفسك من أجل بهذه الطريقة ، إننى أفضّل أن أرى النساء بشكلهن الطبيعى .

إن عدم استعمال مسحوق الأرز الناعم وصبغ الزنجفر الدافئ معناه الإقلاع عن تجميل نفسى ، فأمشط شعرى دون الاستعانة بالزيت لأكسبه نعومة ، وأنتعل أحذية غير مطرزة ، ففى البيت الصينى الشبكة المنقوشة تجعل الضوء خافتاً فيسقط لطيفاً رقيقاً على وجوه النساء ، أمّا فى بيت كهذا فكيف أبدو جميلة فى عيني زوجى ؟

وفضلاً عن تلك النوافذ السخيفة ، فإن زوجى ابتاع قماشاً أبيض ، وطلب أن أصنع منه ستائر ، فأدهشنى أن هناك حفرة مستديرة أعدت فى الجدار من قبل ، وغطيت بالزجاج ، تدلى أمامها القماش !

أمّا الأرضية فقد كانت من الخشب ، وفى كل خطوة يخطوها زوجى بحذائه الأجنبى تحدث قعقعة ، عندئذ اشترى قماشاً سميكاً من الصوف ، مزيناً برسوم زهرية ، وَفَرَشَهُ على الأرض على شكل مربعات كبيرة .. أذهلنى ذلك بشدة لقد خشيت أن تتسخ ، أو أن الخدم قد ينسون فيبصقون عليها . وعندما أشرت إلى ذلك شعر بالسخط وقال لن يكون هناك بصق على الأرض فسألته

- أين إذاً يبصقون إذا لم يفعلوا ذلك على الأرضية ؟

أجاب باقتضاب .

- فى الخارج إذا كان لابد من ذلك .

غير أن هذا كان عسيرًا على الخدم ، وحتى بالنسبة لى فقد كنت أنسى أحيانًا فأبصق قشر بذور البطيخ فوق القماش عندئذ اشترى آنية عريضة قليلة الارتفاع وُضِعَتْ فى كل حجرة ، وأجبرنا على استعمالها .. والعجيب أنه شخصيًا يلجأ إلى منديل ثم يعيده إلى جيبه . إنها عادة غريبة قدرة !



أواه ! هناك ساعات أود فيها أن أهرب بعيدًا إذا وجدت الوسيلة .. ولكننى لم أكن أجروء على العودة إلى أمى وأواجهها فى مثل هذه الظروف ، ولم يكن هناك مكان آخر أمضى إليه

مرت الأيام سراعًا ، واحدًا إثر الآخر . أيام طويلة عانيت فيها من الوحدة ، فهو يعمل كما لو كان عاملاً عليه أن يكسب الأرز الذى يتناوله بدلاً من أن يعيش واقعه باعتباره ابن موظف ثرى ، يستيقظ فى الصباح الباكر قبل أن تستجمع الشمس حرارتها ويمضى إلى عمله ، وأظل وحيدة حتى المساء فى هذا البيت ، لم يكن هناك سوى الخدم فى المطبخ ، وكنت أخجل من الاستماع إلى ما ينهمكون فيه من القيل والقال .

آه ! إننى أحيانًا أرى أنه من الأفضل لو خدمت والدته ، وعشت مع شقيقات زوجى ، فهناك أستمع على الأقل إلى أصوات وضحكات ، أمّا هنا فالصمت يخيم على هذا البيت طوال اليوم كالضباب .

لم يكن فى استطاعتى إلا أن أجلس وأفكر وأحلم كيف أجتذب قلبه ..

أستيقظُ مبكرَةً في الصباح لأعدَّ نفسي للمثول أمامه ، وحتى لو لم أنم بالليل لما أعانيه من قلق وضجر فإنني أُبَكِّرُ في النهوض ، وأغسل وجهي بماء حار معطر ، وألينه بالزيوت ، وأضمخه بالعطور متشوفة في الصباح إلى كسب قلبه الغافل عني ، بيد أنني مهما بكرتُ في النهوض فإنني أجده دائماً جالساً إلى مكتبه مُكَبِّاً على الدراسة .

كل يوم على ذلك المنوال .. أسعل بلطف ، وأدير أكرة الباب المستديرة بخفة .. وآه لهذه المقابض الغريبة ! وكيف كان على أن أديرها وأديرها مراراً لأعرف سرها .. إن صبره ينفذ إزاء الضجة التي أحدثها نتيجة ارتباكى وعدم إتقانى التعامل مع مقبض الباب ، لذا كنت أمارس التدريب عليها في غيابه ، ومع ذلك فقد كانت أصابعى تنزلق أحياناً في الصباح الباكر فوق الخزف الصينى الأملس البارد فأصاب بالذعر حين أحاول الإسراع في إدارة المقبض ، فهو يكره البطء ، ويتحرك متعجلاً حين يمشى، حتى بُتَّ أخشى عليه أن يؤذى نفسه .

ولكنه لا يفعل شيئاً لحماية بدنه .. ويوماً بعد يوم حين أقدم له الشاى الساخن في صقيع الصباح يتقبله بدون أن يرفع عينيه عن الكتاب .. إنَّذا ما جدوى أن أرسل خادمة في الفجر لتبتاع لشعرى الياسمين ناضراً ؟ وحتى شذا لا يزحف خلال صفحات الكتاب الأجنبى .. وفى كل إحدى عشرة مرة من اثنتى عشرة ، عندما أعود صباحاً في أثناء غيابه لأرى إنَّ كان قد شرب الشاى ، فأجده لم يزحزح الغطاء عن السلطانية ، وأوراق الشاى تطفو في انتظام فوق سطح السائل الباهت . إنه لا يعبأ بشىء عدا كُتبه

لقد فكرتُ ملياً في كل ما علمتنيه أُمى لإدخال البهجة والسرور على زوجى .. أعددتُ له الأطعمة اللذيذة المذاق لأستثير شهيته ، أرسلتُ خادماً فاشترى دجاجاً حديث الذبح ، وبراعم نبات الخيزران من هانجتشو » ، وثمار اليوسفى ، وسمكاً ، وزنجبيلاً ، وسكرًا بنيًا ، وصلصة فول الصويا .. وطوال الصباح أعددتُ الأطباق دون أن أنسى شيئاً ممّا قيل لى إنه يجعل الطعام شهياً ، ويزيد من نكهته الزكية . وعندما أعد كل شيء أمرت بأن تجلب هذه الأطباق فى نهاية الوجبة ، آملة أن يصيح بقوة .

— آه ! لقد احتفظت بأطياب الطعام للنهاية . إنه غداء يليق بإمبراطور !
غير أنه حين قدمت الأطباق تناولها كجزء من الوجبة دون تساؤل .. لم يستسغها كثيراً ، ولم يتحدث عنها . جلستُ أرقبه بلهفة ، ولكنه لم يقل شيئاً ، وهو يتناول براعم الخيزران ، وكأنها كرنب من حديقة أحد الفلاحين!

وفى تلك الليلة عندما وَلَّتْ غُصَصُ خيبة أُمى ، قلت لنفسى :

— ربما حَدَّثَ هذا لأنه لم يكن طبقه المفضل . ونظرًا لأنه لم يذكر قط ألوان الطعام الأثيرة لديه ، فسأرسل إلى والدته لأستعلم عمّا كان يحبه فى صباه لذا بعثتُ بخادم ، ولكن أمه أجابت :

— قبل أن يعبر البحار الأربعة كان يحب لحم البط المشوى حتى يصير لونه بنيًا ، ثم يُغمَسُ فى عصير هلامى من ثمر الزعرور البرى ، غير أنه مُنذ السنوات العديدة التى ظل يتغذى فيها على الطعام الأجنبى ونصف

المطبوخ ، الذى تتناوله الشعوب الغربية ، فَقَدْ حاسة ذوقه ، ولم يعد
يبالى كثيراً بالأطعمة الشهية اللذيذة

ولهذا أحجمت بعدها عن تلك المحاولة ، فليس ثَمَّة شىء يرتجيه
زوجى منى لم يعد يعوزه أى شىء مما أستطيع أن أقدمه إليه .

* * *

ذات مساء ، بعد أسبوعين من إقامتنا فى البيت الجديد ، جلسنا معاً فى
قاعة الاستقبال . كان يقرأ فى أحد كتبه الكبيرة حين دخلت ، وتطلعت إلى
الصورة فى الصفحة التى يقرأها وأنا فى طريقى إلى مقعدى ، فشاهدتُ
صورة لجسم إنسانٍ فى وضع عمودى ، فارنعتُ ، إذ كان منزوع الجلد ،
فصعقت ودهشت ، كيف يقرأ مثل هذه الأشياء ؟ ولكننى لم أجرؤ على
سؤاله عنها .

جلستُ هناك على أحد مقاعد البوص الغربية دون أن أستند بظهري
إلى الخلف ، فقد بدا لى أنه لا يليق أن يتكىء المرء إلى الورااء أمام الغير .
كنت مشتاقة لبيت أُمى ، وتذكرت أنهم يجتمعون فى هذه الساعة لتناول
طعام العشاء ، والمحظيات وأطفالهن الصغار بصخبهم وصراخهم ، فى
ضوء الشموع الساطع .. إن أُمى تجلس هناك على رأس المائدة ، والخدم
يضعون - بناء على تعليماتها - أوانى الخُصَر والأرز الذى يتصاعد منه
البخار ، ويوزعون العيدان التى يتناول بها الجميع طعامهم . كل واحد
منهمك فى الأكل ، سعيد به . ويأتى أبى بعد تناول الوجبة ، ويلعب

أطفال المحظيات لفترة قصيرة . وبعد أن ينتهى كل ذلك ويفرغ الخدم من العمل ، فإنهم يجلسون فى الفناء على مقاعد صغيرة من جذوع الأشجار بلا مساند يتهايمسون فى الغسق . وتجلس أمى إلى مائدة الطعام لتحاسب رئيس الطهاة ، وشمعة حمراء طويلة تلقى رشاشاً من ضوءها المتشنج عليها .

أواه .. كنت مشتاقة لأكون هناك ! فأتجول بين الزهور ، وأفحص قرون اللوتس لأرى إذا كانت البذور بداخلها قد نضجت أم لا .. كان الصيف فى أواخره ، وهو موسم اللوتس تقريباً . وعندما يظهر القمر ربما سألتنى أمى أن أتى بقيثارتى لأعزف لحن الأغنية ، فى حين تنساق اليد اليسرى على سلم موسيقى ثانوى لمصاحبة الأنغام

وحين مرت تلك الأفكار بمخيلتى نهضت لإحضار قيثارتى . سحبتها بعناية من الحقيبة المطلية بورنيش اللك ، والمطعمة بألم اللآلى التى نُقشت عليها صور أرواح الموسيقى الثمانية . وفى الداخل على القيثارة نفسها قطع خشبية متعددة الأشكال موفقة مع بعضها تحت الأوتار ، وتضيف كل قطعة خشبية نغماً تريباً خاصاً بها عندما تُمس الأوتار . كانت القيثارة والحقيبة تخص جدتى لأبى ، أحضرها لها والدها من «كوانجتونج» حين كفت عن البكاء بعد شد وثاق قدميها بالأربطة المحكمة .

داعبت الأوتار برفق فانبعث منها صوتٌ وإي مكتئب حزين . هذه القيثارة هى قيثارة قومية القديمة ، وينبغى العزف عليها تحت الأشجار

في ضوء القمر قرب ماء ساكن ، فهناك تطلق صوتاً صافياً عذباً ولكن في هذه الحجرة الصامتة الأجنبية كان الصوت مختنقاً ضعيفاً ، فترددت ، ثم عزفتُ لحن أغنية قصيرة من عصر « سونج »

نظر إلى زوجي وقال بصوت حنون .

- هذا بهيج قريب إلى النفس جداً .

ثم استطرده

- إنني مسرور لأنك تستطيعين العزف عليها . سأشتري لك « بيانو » يوماً ما ، ويمكنك أن تتعلمي عزف الموسيقى الغربية أيضاً

ثم استدار لمواصلة قراءته .. تطلعت إليه وهو يقرأ الكتاب الشبحي المروع ، وانتثيتُ أذاعب الأوتار بمنتهى الرفق ، دون أن أعرف ما تبعته من انغام . لم يسبق لي أن شاهدت « بيانو » ، فماذا عساي أن أفعل بهذا الشيء الأجنبي ؟

وعلى حين غرة لم أعد أستطيع المضي في العزف .. نحييتُ القيثارة جانباً ، وجلستُ وقد أطرقتُ برأسي ، وتدلت يداي في تراخ وكسل .. وبعد صمت طويل أغلق زوجي كتابه ، وتطلع إلى بنظرة شاملة وقال .

- « كواي - لان » ..

حَقَّقَ قلبي .. كانت هذه أول مرة يناديني فيها باسمي . ترى ماذا يريد أن يقول لي أخيراً ؟ رفعتُ عينيَّ إليه في وَجَل ، فَأَكْمَلَ حديثه قائلاً

- وددتُ منذ زواجنا أن أسألك ما إذا كنتِ ترغبين في حل رباط قدميك

.. إنه غير صحي لجسمك بأكمله .. انظري كيف تبدو عظامك هكذا ؟

تناول قلمًا ورسم في عجلة على ورقة من كتابه شكلاً تخطيطياً لقدم عارية متشنجة ، توقع الرهبة في النفس

كيف عرف ؟ لم يسبق أن عرضتُ قدميَّ أمامه إطلاقاً . نحن النسوة الصينيات لا نعرض أبدًا أقدامنا أمام الآخرين ، حتى في أثناء الليل نرتدى جواربَ بيضاء .

سألته لاهثة :

— كيف عرفت ؟

فأجاب :

— لأنني طبيب تدريبتُ في الغرب ، ثم إنني أُرغب أن تحلّي وثاقهما ، لأنهما غير جميلتين ، هذا بجانب أن ربط القدمين لم يعد مطابقاً للزى الحديث .

ارتسمتُ على وجهه ابتسامة طفيفة ، ونظر إليَّ بشيء من الحنان .

— هل تأثرتِ بما قلت ؟

لكنني سحبتُ قدميَّ بسرعة تحت مقعدي ، فقد صعقتني كلماته .. «غير جميلتين» ؟ لقد كنت دائماً فخورة بقدميَّ الصغيرتين ! وطوال مرحلة طفولتي أشرفتُ أميَ بنفسها على نقعهما في الماء الساخن ، وشدهما بالأربطة .. ويزداد الشدُّ يوماً بعد يوم . وعندما بكيتُ من الألم

المبرح دَعَتْنِي إلى تذكُّر أن زوجي في يوم من الأيام سيثني على جمال
قدميَّ

أحنيْتُ رأسي لأخفي دموعي .. تأملتُ في كل تلك الليالي المفعمة بالقلق
الذي لا ينقطع ، وتذكرتُ الأيام التي كنت لا أقوى فيها على تناول الطعام ،
والتي عزفتُ فيها عن اللعب ، وعندما كنت أجلس على حافة فراشي وأدع
قدميَّ المسكينتين تتأرجحان لأريحهما من انحباس الدم والآن بعد
احتمال الألم الذي لم ينقطع إلا منذ عام فقط ، أعلم أنه يراهما قبيحتين !
نهضت من مقعدي وأنا منفعة وأشعر بالاختناق ، وكنتُ غير قادرة
على إخفاء دموعي ، فقلت

- لا أستطيع .

وغادرت الحجرة .

لم يكن ذلك بسبب عنايتي الفائقة بقدميَّ ، بل لأنهما بحذاءيهما
المطرزين ببراعة لم تلقيا حظوة في عينيه . كيف يمكن أن أمل في كسب
حُبِّه؟

وبعد أسوعين خرجتُ لأقوم بزيارتي الأولى لبيت أمي وفقًا لتقاليدنا
الصينية . لم يعاود زوجي الحديث عن حل وتاق قدميَّ ، كما لم يُنادِني
باسمي مرة أخرى .



3

ألم تتعبي يا أختاه؟ إذا سأواصل الحديث!

ومع أنني كنتُ بالخارج لمدة قصيرة ، فقد بدا لى أن مائة قمر دخلت فى المحاق منذ أن اجتزتُ البوابة المألوفة وأنا محمولة فوق مقعد زفافى . كنت حينئذ لآمل سوى القليل ، وخشيت الكثير ، أمّا الآن فعلى الرغم من عودتى كامرأة متزوجة بصفيرة ملفوفة ، وبجبهة عارية من « شراريب » القماش التى تتزين بها البنات ، إلا أنني أعرف قبل كل شىء أنني نفس الفتاة . لكننى فقط أكنز خوفًا ، وأكثر إحساسًا بالوحدة ، وأقل أملًا

جاءت أُمى إلى الفناء الأول لتلاقينى وهى تتكىء على خيزرانتها الطويلة ، ومعها غليونها الفضى . بدت مُتعبةً وأكثر حذرًا من ذى قبل ، أو ربما كان مرّد ذلك إلى أنني لم أكن أراها يوميًا ، وعلى أية حال فقد جذبتنى إليها لمسة أسمى تجول فى عينيها ، الأمر الذى جعلنى - بعد أن انحنيتُ أمامها - أترجأ على إمساك يدها . استجابت لى بضغطة خفيفة ، وسرنا معًا عائدتين إلى فناء الأسرة .

أوه .. كم كنتُ أُحَدِّقُ وأتفرس في كل شيء ! فقد تراءى لى أن ثمة تغيراً كبيراً قد حدث . في حين أن كل شيء كان باقياً على حالته الطبيعية مُرتَّباً هادئاً كالعادة في الأفنية ، عدا ضحكات أطفال المَحْظِيَّاتِ ، وهرولة الخدم المنهمكين في عملهم بنشاط صاخب، وهم يبتسمون ويصيحون تحية لى عندما لمحونى

كانت شمس مطلع الخريف تُرسل أشعتها التى تسقط عبر أحواض الأزهار والقرميد المصقول في الأفنية ، وتتألق فوق الشجيرات وأحواض الماء ، وكانت الأبواب والنوافذ في الناحية الجنوبية للحجرات مفتوحة ليتسرب من خلالها الضوء والحرارة ، وكانت الشمس المتسللة ترسم أشكالاً بأشعتها على طرف الخشب المنقوش ، وعلى الرغم من معرفتى بأن مكانى لم يعد هنا ، فإن روحى استراحت مع ذلك في بيتها الحقيقى .

ولكننى افتقدتُ فقط شيئاً واحداً ، وجهاً مليحاً مثيلاً ، فسألت :

– أين السيدة الرابعة ؟

نادت أُمى عبداً ليملاً لها غليونها بالتبغ ، ثم أجابتنى عرضاً .

– « لا – ماى » ؟ آه .. أرسلتُها في زيارة للريف لتغير الهواء .

وكان ما عرفته من لهجتها أفضل من أن أوَاصِلَ الأسئلة . ولكننى فيما بعد حين تهيأت للنوم في الماء في حجرة طفولتى ، جاءت العجوز « وانج دا ما » لتمشط شعرى وتصفره كما اعتادت أن تفعل على الدوام ، وفي أثناء ترثرتها عن أشياء كثيرة أخبرتنى أن أبى كان يفكر في اتخاذ محظية جديدة ، فتاة من « بكين » تعلمت في « اليابان » ، وحين سمعت السيدة الرابعة بذلك ابتلعت أحسنَ أقراطها المرصع باليشب ، ولم تخبر

أحدًا ، على الرغم من شدة ما قاسته ، ثم اكتشفت أمى الأمر .

كانت الفتاة على شفا الموت ، ولم يتمكن الطبيب العجوز من أن يفعل شيئاً ، برغم أنه وخز رسغيها وكاحليها بالإبر .. اقترح أحد الجيران إدخالها المستشفى الأجنبى ، غير أن والدتى لم تأخذ ذلك بعين الاعتبار ، فلم نكن نعرف شيئاً عن الأجانب . ثم كيف يتسنى لأجنبى أن عرف علّة شخص صينى ؟ فالأطباء الأجانب قد يفهمون أمراض مواطنيهم الذين يُعتبرون بسطاء أو هجبيين تماماً إذا قُورنوا بما عليه الصينيون من رُقِيٍّ وتهذيب . وقد تصادف أن أختى كان فى البيت لحضور مهرجان القمر الثامن ، فاستدعى امرأة أجنبية طبية ، جاءت ومعها آلة غاية فى الغرابة متصلة بأنبوبة دفعتها فى حلق السيدة الرابعة ، فصعدت الأقرط على الفور أصابت الدهشة الجميع ، عدا المرأة الأجنبية التى حزمت أدواتها وانصرفت بهدوء .

كانت المحظيات الأخريات غاضبات من السيدة الطريفة لابتلاعها أفضل أقرطها ، فسألته البدينة

– ألم يكن بوسعك أن تأكلى عملية من عيدان الثقاب التى يمكن شراؤها بعشر قطع من العملات الصغيرة ؟

لم يكن لدى السيدة الرابعة ما تقوله . وقالوا . إن أحدًا لم يرها تاكل أو سمعها تتحدث وهى تتماثل للشفاء . كانت ترقد على فراشها وقد أسدلت الستائر . لقد خسرت كثيرًا فى تعاملها مع الأخريات بسبب محاولتها التى باءت بالفشل ، ولهذا أشفقت أمى عليها فأرسلتها بعيدًا لتتنجو من توتر العلاقات بينها وبين النساء .

وعلى كل حال فإن مثل تلك الأمور كانت مثار ثرثرة صغيرة في البيت ، ولم يكن لها موضع في حديثي مع والدتي ، ولكن نظراً لما أكنه من حب عميق للبيت ، شعرت أنني يجب أن أعرف تفاصيل كل شيء . وهكذا أصغيتُ إلى ثرثرة « وانج دا ما » ، لقد عاشت بيننا طويلاً حتى أصبحت تعرف كل أمورنا . وقد جاءت مع والدتي من بيتها البعيد في « شانسي » عندما تزوج أبي ، وهى التى تلقفت بين ذراعيها الأطفال الذين وضعتهم أمى . وعندما تموت والدتي فإنها ستذهب عند زوجة أخى لتعنى بأحفاد أمى .

بيد أن هناك أمراً واحداً سمعتُ به ، وكانت له أهمية أكثر من أن تكون عابرة ، فقد قرر أخى أن يسافر إلى الخارج - إلى أمريكا - لمزيد من الدراسة لم تقل لى أمى شيئاً عن ذلك ، غير أن « وانج دا ما » أخبرتنى همساً حين أحضرت لى الماء الساخن فى صبيحة اليوم الأول لعودتى إلى هنا ، بأن أبى قد ضحك من أفكار ابنه الجديدة ، ولكنه لم يلبث فى النهاية أن أبدى موافقته على سفره ، لأنه أصبح من السائد حديثاً أن يرسل المرء أبنائه ليدرسوا فى الخارج ، ويفعل أصدقاؤه ذلك .

حزنت أمى حزناً موجعاً عندما بلغها ذلك الأمر وقالت « وانج دا ما » إن حزنها فاق هذه المرة ما سبق أن انتابها طيلة حياتها ، باستثناء أسها حين اتخذ أبى أول محظية له ، وعندما رأت أن أخى ذاهبٌ لا محالة ، عزفت عن الطعام طوال ثلاثة أيام ، ولم تكلم أحداً . وفى النهاية عندما رأت أنه لا مناص من سفره عبر البحر الهادىء ، توسلت إليه أن يتزوج أولاً من خطيبته حتى تنجب ابناً . وقالت أمى .

- بما أنك لم تدرك أنَّ لَحْمَكَ ودمَكَ لا يَخْصَانِكَ وحدك ، ونظراً لأنك صلب الرأى ، وتتسم باللامبالاة ، وتندفع في مخاطر تلك البلاد الهمجية دون مراعاة لواجبك ، فلا أقل من أن تصل حبل أسلافك المقدس بشخص آخر، حتى إذا مِتَّ - لا قَدَّرَ الله يا بنى - .. أكون قد شاهدتُ على الأقل حفيدي !

بيد أن أخى أجاب بعناد :

- ليست لى رغبة فى الزواج ، أودُّ فقط أن أدرس مزيداً من العلوم وكل ما يتعلق بها ، ولن يحدث لى شىء يا أماه . وحين أعود .. ولكن ليس الآن .. ليس الآن !

عندئذ بعثت أمى برسائل إلى والدنا تحثه على أن يجبر ابنه على الزواج، ولكن أبى لم يعر ذلك انتباهاً، فقد كان مستغرقاً فى الاستعدادات للمحظية الجديدة ، ومضى أخى فى سبيله .

تعاطفتُ مع أمى ، فهذا الجيل هو آخر سلالة أبى ، لأن جدى لم ينبج أبناء غير والدى ، وأيضاً مات أبناء أمى الآخرين وهم صغار . ولهذا أصبحت ضرورة مُلِحَّة أن يكون لأخى ابنٌ بأسرع ما يمكن ، حتى تقوم والدتى بواجبها نحو الأسلاف ، ولهذا تمت خطبته منذ طفولته إلى ابنة «لى» . ومع أننى لم أرها فقد سمعت أنها ليست جميلة ، ولكن ما أهمية ذلك بالنسبة لرغبات والدتنا ؟

قلقتُ على أمى أياماً عديدة بسبب عصيان أخى ، ولكنها لم تحدثنى عن ذلك مُطلقاً، لقد دفنتُ حزنها مثل كل الآخرين فى الأماكن الخفية من روحها ، وتلك طريقتها دائماً عندما تدرك أن آلامها لا يمكن تجنبها ،

فتطبق شفتيها عليها إلى الأبد، أمّا أنا - وقد أحاطتني الوجوه والجدران المألوفة، واعتدت على صمت أُمى - فرَوَيْدًا رويّدًا لم أعد أفكر في أخى .

من الطبيعى أن تكون الفكرة الأولى التى رأيتها تطل من كل العيون هى تلك التى كنت أخشاها وأتوقعها . ما هى إمكانية إنجابى ابناً ؟ لقد وَجَّه كل منهم هذا السؤال ، ولكننى تفاديتهم جميعاً ، واكتفيت فقط بانحناء وقورة من رأسى تجاه تمنياتهم الطيبة التى أعربوا عنها . فلا يجب أن يعرف أحد أن زوجى لا يبالى بى ، ولكننى لا أستطيع أن أخدع أُمى !

و ذات ليلة بعد أن عدتُ إلى البيت بسبعة أيام ، جلستُ فى كسلٍ فى الممر الذى يقضى إلى الفناء الكبير .. كنا فى وقت الشفق ، وكان العبيد والخدم مشغولين فى إعداد وجبات العشاء . انبعثت رائحةُ السمك المشوى والبَط المحمر ، وانتشر أريجها فى الهواء ، وكانت حمرة الغروب على وشك التلاشى ، وبَشَّرَتْ زهور الأقحوان فى الفناء بخصب وفير ، وتأجج فى نفسى حب البيت والأشياء القديمة المحيطة ، وهأنذى أتذكر أننى وضعتُ يدي بحبٍّ على لوح الباب المنقوش المطوق بإطار ، وأحسست هناك بالطمأنينة ، حيث أمضيتُ طفولتى فى هدوء ، والتى انقضت قبل أن أعيها .

كان كل شىء يبعث على الحب العميق ، وظلمة أول الليل تهبط فى سكون فوق الأسطح المنحنية ، وضوء الشموع يتلألأ داخل الحجرات ، ونكهة التوابل فى الأطعمة ، وأصوات الأطفال ، والوقع الخفيف لأحذيتهم

المصنوعة من القماش فوق الأرض المكسوة بالقرميد . أه ! إننى ابنة بيت
صينى عريق بعاداته وتقاليده القديمة ، وأثاثه القديم ، وعلاقاته الطيبة
القديمة ، وأعرف كيف أعيش هناك فى طمأنينة وثقة !

ثم فكرتُ فى زوجى وهو جالس الآن إلى المائدة وحيداً فى البيت
الأجنبى ، يرتدى ثيابه الغريبة ، ويبدو غريباً فى كل شىء . كيف يمكننى
أن أتكيف وفق حياته ؟ لا حاجة له بى . كان حَلَقَى متيبساً بدموع لم أقو
على ذرفها . كنتُ وحيدة أعانى غربة موحشة لم أعرفها وأنا بنت . وكما
أخبرتُكِ يا أختاه . نظرت إلى المستقبل ، إنه يمر بنا الآن ، لا شىء فيه
سوى المارّة . إن الدموع تطفّر من عينيّ . أدرتُ رأسى بعيداً صوب
عتمة الغسق لئلا تسقط أضواء الشموع فوق وجنتيّ فتفضحنى ، ثم
سمعتُ الطرقات فوق الناقوس النحاسى تدعونى لتناول طعام العشاء ،
فمسحتُ عينيّ سراً ، وتسلمت إلى مكانى على المائدة .

انسحبت أُمى مبكرة إلى حجرتها ، ومضت المحظيات إلى ماواهن ،
وبينما كنتُ أجلس وحدى أرتشفُ الشاي ، إذْ ظهرت « وانج دا ما » على
حين غرة وقالت :

— إن أمك المبجلة تأمرك بالمثل بين يديها
قلت فى دهشة :

— لكن والدتى أخبرتنى منذ لحظة بأنها ستأوى إلى فراشها ، ولم تقل
لى شيئاً عن أى حديث ترغب فيه .
ردت « وانج دا ما » :

— ومع ذلك فإنها تأمرك ، لقد آتيتُ لِتَوّى من حجرتها .

وتركتني دون إبداء مزيد من الإيضاح . وعندما تلاشى وقع أقدامها .
 في الغناء نحيباً جانباً الستارة المصنوعة من الساتان ، ودخلتُ حجرة
 والدتي ، ودهشت حين رأيته مستلقية على الفراش ، وبجانبيها على
 الطاولة شمعة واحدة طويلة مضاءة ، لم يسبق قط أن رأيته هناك طيلة
 حياتي . كانت تبدو وقد أضناها الضعف والتعب .. كانت عيناها
 مغمضتين ، وشفاتها الباهتتان مُدَلَّاتين . مضيت بخفة إلى جانبها ووقفت
 هناك كان وجهها شاحباً وقوراً ، رقيقاً حزيناً .

قلت بلطف

– أمّاه !

أجابت

– طفلي

ترددت دون أن أعرف ما إذا كانت تريد مني أن أجلس أو أظل واقفة .
 ثم مدت يدها وأشارت لي أن أجلس على الفراش بجانبها ، أطعتُ ،
 وانتظرتُ صامتة حتى رغبت في الحديث . وقلت لنفسى . « إنها حزينة
 من أجل أخى في البلاد البعيدة »

بيد أنها لم تكن تفكر في أخى . إذ أدارت وجهها نحوى في ضعف
 وقالت

– إننى أدرك ياً بُنْتَى أن الأمور لا تسير معك على نحو مرضٍ تماماً ،
 فمَنْذُ أَنْ عُدْتُ لَاحِظْتُ أَنَّكَ فَقَدْتَ أَسْلُوبَ حَيَاتِكَ الْمَتَّسِمَ بِالْقَنَاعَةِ الْهَادِئَةِ
 إِنْ رُوحَكَ قَلَقَةٌ مَتَمَلِّمَةٌ ، وَالْدموعُ تَطْفُرُ مِنْ عَيْنَيْكَ بِسُرْعَةٍ ، كَمَا لَوْ أَنَّ

هناك حزنًا دفينًا يتشبث بأفكارك ، على الرغم من أن شفيتك لا تبوحان به ما وجه الخطأ ؟ إذا كان بسبب عدم إنجابك طفلًا حتى الآن ، فصبرًا ، لقد انقضى عامان قبل أن أُنمَّح والدك ابناً .

لم أعرف كيف أخبرها .. كان جزء من خيطٍ حريري يتدلى من الستارة المطرزة المتصلة بالظلة فوق السرير . طُففتُ أُلوى الخيط إلى الخلف والأمام بين إبهامى وأصبعى كما لو كنت أُلوى أفكارى . أخيرًا قالت لى بشيء من التجهّم :

— تكلّمْنى !

نظرتُ إليها ، أوّاه للدموع الحمقاء التى لم تدعنى أتفوّه بكلمة واحدة!! لقد تفجّرت الدموع وتفجّرت ، حتى ظننت أننى لم يعد لى أنفاس كى أحياء ، ثم اندفَعَتْ كلها فى تنهيدة عنيفة ، فدفنتُ وجهى فى اللحاف الذى يغطى جسم أُمى وصحت :

— أوّه ، إننى لا أعرف ماذا يقصد ؟ إنه يقول لى : ينبغى أن أكون مساويةً له ، ولا أعرف كيف ؟ إنه يبيغُضُ قدمىّ ويقول إنهما قبيحتان ، ويرسم لهما صورًا تحمل تلك الصفة ، ولا أستطيع أن أقول كيف عرف ؟ لأننى لم أدعه قط أن يراها .

استوت أُمى جالسة وقالت فى حيرة ، وقد اتسعت عيناها فى وجهها الشاحب

— ماذا يعنى ؟ كيف يمكنك أن تكونى مساويةً لزوجك ؟

قلت وأنا أتنهد .

- هكذا المرأة في الغرب .

- نعم ، ولكننا هنا شعب عاطفى من ذوى الفهم والذكاء .

وقدماك ؟ لماذا يرسم لهما صورًا ؟ ماذا تعنين ؟

قلتُ هامة

- ليرينى أنهما قبيحتان .

- قدماك ؟ إذا من المؤكد أنك كنت مهملة . لقد أعطيتكِ عشرين زوجًا

من الأحذية . لم تحسنى الاختيار .

- إنه لم يرسمهما من الخارج إنها العظام التى يرسمها جميعًا

منحنية ملتوية .

- عظام ! مَنْ ذا الذى رأى العظام فى قدم امرأة ؟ هل تستطيع عينا

رجل أن تخترقا اللحم ؟

- إنه يقول إن فى استطاعته ذلك لأنه طبيب غربى .

- يا لطفلى المسكينة !

استلقتُ أمى فى فراشها مرة أخرى وهى تنتهد ، ثم هزت رأسها

- إذا كان يعرف السحر الغربى ..

ثم وجدتُ نفسى أفضى إليها بكل شىء .. كل شىء ، حتى أننى

همستُ بهذه الكلمات المريعة .

- إنه لا يبالي أن يكون لنا ابن . إنه لا يحببنى . أوّاه ثيا أماه !! إننى ما

زلتُ عذراء !

جَنَمَ صمْتُ طويل على المكان .. أخفيتُ وجهي ثانية في اللحاف .

أظن أنني أحسستُ بأمرى وهى تضع يدها برفق فوق رأسى وتستقر هناك برهة.. ولكننى غير متأكدة ، فهى لم تكن قط واحدة ممن تعنيهن المظاهر الخارجية ، ولكنها أخيراً استوت في جلستها ، وشرعت تتحدث

- لا أعتقد أنني ارتكبتُ خطأً فى الأسلوب الذى تربيت عليه .
لا أستطيع التفكير في أنكِ أخفقتِ في إرضاء سيد صينى أصيل . أو يمكن أن يرجع ذلك إلى أنكِ تزوجتِ همجياً ؟ ولكنه من أسرة كونج ! من يمكنه أن يرتاب في ذلك ؟ إنها الأعوام التى قضاها في الخارج . لقد تمنيتُ أن أرى أخاك ميّتاً قبل ذهابه إلى البلدان الخارجية ! أغمضتُ عينيها ورفدت ثانية وازداد وجهها النحيل صرامة .

وعندما عاودتِ الحديث كان صوتها عالياً وضعيفاً ، كما لو كانت مُنْهَكَةً .

- لا بأس يا طفلى .. هناك طريق واحد للمرأة في هذا العالم .. طريق واحد فقط تتبعه المرأة بأى ثمن .. يجب أن تُرضى زوجها .. إنه للأمرُ يفوق احتمالى أن تكون كل رعايتى لكِ كان يجب ألا أقوم بها ، ولكنك لم تعودى تنتمين لأسرتى ، ولكن لزوجك ، ولم يعد لكِ خيار سوى أن تكونى كما يريد . وعليكِ أن تصمدى ! حاولى أن تبذلى كل جهدك لاستمالته .. ارتدى الأخضر اليشبى والأسود .. استعملى عطر زنايق الماء .. ابتسمى في غير قحة ، ولكن بخفر وحياء ، وذلك واعد بكل شئ ، بوسعك أن تلمسى يده أيضاً .. وتشبثنى بها لحظة .. ابتهجى إذا ضحك ،

وإذا ظل بدون تأثر فلن يكون هناك شيءٌ باقي سوى أن تخضعي لإرادته.

همستُ قائلةً .

هل أحلُّ وثاقَ قدميَّ ؟

سكتت أُمى فترة . ثم قالت بضجر .

— حُلِّي رباط قدميك . لقد تغير الزمان .. انصرفي .

وأدارتُ وجهها ناحية الحائط .

* * *

كيف سأخبرك يا أختاه عمَّا يثقل قلبي ؟

بدأ فجر يوم رحيلي داكناً ساكناً .. كان الوقت يقترب من نهاية القمر العاشر ، حين تبدأ الأوراق البنية تسقط على الأرض في صمت ، ويرتعد الخيزران في صقيع الفجر ، وبرد الغروب تجولت في الأفنية ، وأبطأت في الأمكنة التي طالما أحببتها طويلاً لأطبع جمالها من جديد وبحدّة في ذاكرتي . وقفتُ بجانب حوض الماء أستمع إلى الريح الخافتة ، وهي تقصم قرونَ وأوراق نباتات اللوتس الميتة .. جلستُ ساعة تحت شجرة « العَرَّعَر » (١) الكثيرة العقد ، وهي من الفصيلة الصنوبرية التي ظلت طوال ثلاثمائة عام منتصبّة في الحديقة الصخرية في الفناء الثالث . اقتطفتُ غصناً من إحدى أشجار الخيزران السماوية في فناء البوابة

(١) العَرَّعَر ' جنس أشجار من الصنوبريات ، يصلح للرينة

العظمى مسرورة بثمار التوت القرمزية الزاهية المدلاة أمام الأوراق الخضراء القاتمة ، ومن ثمّ وددتُ أن أحتفظ بشيء من كل ما فى الأفنية من جمال ، فانتقيت ثمانية أوصُص (١) من زهور الأقحوان لأحملها معى . كانت فى تلك اللحظة فى أوج اكتمالها ، واعتقدتُ أن ألوانها الحمراء والذهبية والبنفسجية الشاحبة قد تُلطَّف قليلاً من بيتى العارى الأجرد .. وهكذا عدتُ إلى زوجى .

لم يكن فى المنزل حينما دخلتُ فى القاعة الصغيرة .. أخبرتنى الخادمة أنه استدعى عند شروق الشمس برسالة ملحة عاجلة ، ولا تعرف إلى أى . وضعتُ زهور الأقحوان بعناية على مقربة من قاعة الاسقبال ، وأنا أفكر ملياً كيف أرتبها بطريقة جيدة تُبرز حسننها كمفاجأة له . غير أننى عندما بذلت ما فى وسعى خاب ظنى ، فقد كانت تتألق بروعة فى الفناء القديم أمام النقوش السوداء فى الممرات ، أمّا هنا فقد خبا رونقها إلى مجرد جمال مصطنع أمام الجدران البيضاء والطلاء الأصفر .

آه هكذا كان الأمر معى ! لقد ارتديتُ السترة والسراويل الساتانية المرصعة باليشب ، والجاكيت المخملى الأسود الذى لا أكمام له ، وزينتُ رأسى بحلى من اليشب والعقيق ، وعلقتُ أقراطاً من اليشب تدلت من أذنى ، وانتعلتُ حذاءين أسودين من المخمل المطرز بخرز ذهبى ، وكنت قد تعلمت من « لا - ماى » - السيدة الرابعة فى بيت أمى - مكر الخدود الشاحبة والشفة السفلى المصبوغة بالزنجفر القرمزى ، وسحر راحتى

(١) الأصص . جمع أصيص ، وهو وعاء من المحار تُستنت فيه الساعات .

اليدين الوردتين المعطرتين . لم أَسْخِرْ جهداً من أجل تلك الليلة الأولى مع زوجى ، وقد رأيت أننى كنت مليحة

ولما ارتديتُ ملابسى ، جلستُ منتظرةً سماعَ وقع خطواته فوق العتبة ، وإذا كنتُ قد تمكنتُ أن أدفع جانباً ستارةً من الساتان الأرجوانى، وظهرتُ أمامه وسط الضوء الرقيق داخل حجرة صينية قديمة لأحرزتُ نجاحاً ، ولكن كان علىّ هنا أن أهبط غير مستقرة فوق السلم الذى ينبعث منه صريرٌ ، وأنضم إليه فى قاعة الاستقبال لم يكن هناك شئ يعاوننى ، كنت كزهور الأقحوان .. جميلة فحسب .

أماً بالنسبة لزوجى فقد جاء متأخراً ، وبدا مُتعباً مكدوداً ، وفى ذلك الوقت كانت نضارتى قد وَلَّتْ ، وعلى الرغم من أنه حَيَّانى برفق وافٍ ، فإن عينيه لم تتعلقا بى ، وطلب فقط أن تسرع الخادمة بتقديم وجبة المساء، لأنه كان مشغولاً طوال اليوم بأحد المرضى ، ولم يذق طعاماً منذ الصباح .

تناولنا الطعام فى صمت ، كنت أجدُ مشقة فى ابتلاع ما أكله بسبب الدموع الحمقاء .. التَهَمَ أُرْزُهُ بسرعة وجلس مقطبّ الجبين وهو يحمق فى الشأى يتنهد بين الفينة والفينة ، ونهض أخيراً فى سأم وقال - دعينا نذهب إلى حجرة الجلوس .

جلسنا هناك ، وسأل فى غير مبالاة عن والدئى .. أعار إجاباتى أهمية ضئيلة ، حتى أننى ترددت فى سعى إلى إثارة اهتمامه ، فلزمتُ الصمت فى

النهاية . لم يلحظ في البداية أننى توقفتُ عن الحديث ، تم نهض مستويًا على قدميه وقال بمزيد من العطف

- أرجو عدم مآخذتى . حقًا إننى مسرور لعودتك ، ولكننى كنتُ طيلة هذا اليوم أناضل ضد الخرافات والجهل المُطبّق ، غير أننى خسرتُ معركتى، ولا يمكننى أن أفكر فى شىء سوى خذلانى . وطفقتُ أسائل نفسى : هل فعلت كل ما يمكن عمله ؟ هل هناك حجة لم ألجأ إليها لإنقاذ تلك الحياة ؟ أظن . بل أنا على ثقة من أننى فعلتُ كل ما فى وسعى .. ولكن محاولتى باءت بالفشل ! هل تتذكرين أسرة « يو » التى تقطن بجوار برج الطبل ؟ لقد حاولتُ سيدتهم الثانية أن تنتحر اليوم بشنق نفسها ! يبدو أنها لم تعد تحتمل لسان حماتها الأفعوانى الخبيث . لقد استدعونى، وكان فى استطاعتى أن أنقذها ! كانت قد جذبت الحبل لتوها حين عثروا عليها .. فأعددت فى الحال الأدوية اللازمة لعلاجها ، ثم دخل العم العجوز - وهو تاجر نبيذ - هل تتذكرين السيد « يو » العجوز ؟ لقد مات ، وأصبح تاجر النبيذ رأس الأسرة الآن . دخل علينا فى غضب منكر عنيف أمرًا أن تتبّع الأساليب القديمة .. أرسل فى طلب الكهّان ليقرّعوا الطبول كى تعود روح المرأة ثانية .. تجمّع أقاربها حولها ، وأرقدوا الفتاة المسكينة الفاقدة الوعى - والتى لم تتجاوز العشرين - على الأرض فى وضع رакع ، وفى بطء وتأنٍ ملثّوا أنفها وفمها بالقطن والقماش ، وقيّدوا وجهها بالأغطية !

وقلت .

- ولكن . لكن ..

ثم أكمل

- إنها العادة .. هذا ما يُعمل دائماً ، فقد هرب جانب كبير من الروح ،
ويجب أن يحافظوا على ما تبقى في داخلها بسد الفتحات !

بدأ يسير حول الحجرة في احتياج ، ثم توقف الآن تجاهى وشفته
مضمومتان ، واستطعت أن أسمع تنفسه السريع . وَحَمَلَقَ في وجهى
وصاح :

- ماذا ! أنتِ أيضاً ؟

انكمشتُ في دُغْر ! ثم همستُ

- هل ماتت ؟

- تموت ؟ ألا تموتين لو فعلتِ هذا لفترة طويلة ؟

وأمسك بيديّ الاثنتين بإحدى يديه ، ووضع منديله على فمى وأنفى
بقسوة . أخذتُ أتلوّى حتى تخلصتُ منه ، ومزقتُ المنديل . فأطلق
ضحكة قوية كما لو كانت نباح كلب ، وجلس واضعاً رأسه بين يديه ،
ولبثنا في صمت مرهق كالآلم . لم ير زهور الأقحوان التى رتبته بعناية
على مقربة من القاعة .

جلستُ أرقبه في حيرة وقد انتبانى بعض الخوف هل يمكن أن يكون
على حق أخيراً ؟

في تلك الليلة وضعتُ الحليَّ اليشبية في حزن داخل علبتها الفضية ، وألقيت ثيابي الساتانية جانباً . بدأت أدرك أن ما تعلمته كان خطأ . لم يكن زوجي واحداً من هؤلاء الرجال الذين تروق لهم المرأة التي تفتن أحاسيسهم كما لو كانت زهرة معطرة أو غليون أفيون . فصفاء الجمال في الجسم لا يكفي . ويجب أن أتعلّم كيف أرضيه في نواحٍ أخرى .. وهأنذا أتذكّر أُمى بوجهها الذي أدارته نحو الحائط ، وهي تقول بصوتها المنهك .

— لقد تغيرت الأزمنة .



مازلت لا أستطيع أن أقبل بسهولة حلّ وثاق قدميّ . وكانت السيدة « ليو » في الحقيقة هي التي عاونتنى . كانت زوجة مدرس في مدرسة أجنبية حديثة . لقد سمعت زوجي يتحدث عن السيد « ليو » كصديق له .. لقد أرسلتُ لي كلمةً بعد يومٍ من عودتي قائلة . يسرنى أن أزوّرِكَ في اليوم التالي .

قمتُ بعمل استعدادات ضخمة ، لأنها كانت أول زائرة لي ، أرسلتُ الخادمة لشراء ستة أنواع من الكعك ، وبذور البطيخ ، ورقائق السمسم ، وأجود أصناف الشاي . ارتديتُ ثوبى الساتان القرنفلي المشمسي ، وزينتُ أذُنَيَّ باللالئ ، وكنت في سرّى في أشد الخجل من البيت . خشيتُ أن تعتقد أنه قبيح وتتعجب من ذوقي . وددتُ ألا يكون زوجي في البيت

حتى يمكننى على الأقل أن أضع المقاعد والمنضدة بطريقة ملائمة تظهر بوضوح مكان الشرف كى أحسن وفادة الضيفة .

ولكنه - لأول مرة - لم يغادر البيت . كان جالساً يقرأ ، وتطلع نحوى بابتسامة حين دخلتُ الحجرة بعصبية . خططتُ كى أكون جالسة حين تقود الخادمة الضيفة إلى الحجرة ، حتى يتسنى لى أن أنهض ، وانحنى لها مشيرة إلى المقعد الأفضل . ولكن بوجود زوجى هناك لم تتح لى الفرصة كى أرتب الحجرة . وحين دق الجرس ، مضى زوجى بنفسه صوبَ الباب . لقد تكدرتُ كثيراً ، وهزرتُ يديّ ، وتحيرتُ ماذا عسائ فاعلة . ثم سمعت صوتاً مرحاً ، ولم أتمالك أن أسترق النظر إلى القاعة ، فرأيتُ شيئاً عجباً ، إذ أمسك زوجى بيد الضيفة وكان يهزها صعوداً هبوطاً بطريقة من أغرب ما رأيت . لقد ذهلت !

وفجأة زاليتنى دهشتى وكل أفكارى عن الضيفة حين نظرتُ إلى وجهه . أوّاه يا زوجى ' إن وجهك لم يكتس بمثل تلك النظرة من أجل أنا زوجتك ' لقد بدا كأنه عثر أخيراً على صديق .

آه يا أختاه ، لو كنتِ هنا لَعَلَّمْتينى ماذا أعل ' بيد أننى كنت وحيدة ، لا أصدقاء لى لم يكن بوسعى إلا أن أحزن فى أعماقى ، وأتأمل وأفكر وأتعجب فيما ينقصنى لأرضيه .

وحينما كانت الضيفة عندنا طفقتُ أتفحصها بدقة لأرى إن كانت جميلة .. كلاً ، لم تكن جميلة ، ولا حتى لطيفة . كان وجهها كبيراً أحمر ، طلق الحيا ، وعيناها عطوفتين ، تطل منهما الابتسامات ، على الرغم من

أنهما كانتا مستديرتين لامعتين كالخرز الزجاجي .. كانت ترتدى معطفًا رماديًا بسيطًا فوق تنورة من الحرير الأسود ، غير محلاة بالأزهار . وتتعل حذاء كأحذية الرجال ومع ذلك كان صوتها صافيًا ، وحديثها سريعًا حاضرًا ، وضحكتها دافئة وسريعة. تحدثت كثيرًا مع زوجي ، فجلستُ أستمع مُطأطئة الرأس .. تكلمنا عن أشياء لم أسمع بها قط . كانت الكلمات الأجنبية تتدفق وهما يتبادلانها جيئةً وذهابًا بينهما . لم أفهم شيئًا عدا السرور المرتسم على وجه زوجي .

في تلك الليلة لُذْتُ بالصمت حينما جلستُ مع زوجي بعد وجبة الماء ألحْتُ عَلَى ذاكرتي مرارًا وتكرارًا تلك النظرة على وجهه في أثناء الزيارة . أبدأ لم أَر من قبل مثل ذلك التعبير الذي يضطرم حماسًا وتلهفًا كان ممتلئًا بالكلمات التي يوجهها إليها عندما وقف قبالتها . ظل في الحجرة طيلة فترة زيارتها كما لو كانت الضيفة رجلًا . نهضتُ وسِرْتُ بجانبه .

رفع عينيه من الكتاب وقال متسائلًا .

- نعم ؟

- أَخْبِرْنِي عن هذه السيدة التي زارتنا اليوم ؟

انحنى على مقعده إلى الوراء وتطلع نحوي متأملًا .

- ماذا عنها ؟ إنها خريجة كلية غربية نسائية كبرى تسمى « فاسار » ، وهى ذكية وممتعة ، كما يود المرء أن تكون عليه المرأة هذا إلى جانب أنها

تُرَبِّي ثلاثة دسبببة رائعين ، أذكفاء . نظاف ، مُعْتَنَى بهم إن قلبى يُسعدده
رؤيتهم .

أوه ، إننى أكرهها ' إننى أكرهها ' أوه ، ماذا عسائ أن أفعل ؟ أليس
هناك سوى طريق واحد إلى قلبه ؟ إنها لم تكن جميلة على الإطلاق !!
وهمست .

-- أو تعتقد أنها جميلة ؟

فأجاب فى عنف

-- أجل إننى أجدها كذلك . إنها موفورة الصحة ، حساسة ، معقولة ،
وتسير فوق قدمين فويتين متزنتين .

حَمَلَق فى الفضاء ، وفكرتْ يائسةً لبضع دقائق . هناك طريق واحد لا
غير للنساء ، فكيف أستطيع ... ما زالت كلمات أُمى تطن فى أذنى « يجب
أن تُرضى زوجك »

كان زوجى يجلس يتطلع مفكرًا عبر الحجرة ، لم أكن أعرف ماذا
يدور فى عقله ، لكننى عرفتُ شيئًا واحدًا . كنت أرتدى ثوبًا من الساتان
بلون الخوخ ، وعلقتُ أقراطًا لؤلؤية فى أذنى ، وبِغَضِّ النظر عن شعرى
الناعم الأسود الذى كان يتألق فى لفَّاته المنسَّقة ببراعة ، وعلى الرغم من
أننى كنت أقفُ عند كتفه بالقرب منه حتى أن أقل حركة من جسمه كانت
كفيلة بجعل يده تلمس يدى .. كل ذلك لم يُجِدِ فتيلًا ، فقد كان لا يفكر فى
عندئذ أحنيثُ رأسى ، وسلمتُ نفسى إلى يديه مُنْكَرَةً ماضئى وقلت .

-- هل ستخبرنى كيف سأقوم بحل وثاق قدمى ؟

الفصل الرابع



4

حين أنظر الآن إلى الماضي أدرك أن اهتمام زوجي بي قد بدأ ذلك المساء . وبدأ أننا قبل هذا لم يكن لدينا شيء نتحدث عنه ، ولم تلتق أفكارنا قط . كنت أرقبه فقط بدهشة دون أن أفهم ، ولم يحدث أن نظرَ إليَّ قط ، وعندما كنا نتحدث كنا كالغرباء الذين يجاملون بعضهم بعضًا ، فأحادثه في خجل ، في حين كان يكلمني بأدب جمٍّ دون أن ينتبه إليَّ ، ولكنه الآن بعد أن أبديتُ حاجتي إليه، بدأ يراني أخيرًا ، وحين يتكلم كان يسألني ويحرص على سماع إجابتي ، أمّا بالنسبة لي فإن حبي نحوه الذي كان يرتجف في قلبي استقرَّ ورسخ ، وتحول إلى هيام وعبادة . لم أكن أحلم قط أن رجلًا يمكن أن يخضع لامرأة بمثل تلك الرقة.

وعندما سألتُه . كيف يمكنني فك رباط قدمي ؟ كان من الطبيعي أن أظن أنه سيعطيني تعليمات من معرفته الطبية فحسب ، وهكذا جلستُ مذهولة عندما أحضر طستًا محتويًا على ماء ساخن ، ولفة من الضمادات البيضاء .. أصابني الخجل .. لم احتمل أن أدعه يرى قدمي .. لم تقع عين

أحد عليهما منذ أن بلغت من العمر ما يمكّني من العناية بهما بنفسى .
والآن حين وضع الطست على الأرض وركع ليمسك بقدمى ، أحسست .
بجسمى كله يتقد من رأسى إلى قدمى .

قلت بصوت ضعيف .

– كلا . سأفعل ذلك بنفسى .

فعلقت على ذلك قائلاً .

– لا تقلقى تذكرى أن طيب .

ولكننى ظلت أرفض . عندئذ تطلع إلى وجهى بثبات ، ثم قال برزانة .

– « كواى لان ».. إننى أعرف مدى ما كلفك فعل ذلك من أجلى .

دعيني أعاونك قدر استطاعتي ، إننى زوجك .

ودون أن تصدر منى كلمة ، استسلمت له . فأمسك بقدمى ، ونزع
الحذاء والجورب برفق ، وحل القماش الداخلى . بدّا على وجهه تعبير
حزين متجهم .

قال بصوت خافت حنون

– كم قاسيت يا لها من طفولة تعسة .. وكل ذلك لا طائل من ورائه !

اغرورقت عيناي بالدموع لذى سماعى لكلماته . لقد جعل كل

التضحيات عديمة الجدوى ، وها هو ذا يطالب بتضحية جديدة !

حين نُقعت قدميَّ ثم أُعيد ربطهما بغير إحكام أحسستُ بألم لا يُطاق
فعملية حل الأربطة كانت مؤلمة مثل شد وثاق القدمين . كانت قدماي قد
اعتادتتا على أن تكونا مشدودتين بقوة ، فانبسطتا قليلاً بالتدريج ، وبدأ
الدم يدور فيهما .

كان هناك أوقات بالنهار ألجأ فيها إلى تمزيق الأربطة لتحرير قدميَّ
لإراحتهما ، ثم أُعيد ربطهما بإحكام أكثر ، ولكن تفكيرى فى أن زوجى
سيعرف فى الليل كان يدفعنى إلى ربطهما مرة أخرى بيدين مرتعشين .
وكانت الراحة الوحيدة البسيطة التى يمكننى أن أحصل عليها ، هى أن
أجلس على قدميَّ وأهتز إلى الخلف والأمام .

لم يعد يهمنى كيف أبدو أمام زوجى ، أو أنظر فى المرأة لأرى ما إذا
كنتُ على الأقل نضرة أنيقة .. كانت عيناي فى الليل تنتفخان من البكاء ،
وصوتى يخشن من النشيج التنهدات ، التى لم أستطع أن أتحكم فيها ..
من الغريب أن جمالى لم يُحرِّكْ فيه ساكنًا، فى حين أن حُزنى وألمى قد تأثر
بهما ! كان يواسينى ويعمل على إراحتى كما لو كنت طفلة وكثيرًا ما
تعلقتُ به دون أن أدرك فى غمرة ألمى مَنْ هو ؟ أو ماذا كان ؟

قال

– سنحتمل هذا معًا يا « كواى لان » . ما أشدَّ أن أراك تُقاسين هكذا !
حاولى أن تفكرى أن ذلك ليس من أجلنا فقط ، بل فى سبيل الآخرين أيضًا
. إنه اعتراض ضد شىء قديم فظيع ، بل مؤذٍ وكره

تنهدت قائلة :

- كلا ، إننى أفعلها من أجلك فقط حتى أكون امرأة عصرية لك ، ضحك وأشرق وجهه قليلاً كما حدث عندما كان يتحدث مع المرأة الأخرى . كان هذا مكافأة لى لما قاسيته من ألم . لم يبدُ أن هناك شيئاً عسيراً بعد ذلك .

عجباً ! حين نما اللحم بطريقة صحية أكثر ، بدأت أحس بحرية جديدة . كنت صغيرة ، ولم تزل قدمائى صحيحتين حتى الآن وفى حالة النساء الكبيرات كثيراً ما كانت القدمان المربوطتان تُصابان بالغنغرينا ، وأحياناً قد تموتان وتسقطان فجأة . غير أن قدميَّ كانتا فاقدتي الحس فقط والآن بدأت أسير بحرية ، ولم يعد الصعود والهبوط على السلم صعباً .. أحسست بمزيد من القوة تسرى فى بدنئى . وذات مساء ركضت دون تفكير إلى الحجرة التى يكتب فيها زوجى .. نظرَ إلىَّ فى دهشة ، وتهلَّلَ وجهه بابتسامة وهتف قائلاً .

- تركضين ؟ آه .. حسناً ! إذا فقد اجتزنا أسوأ مرحلة ، وولت المرارة؟

نظرتُ إلى قدميَّ فى ذهول وقلت

- ولكنهما ليستا كبيرتين كقدميَّ السيدة « ليو » .

فقال

- كلا .. لا يمكن أن تكونا مثلهما ، لأن قدميها طبيعيتان ، وقدميك
هما أكبر ما نستطيع بلوغه الآن .

شعرتُ بشيء من الأسى ، لأن قدميَّ لن تكونا كبيرتين أبدًا مثل
قدميها ولكنني فكرتُ في وسيلة . لمَّا كانت كل أحذيتي الصغيرة المطرزة
لا خيرَ فيها الآن ، فقد قررت أن أنتعل أحذية جلدية كأحذية السيدة
«ليو» ، ولذلك ذهبت في اليوم التالي بصحبة خادمة إلى أحد المتاجر
واشتريتُ زوجًا من الأحذية بالطول الذي أريده . كان الحذاء أطولَ من
قدميَّ ببوصتين ، ولكنني حشوتُ مقدم الحذاء بالقطن . وحين انتعلتُ
الحذاءين لم يكن في مقدور أحد أن يدرك أن قدميَّ كانتا مربوطتين

كنت أتوق إلى أن ترانى السيدة « ليو » وسألت زوجي متى يمكنني
رد الزيارة لها ؟ فقال

- سأذهب معكِ غدًا .

فوجئتُ برغبته في السير معي في الطريق ، إذ لا ريب أن ذلك كان عادة
مستهجنة ، مما جعلنى ارتبك بعض الشيء ، ولكنني الآن زاد اعتيادى
على تصرفاته الغريبة .

ذهبنا في اليوم التالي ، وقد عاملنى زوجى أمامها بمنتهى الرقة ، ولكنه
في الواقع أربكنى كثيرًا مرة أو مرتين ، وعلى سبيل المثال حين جعلنى
أتقدمه إلى الحجرة التى استقبلتنا فيها السيدة « ليو » ، لم أعرف آنذاك
ماذا يعنى ؟ وبعد عودتنا إلى البيت فسر لى ذلك الأمر بأن سلوك غربى .

سألته

- لماذا ؟ هل لأن الرجال هناك يحسون - كما سمعت - بأنهم أدنى منزلة من النساء ؟

فأجاب :

- كلا .. هذا ليس صحيحًا .

ثم تشرح لى ذلك .. إنها عادة راسخة الجذور فى نظام المجاملة الذى بدأ فى العصور القديمة .. أذهلنى ذلك ، إذ لم أكن أعرف أن هناك شعوبًا عريقة غير شعبنا .. أقصد شعبنا المتحضر . لكن يبدو أن الأجانب أيضًا لهم تاريخ وثقافة ، لذا فإنهم ليسوا همجيين تمامًا ، وقد وعدنى زوجى بأن يقرأ لى بعض الكتب عنهم .

شعرت بالسعادة فى تلك الليلة حين ذهبت لفراشى ، إذ راقى لى أن أكون عصرية إلى حدٍّ ما ، فقد انتعلتُ حذاءً جلدًا فى ذلك اليوم ، وليس هذا فحسب ، بل إننى أيضًا لم أضع طلاءً على وجهى ، ولم أزيّن شعرى بالحلّ . لقد بدوتُ شديدة الشبه بالسيدة « ليو » ، وإنى واثقة أن زوجى قد لاحظ ذلك

بدا لى أننى طالما رغبتُ أن أتغيرَ فقد تدفقت على حياة جديدة كاملة ، وها هو ذا زوجى قد بدأ يحدثنى فى المساء ، ووجدت حوارهِ معى مثيرًا .. كان يعرف كل شئٍ ما أشد غرابة الأشياء التى أخبرنى بها عن البلدان فى الخارج وسكانها ! لقد ضحك حين صِحتُ

- أوه مضحك " أوه عجيب "

فقال وقد عَمَّه السرور لسبب ما .

- ليس أغرب ممّا نبدو لهم

فصحتُ مندهشة من جديد .

- ماذا ؟ أو يعتقدو أننا مضحكين ؟

أجاب ، وهو ما زال يضحك

- طبعاً يجب أن تسمعيهم وهم يتحدثون ! إنهم يعتقدون أن
ملابسنا ووجوهنا وطعامنا ، وكل ما نفعله ، يدعو إلى الضحك . إن الأمر
بالنسبة لهم أن أناساً بمثل مظهرنا ، ويتصرفون بمسلكتنا ، يمكن أن
يكونوا كالبشر تماماً مثلهم .

ذهلت لَدَى سماع ذلك .. كيف يمكنهم اعتبار أن هيئاتهم الغريبة
وثيابهم وسلوكهم إنسانىً مثلنا ؟ لقد أجبته بوقار .

- بيد أننا كنا دائماً نفعل تلك الأشياء ، وهذه عاداتنا ، وذلك مظهرنا ،
بشعرنا الأسود وعيوننا ..

- تماماً ! وهكذا لهم مثل ما لنا !

- ولكننى أعتقد أنهم جاءوا إلى هنا ليتعلموا حضارة بلادنا . هكذا
قالت أُمى

- لقد أخطأتُ ، ففى الواقع أننى أعتقد أنهم جاءوا إلى هنا وفى فكرهم

أَنْ يَعْلَمُونَا المدنية .. صحيح أن هناك الكثير الذى يتعلمونه منا ، ولكنهم لا يعرفون ذلك أكثر مما تدركين الذى علينا أن نتعلمه منهم .

لاشك أن كل ذلك كان جديداً وغريباً وممتعاً وهو يخبرنى به . لم يدركنى الملل إطلاقاً مما أسمعته عن الأجانب ، وخصوصاً أننى يروق لى أن أستمع إلى أخبار مخترعاتهم العجيبة .. أن يديروا مقبضاً فيتلقوا منه ماءً ساخناً أو بارداً ، وعن مدفأة بلا وقود يمكن أن يراه المرء ، ومع ذلك يحصلون على الحرارة . أو ما يسمونه ماءً تلقائياً ، وحرارة تأتى من تلقاء نفسها . وكم كنت أدهش من قصصه عن الماكينات التى تمخر عباب البحر، وعن أخرى تطير فى الجو ، وغيرها التى تسير تحت الماء ، وعن كثير مثلها من الأعاجيب !

وسألته بخوف

— أوافق من أن ذلك ليس سحراً ؟ إن الكتب القديمة تخبرنا عن معجزات النار والأرض والماء ، ولكنها دائماً الأعيب سحرية من عالم الجن.

أجاب

— كلا هذا ليس سحراً بالطبع . إنها جميعاً بسيطة تماماً حين تفهمين كيف تُصنَع إنه العلم

ذلك العلم مرة أخرى ! لقد جعلنى أفكر فى أخى ، فهو من أجل ذلك العلم ما زال فى تلك البلاد الأجنبية ، يتناول طعامهم ، ويشرب مياههم

التي لم يعتدها جسمه بحكم مولده . لقد أصبحت مشتاقة لرؤية ذلك العلم ، ومعرفة كيف يبدو . إننى حين قلت ذلك ضحك زوجى حتى الثمالة ، وصاح مداعباً

– أية طفلة أنت ؟ إنه ليس شيئاً يمكن حملُه أو لمسه أو تناوله بيديك لفحصه كأنه لعبة

ولما رأى أننى لم أدرك شيئاً مما قصده ، مضى إلى خزانة الكتب وأحضر بعضاً منها ذات صفحات عليها صور ، وشرع يشرح لى كثيراً من الأشياء .

وهكذا طفق يعلمنى كل مساء شيئاً يتعلق بهذا العلم ولا عجب أن أخى أصبح مولعاً به حتى سلب لُبّه ، فلم يعر رغبات أمه التفاتاً ، ومضى عبر البحر الهادىء بحثاً عنه . لقد سُجِرْتُ به أيضاً ، وبدأتُ أشعر أن حِكْمَتِي أخذت تنمو نمواً عجيباً ، حتى أحسستُ أنه يجب أن أخبر أحداً ، ولم يكن لدى أحد سوى طاهيتنا العجوز ، فسألتها

– هل تعلمين أن العالم مستدير ، وأن أُمَّتَنَا العظيمة ليست فى الوسط ، ولكنها قطعة من الأرض والماء فوق السطح ، بجانب غيرها من البلاد ؟

كانت تغسل الأرز فى البركة الصغيرة بفناء المطبخ ، فكفت عن هز السلة ، ونظرت إلى بارتيا ب وتساءلت فى غير لهف على الاقتناع .

– من يقول هذا ؟

فقلت بحزم

- سيدنا . والآن هل تُصدّقيننى ؟

فأجابت فى شك

- أوه ، إنه يعلم الكثير لكن ما زال فى وسعك أن تعرفى أن العالم ليس مستديرًا بمجرد النظر إليه . انظرى ، إذا تسلقت إلى قمة الباجودا فوق تل النجم الشمالى ، يمكنك أن ترى على بعد ألف ميل جبلًا وحقلًا وبحيرة ونهرًا وجميعها مسطحة كصفائح الفول المجفف ، وفيما خلا الجبال، لا أحد يستطيع أن يقول إنها مستديرة ! أمّا بالنسبة لبلادنا ، فلا بد أن تكون فى الوسط ، وإلا لماذا أطلق عليها حكماءنا القدماء - الذين يعرفون كل شىء - اسم « المملكة الوسطى » ؟

إننى كنت متشوقة إلى الاستطراء فيما بداؤه ، فأكملت قائلة

- وأكثر من ذلك ، أن الأرض ضخمة ، حتى أننا نحتاج لمسافة بالطول الكلى للقمر لتبلغى الطرف الآخر ، وعندما يعم الظلام هنا فإن الشمس تبعث بضوئها هناك .

صاحت الطاهية صيحة انتصار .

- الآن أعرف أنك مخطئة يا سيدتى .. إذا كان الوصول إلى البلاد الأخرى يستغرق من الأيام مدة قمر ، فكيف تفعل الشمس ذلك فى ساعة فى حين تقضى نهارًا بطوله لقطع المسافة القصيرة بين الجبل الأرجوانى والتلال الغربية ؟

وانهمكت مرة أخرى فى هز سلة الأرز فى الماء

ولكننى فى الحقيقة لا أستطيع أن ألومها على جهلها ، لأن أعجب ما سمعته من كل الغرائب التى أخبرنى عنها زوجى أن الشعوب الغربية لديهم الأضواء السماوية الثلاثة نفسها التى عندنا . الشمس ، والقمر ، والنجوم . كنت أعتقد على الدوام أن « بان - كو » الإله الخالق قد صنعها من أجل الصينيين ، ولكن زوجى حكيم . إنه يعرف كل الأشياء ، ويتحدث فقط عن كل ما هو حقيقى .

كيف يمكننى يا أختاه أن أصف فى كلمات بداية استحسان زوجى لى ؟ وكيف أعرف بنفسى متى تحرك قلبه ؟

آه ، كيف تعرف الأرض الباردة متى تغرى الشمس قلبها لتتفتح أزهارها فى فترة الربيع ؟ وكيف يشعر البحر بالقمر يجذبه إليه ؟

لا أعرف كيف مرت الأيام ، ولكننى أعرف فقط أننى لم أعد وحيدة ، وحيث يعيش هو أصبح بيتى ، وكففتُ عن التفكير فى بيت أمى .

وفى أثناء ساعات النهار - بعد أن يغادر زوجى البيت - أفكر ملياً فى كلماته .. أتذكر عينيه ، ووجهه ، ومنحنى شفثيه ، ولمسة يده غير المقصودة ليدى حين يُقلب صفحة الكتاب الموضوع أمامنا على المنضدة . وعندما يهبط الليل وهو يجلس هناك قبالتى ، كنتُ ألقى عليه خلسة نظرة عَجَلَى لأغذى قلبى بنظراته وهو يعلمنى .

كنت أفكر فيه آناء الليل وأطراف النهار كنهر فى الربيع يتدفق بغزارة

في القنوات الضامّة التي جففها الشتاء ، ومثل النهر يجرى في الأرض غامراً كل شيء بالحياة والخصب ، هكذا كانت أفكار سيدي تأتيني فتملاً وحدتي ، وتسد حاجتي .

من ذا الذي يستطيع أن يفهم هذه القوة في رجل وفي فتاة ؟ إنما تبدأ بعيون تتلاقى مصادفة ، ثم نظرة خجولة متأنية ، وعلى حين غرة تلتهب متحولة إلى نظرة محدقة متأججة ، ثم لمسة أصابع لا تلبث أن تنسحب بسرعة ، ثم قلب يندفع بعنف إلى قلب

ولكن كيف لي أن أخبرك ؟ حتى أنت يا أختاه ! إنه وقت فرحي الأعظم .. هذه الكلمات التي أقولها الآن هي كلمات ورديّة ، ففي اليوم الأخير من القمر الحادي عشر عرفت أنه حينما يجيء وقت حصاد الأرز في نهاية العام سيولد طفلي

أخبرتُ زوجي أنني حققتُ واجبي نحوه حين حملتُ منه .. كان في ذروة السعادة .. أبلغَ والديه أولاً ثم إخوته ، وتلقينا تهانيمهم . أمّا أبواي فلم يكن ذلك الأمر يقلقهما ، ولكنني عزمْتُ على أن أخبر أمي عندما أزورها في رأس السنة .

بدأ الآن وقت عصيب بالنسبة لي . فحتى اليوم كنت شخصاً قليل الأهمية في أسرة زوجي ، فقد كنت فقط زوجة لأحد أبنائهم الصغار ، ولم يكن ثمة مشاركة مني في حياة الأسرة منذ أن انتقلنا من البيت الكبير ،

وقد ذهبت مرتين في مواسم معينة لأبدى احترامى لأم زوجى ، والقيام على خدمتها بتقديم الشاى لها ،، إلا أنها عاملتني بإهمال ، ولكنه لم يكن يخلو من الود .. وفجأة أصبحت الآن مثل كاهنة الأقدار ، ففى أحشائى أحمل أمل الأسرة ، وريثاً لها ، فزوجى كان أحد ستة أبناء لم ينجبوا ذكوراً ، فإذا وضعتُ ابناً فإنه حينئذ سيصل إلى منزلة شقيق زوجى الأكبر فى العائلة والعشيرة ، وسيصبح وارثاً لضياعها . أوه ، ما أقسى حزن الأم ألا يكون ابنها لها إلا فى الأيام القصيرة الأولى ! إذ سرعان ما سيأخذ مكانه فى حياة العائلة العظيمة . إن ابنى سيكون لى لفترة قصيرة ، قصيرة ! أيتها الإلهة «كوان - ين » ، احفظى طفلى الصغير !

إن الابتهاج الغامر ساعة تحدثتُ أنا وزوجى عن الطفل لأول مرة سرعان ما انقشع فى غمرة القلق الذى خَيَّم علينا ، لقد قلت إن الوقت كان عصبياً بالنسبة لى ، وذلك لكثرة النصائح التى قالها لى كل مَنْ هَبَّ وَدَبَّ .

وعندما سمعتُ حماتى بفرحى أرسلت تستدعينى إليها وفى السابق حين كنتُ أزورها ، كنتُ أُسْتَقْبَلُ فى قاعة الضيوف بشكل رسمى ، ذلك لأنها كانت تعاملنا بشىء من العجرفة منذ أن انتقلنا . أمّا فى هذه المرة ، فمن الواضح أنها أمرت الخادمة أن تقودنى إلى حجرة الأسرة خلف الفناء الثالث .

هناك وجدتُ حماتى جالسة إلى المنضدة ترتشف الشاى وتنتظرنى ..كانت سيدة عجوزاً ، جليلة ، بالغة البدانة ، بقدمين صغيرتين لا تناسبان وزنها الثقيل ، وإذا سارت حالياً خطوة واحدة فإنها تنحنى

متكئة بكل ثقلها على جاريتين تقفان على أهبة الاستعداد خلف مقعدها .
كانت يداها صغيرتين ، تغطيهما الخواتم الذهبية ، ولما كانتا سمينتين فقد
برزت منهما الأصابع مختنقة ، وكأنها تبرز كرابية من نقرة في اللحم ،
وهى تمسك على الدوام بغليون من الفضة المصقولة اللامعة ، تحرص
جواربها على أن يكون مملوءًا بالتبغ ، ويشعلنه بورقة ملتوية تحترق ،
وهكذا يكون معدًا لكى تستعمله للتدخين فى أى لحظة .

توجهت إليها على الفور ، وانحنيت أمامها . ابتسمت فاخترقت شفاتها
الضيقتان بين وجنتيها المنفختين ، ثم تناولت يدي وربتت عليها .

قالت

– أيتها الابنة الطيبة .. أيتها الابنة الطيبة .

كان صوتها أجشً مبجوحًا منذ أن اختفى عنقها بين طيات من اللحم ،
وأصيبت بالربو .

عرفت أننى أسعدتها . صيبت الشاى فى إناء وقدمته إليها بكلتا يديّ ،
فتناولته منى ثم جَلَسَتْ على مقعد جانبي صغير ، ولكنها
أصبحت لا تسمح الآن بمثل هذا التواضع منى ، مع أنها لم تكن من قبل
تبالى أين أجلس . أومأت إلى من خلال ابتسامتها وسعالها أن أجلس على
المقعد المقابل لها أمام المائدة ، فامتثلت لأمرها

ثم أرسلت تستدعى زوجات أبنائها الأخريات ، فجئن جميعًا
ليهنئننى . وكانت ثلاث منهن لم يحملن على الإطلاق ، على الرغم من أنهن

تزوجن منذ عدة سنوات ، فصرت موضعَ حسدِ مِذهن ، وخزى لهن ، وإذا بكبراهن ، وكانت امرأةً طويلة ذات وجه أصفر، متوعكة معتلة دائماً ، شرعت الآن تنتحب ، وارتفع صوتها بالإعوال ، وراحت تهتز وتتطوح وهي تتحسر وتندب حظها .

— يا لها من حياة مريرة ، ومصير مشئوم !

تنهدت حماتى وهزت رأسها فى وقار ، وسمحت لزوجة ابنها الكبرى أن تفرج عن نفسها بالبكاء فترةً ، دَخَنْتْ خلالها حشوتين من طباق الغليون ، ثم أَمَرَتْهَا بأن تسكت ، لأنها تريد التحدث معى . وعلمت مؤخرًا أن الشقيق الأكبر لزوجى قد اتخذ لنفسه حاليًا زوجة ثانية ، لأن الأولى لم تنجب له أية أطفال ، وكان هذا هو مبعث الحزن المبرح الذى انتاب تلك المخلوقة المسكينة فى ذلك اليوم ، فقد كانت تحب زوجها ، ولأنها عرفت أخيرًا أن صلواتها والأضاحى التى قدمتها للآلهة لم تحظ باهتمامهم .

قدمت لى حماتى نصائح كثيرة حصيفة . ومنها أنها طلبت منى ألا أعد أية ملابس للطفل قبل مولده . وتلك كنت العادة المتبعة وقت أن كانت فتاة فى البيت الكائن فى « آنهواى » ، حيث كان الناس يؤمنون أن ذلك سيجعل الآلهة القساة غافلين عن الولادة المنتظرة ، وإلا فإنهم إذا رأوا رجلًا يولد فى هذا العالم سيسعون إلى إهلاكه

ولكننى لدى سماعى عن تلك العادات سألت .

— إذن ماذا يرتدى طفلٌ صغيرٌ عار حديث الولادة ؟

قالت باهتمام

- عليك أن تلفيه بملابس أبيه القديمة ، فهذا سيجلب له الحظ ، وقد فعلتُ ذلك مع أبنائى الستة فعاشوا جميعاً .

وراحت زوجات أشقاء زوجى يطلبن منى أن أفعل أشياء كثيرة .. وكانت كل واحدة منهن تزودنى بعادات موطنها فى مثل هذه الأمور وقد نصحنى بوجه خاص أن أتناول صنفاً معيناً من الأسماك بعد ولادة الطفل، وأن أشرب من أوانٍ محتوية على ماء مذاب فيه سكر أحمر . وهكذا كانت كل واحدة منهن تُنَفِّسُ عَمَّا يعتمل داخلها من حسد نحوى بإساءة النصح لى .

عندما عدتُ فى المساء إلى زوجى ، سعيدة بكل هذه الحفاوة من عائلته، أخبرته بكل ما طلبه منى لأقوم به من أجل ابنى . أرعبتنى المفاجأة حين ثارَ فى غضبٍ منكرٍ عنيف ، وراح يجذب شعر رأسه بيديه، وهو يذرع الحجرة بُخْطى واسعة ، وأخذ يصيح

- هُراء . هُراء .. هُراء ! كلها أكاذيب .. كلها خرافات .. أبداً ، لن يحدث مطلقاً!

توقف وأمسك بكتفىّ ونظر بجد إلى وجهى المضطرب وقال بحزم .
- عدينى بأنك ستتهدين كلية بإرشاداتى وتوجيهاتى .. إنى أحذرك .. يجب أن تطيعى ' عدينى يا كواى - لان ' وإلاً أقسمتُ بأننا لن يكون لنا طفل آخر !

ماذا كان بوسعى أن أفعل وأنا مرتعبة غير أن أعد ؟

ولما أعطيته كلمتى بعد تردد أصبح أكثر هدوءاً وقال

— غذا سأخذك إلى بيت غربى ، لِتَرَى أُسْرَةَ مدرسى القديم ، وهو أمريكى . أريدك أن ترى كيف يعنى الغربيون بأطفالهم ، لا لتكونى نسخة مقلدة منهم ، ولكن لتوسيع أفكارك .

حاولت أن أطيع زوجى .. شىء واحد فقط فعلته خفية فى تكتم ، ففى اليوم التالى عند بزوغ الفجر تسلفت من البيت دون أن أصرحب أحداً سوى خادمتى .. اشتريت أعوادَ البخور من المتجر . كان الوقت مبكراً حتى أنه لم يكن هناك سوى الصبى الذى يتدرب على المهنة ، وكان يتحرك تحركاً بطيئاً يثير الشفقة وهو يتثاءب فى الصباح الضبابى المعتم ، ثم ذهبْتُ إلى المعبد ، وأشعلت أعوادَ البخور ، ووضعتها أمام الإلهة الصغيرة السمراء « كوان - ين » التى تهب البنين ، وتيسر عملية الوضع ضربتُ رأسى على اللوحة الرخامية الموضوعة أمامها . كانت ما تزال مبتلة بندى الليل . تمتمت بما فى قلبى ، ونهضت ، وتطلعتُ إليها متوسلة.. لم تستجب، كانت الجرة ممتلئة بالرماد البارد المتخلف من أعوادَ البخور التى وضعتها الأمهات الأخريات قبلى ، وارتفعت صلواتهن فى شوق مثلى . دفعتُ أعوادَ البخور فى الرماد بإحكام أكثر وأشعلتها ، وتركتها تحترق أمامها ، ثم عدتُ إلى بيتى .

أنجز زوجى ما وعد ، فقد اصطحبنى لزيارة بيت أصدقائه الأجانب .. كنتُ فضولية محبة للاستطلاع ، ولكننى كنت خائفة بعض الشيء . وأنا التى تناديك بأختى ! أبتسم الآن حين أتذكر ذلك .

لم يحدث قط أن زرتُ بيتاً أجنبياً ، لم تُتَحَ لى الفرصة ، لم أَسِرْ فى الشوارع بالخارج ، ولم يكن فى بيت أُمى مَنْ تَصَادَقَ مع الأجانب . لقد رآهم والدى طبعاً فى أسفاره ، ولم يعرهم أى أهمية سوى أنهم يثيرون ضحكه بنظراتهم الخشنة ، ومسلكهم البدائى الفظ . ومن الغريب أن أخى وحده كان شديد الإعجاب بهم ، فقد رآهم فى « بكين » ، وكان فى مدرسته بعض الأجانب الذين كانوا يُدَرِّسون له . وذات مرة سمعتهم يقولون قبل زواجى . إنه زارَ بيت أحد الأجانب ، وقد أعجبت بجرأته هذه كثيراً .

غير أنه فى بيت أُمى لم تحدث مثل تلك الاتصالات . وفى بعض الأحيان كانت إحدى الخادمت تذهب لتتسوق ثم تعود إلى البيت وتقول مهتاجة إنها رأت أجنبياً يسير فى الطريق ، وحينئذ يدور حديث بتعجب عن جلودهم الشاحبة ، وعيونهم الباهتة . وكنت أستمع دائماً بنفس الفضول والخوف للذين ينتابانى عندما تحدثنى « وانج دا ما » عن الأشباح والشياطين فى العصور القديمة . ومن العجيب أن الخدم كانوا يتهامسون عن السحر الأسود عند هؤلاء الأجانب ، وقدرتهم على سلب الروح من أحد الأشخاص بآلة صغيرة فى صندوق أسود كانوا يحدقون فيه بعين واحدة . فإذا ما طلق شىء داخل الصندوق أحس المرء بضعيف غريب

في صدره ، وسرعان ما ينتابه مرض ، أو يصيبه حادث يؤدي إلى موته .

ضحك زوجي بشدة عندما أخبرته بكل هذه الأشياء وسألني

– إذاً كيف تَسْنَى لي أن أعود حياً بعد اثنتي عشرة سنة قضيتها في

بلادهم ؟

فأجبتُ .

– أه " إنك حكيم .. لقد تعلمت سحرهم .

عندئذ قال .

– تَعَالَى وانظري بنفسك ماذا يبدوون ؟ إنهم رجال ونساء مثل

الآخرين.

وهكذا ذهبنا في ذلك اليوم نفسه ، ودخلنا إلى حديقة ذات بساط
سندسي من الكلال الأخضر ، وترتفع فيها الأشجار ، وتمتلئ بالأزهار ..
أدهشني أنها كانت حديقة غَنَاء ، وأن الغربيين يفهمون قيمة الطبيعة .
كان التنسيق الكلي فَجًّا ، فلم يكن هناك أفنية أو بِرَك للسبك الذهبي ،
والأشجار زُرعت بطريقة عشوائية ، والأزهار تركت لتنمو كيفما اتفق
بغير نظام . يجب أن أعترف أننا حين وقفنا أخيراً أمام باب البيت وددتُ
أن أهرب لولا أن وحي كان هناك معي .

فُتِح الباب فجأة من الداخل ، ووقف هناك كائن طويل « شيطان
أجنبي » يبتسم ابتسامة عريضة عبر وجهه الضخم لقد عرفتُ أنه
رجل، لأنه كان يرتدي ثياباً تماثل ما يلبسه زوجي ، لكن أرعبنى أن

رأسه بدلا من أن يكون مغطىً بشعر بشرى أسود ناعم - شأن غيره من الناس - كان مغطىً بوبد أحمر مجعد ! كانت عيناه كقطعتين من البلّور الصخرى غسلها البحر ، وأنفه بارزًا كجبل وسط وجهه .. أوه ، كان مخلوقًا بغيضًا مرعبًا ، لا تُحتمل رؤيته ، كان أكثر بشاعة من إله الشمال في مدخل المعبد .

زوجى شجاع ، لم يُبدِ أىّ انزعاج لمرأى هذا الرجل ، فقد قدّم يده فأمسك بها الرجل الأجنبى وهزها صعودًا وهبوطًا . لم يُفاجأ زوجى بذلك ، واستدار نحوى وقدمنى إليه . ابتسم الأجنبى ابتسامته الواسعة ، وبدا كما لو كان يبتغى الإمساك بيدي أيضًا . ولكننى تطلعتُ ليدى الممدودة، كانت كبيرة ، ناتئة العظام ، فوقها شعر طويل أحمر وبقع سوداء . نفرتُ منه وانكمشتُ ذعرًا ، ولم أستطع أن ألمس يده . وضعتُ يديّ فى أكمامى ، وانحنيت . ابتسم ابتسامة أكثر اتساعًا ، ثم دعانا للدخول .

ولجنا إلى قاعة صغيرة تُماثل قاعتنا ، ثم إلى إحدى الحجرات . كان هناك شخص يجلس بجانب النافذة ، أدركت على الفور أنها سيدة أجنبية، فهى على الأقل ترتدى ثوبًا طويلًا من القطن بدلًا من البنطلونات ، وتتنطق بحزام عريض يشد وسطها . لم يكن شعرها قبيحًا كشعر زوجها ، فقد كان ناعمًا مسترسلًا ، وإن كان بلون أصفر غير ملائم . ولها أنف شديد الارتفاع أيضًا ، إلا أنه لم يكن مقوّسًا كأنف زوجها ،

وكانت يداها كبيرتين ، بأظفار قصيرة مربعة . نظرتُ إلى قدميها فرأيتُ
أنهما بحجم مضرب الأرز .. لقد فكرت في نفسى قائلة .

– بوالدين كهذين كيف تكون الشياطين الأجنبية الصغيرة ؟

وعلى أية حال ، يجب أن أقول إن هؤلاء الأجانب كانوا مهذبين ، كما
يعرفون كيف يكونون كذلك . لقد ارتكبوا أخطاءً وَشَتْ بافتقارهم إلى
التربية ، فقد قدموا « سُلطانيات » الشاى بيد واحدة ، وناولوه لى قبل
زوجى . وفى الحقيقة كان الرجل يخاطبنى وهو يتطلع إلى وجهى ، وقد
شعرت بأن ذلك إهانة. وكان من الكياسة أن يتجاهل حضورى ، تاركاً
لزوجته استضافتى وإكرام وفادتى .

إننى أظن أن المرء لا يستطيع أن يلومهم ، مع أنهم مكثوا هنا اثنى
عشر عاماً كما أخبرنى زوجى . وقد يعتقد المرء أنه كان الأحرى بهم أن
يتعلموا بعض الأشياء خلال تلك الفترة . أنتِ طبعاً يا أختاه قد عشتِ هنا
دائماً ، وأصبحتِ الآن واحدةً منا .

إن أهم شىء فى الزيارة حَدَثَ عندما طلب زوجى من المرأة الأجنبية أن
تَدْعِنى أَرَى أطفالها وملابسهم . وشرح ذلك قائلاً . إننا نتوقع قدومَ طفلٍ
لنا ، ولذلك فإنه يريدنى أن أَرَى أساليب الغرب فى هذا المجال .. فنهضتُ
على الفور ، وسألتنى أن ارتقى السلم .. خشيتُ أن أذهب معها بمفردى ،
وتطلعتُ إلى زوجى مستنجدة ، ولكنه أوماً برأسه لى فقط كى أمضى
معه . لكننى نسيتُ الخوفَ حين أصبحت فى الطابق العلوى ..

اصطحبتنى إلى غرفة ينتشر فيها ضوء الشمس ، وينبعث فيها الدفء
كما - بدا ذلك واضحاً - تركوا نافذة مفتوحة جزئياً كي يدخل منها هواء
بارد باستمرار ، غير أننى رأيت فى أول الأمر ما فتتنى بشدة .. ثلاثة
صغار أجانب يلعبون على الأرض لم يسبق لى قط أن شاهدتُ مثل هذه
المخلوقات الصغيرة الغريبة !

كانوا يبدون أصحاء وبدينين ، ولكنهم كانوا جميعاً من ذوى الشعر
الأبيض ، وقد أكد لى هذا ما سبق أن سمعته من أن الأجانب على عكس
طبيعتنا ، إذ يُولدون بشعور بيضاء كالتلج تم تسودُ كلما تقدم بهم العمر
كانت بشرتهم ناصعة البياض ، ظننتُ أنهم يغسلونها بنوع من المياه
الطبية إلى أنْ أرَتْنى الأم غرفة يغتسلون فيها جميعاً يومياً غسلًا كاملاً ،
وقد وجدتُ فى ذلك تفسيراً لبياض بشرتهم إن الألوان الطبيعية الخفيفة
تبهت من جراء كثرة الاغتسال .

أرَتْنى الأم ثيابهم أيضاً ، كانت كل ملابسهم الداخلية بيضاء ، وكان
أصغر الأطفال يتدثر برداء أبيض من رأسه إلى قدمه . سألتُ الأمَّ عمَّا إذا
كان الطفل يرتدى ثوب الحداد على بعض أقاربه - لأن اللون الأبيض يدل
على الحزن - ولكنها أجابت بأن الأمر ليس كذلك ، ولكن فقط لى يظل
الطفل نظيفاً كنتُ أظن أن اللون القاتم أفضل ، لأن الأبيض يتسخ
بسهولة ، ولكننى لاحظتُ كل شىء بدون أن أتفوّه بكلمة .

ثم رأيتُ أسرَّتْهم . كانت كلها أيضاً مغطاة بالملاءات البيضاء ، وكان

ذلك مَدْعَاةً للحزن والاكتئاب ، ولم أستطع أن أفهم لماذا كل تلك المغالاة في اللون الأبيض ؟ إنه لون الحداد والموت ، ومن المؤكد أن الطفل يجب أن يرتدى الألوان السَّارَّة البهيجة ، كاللون القرمزي ، والأصفر ، والأزرق الملكي ، وهو لون أزرق ضارب إلى الأرجواني نحن نُدَثِّرُ أطفالنا باللون القرمزي من الرأس إلى القدم فرحًا بمقدمهم إلينا ، أما هؤلاء الأجانب فلا شيء من تصرفاتهم ينسجم مع الطبيعة

وقد اكتشفتُ أحد الأشياء العجيبة ، فالمرأة الأجنبية ترضع طفلها من ثديها ! لم يحدث أن فكرتُ في إرضاع صغيري ، فليس من المعتاد بين النساء من ذوات الثراء أو المكانة أن يعلنن ذلك طالما أن هناك وفرة من الجوارى للقيام بهذه المهمة

وعقب عودتنا إلى البيت أخبرتُ زوجي بكل شيء . وأخيرًا قلتُ

— إنها ترضع طفلها بنفسها ، فهل هم فقراء إلى ذلك الحد ؟

قال زوجي

— إن إرضاع الأم لطفلها أَمْرٌ حَسَن ، وسترضعين طفلك بنفسك .

قلت في دهشة .

— ماذا ؟ أنا ؟

أجاب بهدوءٍ ووقارٍ .

— طبعًا .

قلت معترضة .

- ولكن سيترتب على ذلك أننى لن أنجب طفلاً آخر قبل عامين .

ردّ زوجى على قولى

- ذاك ما يجب أن يكون ، ولو أن السبب الذى ذكّرتَه مجرد هُراء .

ربما كان مصيباً فى هذا أيضاً ، وعلى أية حال أننى أدرك أنه من المحتم
أن يموت بضعة أطفال فى كل أسرة ، وبعضهم من البنات ، فلن يمتلىء
بيتى بالأبناء كما كنت آمل ذلك . أتتعجبين يا أختاه إذا قلتُ إننى لم أعد
أجد زوجى غريباً ؟

ذهبتُ فى اليوم التالى لرؤية السيدة « ليو » لأخبرها عن زيارتى . آه ،
ليت الإلهة تمنحنى ابناً مثل أطفالها ، منتصبِ القامة ، ومتورد الوجنات ،
وذا عينين لامعتين .. كانت وجوههم جميلة ، وجلودهم ذهبية ومنظرهم
رائعاً بملابسهم الحمراء المزركشة بالزهور .

قلت لها وأنا أرقب الأطفال بلهف .

- لقد احتفظتِ بعاداتنا القديمة .

علقت قائلة

- نعم .. ولا انظرى !

وجذبت الطفل الأكبر نحوها ..

- انظري .. ملابسه الداخلية كلها بيضاء .. إنها كبطانة يمكن نزعها وغسلها . تعلّمي قدر ما يمكنك من الأجانب الشيء الجيد ، واطرحي جانبًا ما لا يناسبك .

ذهبتُ من بيتها إلى متجر الملابس ، اشتريتُ حريزًا أحمرَ وقرنفليًا مزركشًا بالورود من أنعم الأصناف ، وقطيفة سواد لسترة صغيرة بلا أكمام ، وقماشًا من الساتان لقلنسوة .. كان الاختيار صعبًا ، إذ أننى عزمت على ألا أشتري شيئًا لابنى إلا من أجود الأنواع .. أمرتُ صاحب المتجر أن يسحب إلى أسفل مزيدًا أو مزيدًا من الحرير الذى طواه بعيدًا فى أغلفة من الورق الداكن ، ووضعها على أرفف قبلت السقف .. كان البائعُ عجوزًا ، لاهتَ الأنفاس ، وراح يدمدم متذمرًا حين صحتُ :

- أربنى مزيدًا .. قطعة من الحرير مطرزا عليها أزهار الخوخ !

سمعتة يغمغم مرددًا شيئًا عن خيلاء النساء وزهوهن ، فقلت :

- إنها ليست لى ، بل لابنى .

عندئذ ابتسم ابتسامة ملتوية ، وأحضر لى أجمل القطع جميعًا ، قطعة كان يحتبسها وظل محتفظًا بها حتى الآن ، وقال :

- خذها ، لقد كنتُ أحتفظُ بها لزوجة الحاكم ، ولكن إذا كانت لابنك فخذها .. إنها برغم كل شيء ليست سوى امرأة .

كانت هى القطعة التى أبحث عنها ، فبين أكوام القطع الحريرية الزاهية التى انتشرت فوق الطاولة الطويلة ، كانت هذه تتألق بلون وردى

بهيج .. اشتريتها بدون مساومة ، على الرغم من أننى أعرف أن الرجل
العجوز الماكر قد غالى فى الثمن حين رأى مدى تلهفى حملتها على ذراعى
إلى البيت ، وقلت لنفسى : « الليلة سأصنع منها سترة صغيرة وسروالاً ،
سأعمل كل شيء وحدى ، فأنا أغار من لمس الآخرين لطفلى الذى أوشك
على المجيء ».

أوه ، لقد كنت سعيدة ، أننى تمكنت من السهر خلال الليل لأحيك
ملابس ابنى ، وقد صنعت له خفين لكل واحدٍ منهما وجه نمرٍ ، واشتريتُ
له سلسلة من الفضة لتكون مصدر سرور وابتهاج له .



الشيخ الخليل

5

أهذه أنتِ ؟ لدى أخبار عظيمة ! فاليوم وثب ابني نحو قلبي ! وبدا لي كأنه تكلم .

لقد أعددت ثيابه الصغيرة ، وأصبحتُ كلها جاهزة ، حتى الصور الذهبية الدقيقة التي تمتل « بوذا » قد طُرزت على قلنسوته الساتانية، وعندما تم إنجاز كل ذلك بشكل بلغ حد الكمال اشتريت صندوقًا كبيرًا متينًا من خشب الصندل لحفظ النفائس ، وأودعتُ فيه الملابس حتى تتضمخ بعطر زكى من أجل ابني .. والآن لم يعد لدى أن أنتظر ثلاثة أشهر قمرية ، ثم جلستُ أحلم كيف سيبدو ابني .

يا أيتها الإلهة الصغيرة الداكنة البشرة ! عَجَلِي بالأيام المجنحة ، أتوسلُ إليك ، حتى يصيح طفلي الذهبي بين ذراعَيّ !

سيكون لي ليوم واحد على الأقل ، ولن أفكر في غير ذلك ، فقد بعث والدا زوجي رسالة لنا يخبراننا فيها بأن الطفل يجب أن يعود إلى بيت أسلافه،

إنه الحفيد الوحيد ، وحياته أثنى من أن يقضى ليله ونهاره بعيداً عن أعين جدّيه . لقد بدءوا يفكرون فيه بإعزاز . وها هو ذا والد زوجى الذى لم يسبق أن حَدَّثَنِى بكلمة واحدة ، أرسل لى يستدعينى فى اليوم التالى، وتحدّثَ معى ، واستطعتُ أن أرى أن عقله الذى بلغ مرحلة الشيخوخة قد صَوَّرَ له الطفل كما لو كان قد وُلد الآن

أوه ، إننى أتوق إلى الاحتفاظ به لدينا ! لقد روضتُ نفسى على البيت الأجنبى الصغير وحالاته الغريبة ، إذا استطعنا أن نستبقى ابننا هنا ونعيش فيه ثلاثتنا ، ولكننى أعرف التقاليد المميزة لشعبنا ، فليس من المفروض أن أحتفظ لنفسى بابنى البكر ، فهو ينتمى إلى الأسرة كلها

إن زوجى غبر سعيد بذلك ، إنه عابِسٌ ، متجهم الوجه ، ويدمدم بأن الطفل ستمدّمه الجوارى الحمقاوات التافهات ، والمبالغة فى تغذيته ، والترف المؤذى ، وها هو ذا يذرع الأرض جيئةً وذهاباً ، وأحزنه ذات مرة أن الطفل سيولد .. ارتعبتُ حينئذ لئلا تغضب الآلهة من جحوده ، ورجوته أن يصمت

قلت له وقلبى يتوق للاحتفاظ بطفلى .

– يجب أن نتحمل العادات الصحيحة

غير أنه أصبح الآن هادئاً رزيناً مرة أخرى ، لم يتحدث بشيء عن والديه . وتعجبتُ عمّا يدور فى عقله من قرار حتى أنه لا يريد الإفصاح عنه ! أما بالنسبة لى فلم أعد أفكر الآن فى غير ذلك اليوم الذى سيكون فيه

الشيء الثمين هنالى ، تستمتع به عيناي أيما استمتاع .

إننى أعرف الآن ماذا فعل زوجى فهل تعتقدان أنه خطأ يا أختاه ؟
أوه ، إننى شخصياً لا أعرف . يمكننى أن أثق أنه عين الصواب لأنه
هو الذى فعل ذلك ؟ لقد أخبر والديه أنه كما طالب بأن يستقل بزوجه
ليعيشا معاً وحدهما ، فهو الآن يبتغى أن ابنه سينتمى إلى والديه فقط ،
وأنه سيعيش فى كنفهما !

غضب والده ، ولكننا احتملنا غضبهما بدون أن نجيب بشيء ، لكن
زوجى قال أخيراً إن أباه العجوز يئس من حُججه ، وانخرط فى بكاء
صامت . وحين سمعتُ بذلك بدأ لى مثيراً للشفقة أن يجعل ابنُ أباه يبكى !
ولو أن الأمر كان شيئاً آخر غير ابنى لضعف قلبى فى صدرى ، لكنَّ
زوجى أشجع منى ، إذ صمد متغلباً أمام شفقتة نحو والده الذى انهمرت
منه الدموع .

آه " عندما مضينا خارج بيت أبيه ، عاتبته على تحطيمه للعادات
العريقة من ماضينا ، ولكننى الآن ويا لى من امرأة أنانية لم أعد أبالى بأن
التقاليد قد تحطمت .. إننى أفكر فقط فى ابنى ، سيكون لى فقط لى
وحدى ! لا حاجة لى لأن يُشاركنى فيه عشرون آخرون .. جدوده
وعَمَّاتُه . إننى أمه ، على أن أعنى به ، وأغسله ، وأدثره بالملابس ، وأبقيه
بجانبى ليل نهار .

الآن وقد عَوَّضَنِي زَوْجِي خَيْرًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، أَشْكُرُ الْآلِهَةَ ، لِأَنَّنِي
تَزَوَّجْتَ رَجُلًا عَصْرِيًّا ، لَقَدْ وَهَبَ لِي ابْنِي لِيَكُونَ لِي شَخْصِيًّا . إِنَّ حَيَاتِي
كُلَّهَا لَا تَكْفِي لِرَدِّ جَمِيلِهِ .

أُرَقِبُ يَوْمِيًّا الْأَرْضَ يَصْفَرُّ فِي الْحَقُولِ لَقَدْ اِمْتَلَأَتِ السَّنَابِلُ الْآنَ وَتَدَلَّتْ .
وَمَا هِيَ إِلَّا فِتْرَةٌ قَصِيرَةٌ تَحْتَ أَشْعَةِ هَذِهِ الشَّمْسِ حَتَّى تَتَفَجَّرَ نَاضِجَةٌ
وَتَصْبِحَ صَالِحَةً لِلْحَصَادِ . إِنَّهَا سَنَةٌ طَيِّبَةٌ ، تِلْكَ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا ابْنِي ، سَنَةٌ
حَافِلَةٌ بِالْخَصْبِ ، كَمَا يَقُولُ الزَّارِعُونَ .

كَمْ بَقِيَ لِي مِنْ أَيَّامِ الْإِنْتِظَارِ الْحَالَةِ ؟

لَقَدْ كَفَفْتُ عَنْ التَّفَكُّيرِ فِيمَا إِذَا كَانَ زَوْجِي يَحْبُنِي ، فَعِنْدَمَا أَلِدُ لَهُ ابْنَهُ
سَيَعْرِفُ مَا فِي قَلْبِي ، وَأَنَا سَأَعْرِفُ مَا يَضُمُّهُ قَلْبُهُ

أِهْ . يَا أَخْتَاهُ ! إِنَّهُ هُنَا .. ابْنِي هُنَا ! إِنَّهُ يَرْقُدُ عَلَى مَنْحَنِ ذِرَاعِي أَخِيرًا ،
وَشَعْرُهُ أَسْوَدُ مِثْلِ الْأَيْنُوسِ !

انْظُرِي إِلَيْهِ !! لَيْسَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْجَمَالِ قَدْ خُلِقَ مِنْ
قَبْلِ ! إِنَّ ذِرَاعِيهِ بَدِينَتَانِ ، بِهِمَا مَا يَشْبَهُ الْعَمَّازَاتِ ، وَسَاقِيهِ قَوِيَّتَانِ
كَأَشْجَارِ الْبُلُوطِ الصَّغِيرَةِ .. إِنَّنِي تَفَحَّصْتُ كُلَّ جَسَدِهِ مِنْ فَرْطِ حُبِّي لَهُ ،
فَبَدَأَ صَحِيحًا سَلِيمًا جَمِيلًا ، كَأَنَّهُ ابْنُ إِلَهٍ .

أَهْ ، يَا لِلْخَبِيثِ ! إِنَّهُ يَرْفُضُ وَيَصْرُخُ نَاشِدًا ثَدْيِي .. لَقَدْ رَضِعَ مِنْذُ
سَاعَةٍ فَقَطْ ! إِنَّ صَوْتَهُ قَوِيٌّ مَفْعَمٌ بِالْحَيَوِيَّةِ ، وَيَطْلُبُ كُلَّ شَيْءٍ .

أوه .. كانت ساعة عسيرة يا أختاه ! رَاقَبَنِي زوجي بعينين يطل منهما
حُب وقلق وتلهُّف .. خطوتُ أمام النافذة وأنا نَهَبُ الفرح والألم المبرح ..
كانوا يقطعون النباتات المنتجة للحبوب التي نضجت ، ويضعونها حزمًا
فوق الأرض .. سَنَّة خصبة .. وحياة ثرية !

كنتُ ألث من الألم الموجه ، ولم ألبث أن تهللتُ جذلة حين عرفتُ أنني
في أوج أنوثتي .. وهكذا ولدتُ ابني الأول ! كان قويًا ! كيف دفع بوابات
الحياة ليخرج إلى الدنيا ؟ وبأية صيحة رائعة جاء بها قُدُمًا ! خشيتُ أن
أموت من نفاذ صبره وتلهُّفه ، ثم أحاطتني قوته بهالة من المجد .. طفلي ..
الرجل الذهبي !

الآن قد ازدهرت حياتي .. هل سأخبركِ بكل شيء لتعرفي كيف اكتمل
فرحي ؟ لماذا لا أفضي لك بذلك يا أختاه ، يا من رأيتِ قلبي عاريًا بكل
صراحة ووضوح ؟ لقد حدث الأمر هكذا : رقدتُ على فراشي ضعيفة ،
ولكن بانتصار ، كان ابني إلى جانبي ، دخل زوجي الحجرة ، اقترب من
حافة الفراش فاتكأ ذراعيه ، وثَبَّ قلبي . لقد أراد أن أقدمَ له ابني طِبْقًا
للعادة القديمة

أخذتُ ابني ووضعتُه بين ذراعي أبيه ، وقدمته بهذه الكلمات .

– سيدى العزيز ، شاهد أول ابنٍ لك . احمِله زوجتك تعطيك إياه .
حملتُ في عيني .. أُصِبتُ بدوارٍ أمام توهُّج نظراته . انحنى بالقرب
منى، وتحدث قائلًا :

- إننى أُعيدُه إليك . إنه ابننا

كان صوته خافتاً ، وتساقطت كلماته خلال الهواء كقطرات من فضة.

- إننى أشاركك فيه أنا زوجك الذى يحبك !

أو تبكين يا أختاه ؟ آه ، نعم ، أنا أعرف .. وأنا بكيْتُ أيضاً ! وألاً هل فى وسعنا طريقة أخرى .. كيف نستطيع أن نتحمل مثل هذا الفرح ؟ انظرى إلى ابنى ! إنه يضحك !

* * *

أوه يا أختاه ! لقد اعتقدتُ منذ أن أصبح ابنى هنا ، أنه لن يكون لى سوى كلمات الفرح أتحدث بها إليك .. كنت منتصرة واثقة أنه ما من شىء يمكن أن يدو منى ليثير أحزاني مرة أخرى ، إذ طالما أن هناك وشائج الدم فكيف يمكن أن يتأتى الألم منها ؟

اليوم لا يكاد قلبى يتحمل خفقاته ، لا .. إن الأمر لا يتعلق بابنى ! إن له تسعة أشهر من الحياة الآن ، ويبدو مثل « بوذا » فى بدانتته . إذا أراد أحد أن يجلسه . فى الواقع لم تعد تُراعى قويات تماماً على ثنيه . إن أفكاره مملوءة بالإنزعاج اللطيف ، وعيناه ترقصان إبتراقاً . يقول والده إنه قد أفسدَ لكننى أسألك . كيف يمكننى أن أعنّف مثله ، وهو الذى يصهرنى بعناده وجماله ، حتى أننى أمتلئ دموعاً وضحكاً ؟

آه .. إنَّ السبب ليس ابنى ! كلا .. إنه شقيقى ، إننى أتحدث عنه ، وهو الابن الوحيد لأمى الذى كان فى هذه الأعوام الثلاثة هناك فى أمريكا ، إنه هو الذى جعل الدم يتدفق فى قلب أمى ، ومن قلبى هكذا .

تذكرين أننى حدثك عنه .. كيف أحببته فى طفولتى ؟ غير أننى لم أَرُهُ طوال تلك السنين العديدة ، ولم أعد أسمع عنه سوى أقل القليل ، لأن والدتى لم تنس قط أنه ترك بيتها ضد رغبتها ، وأنه رفض أن يتزوج خطيبته حين أمرته بذلك . إن اسمه لا يتردد بسهولة على شفيتها .

وها هو ذا الآن يعكّر صفو حياتها مرة أخرى ، لم يقنع بأنه عَصَى أمه عصيَانًا خطيرًا فى الماضى .. انظرى الآن هنا إلى رسالته ! لقد جاءتنى بها أمس « وانج دا ما » مربيتنا العجوز ، التى أرضعت كلينا من تدييها حين وُلِدْنَا ، والتى عرفت كل شأن من أمور أسرة والدتى .

عندما دخلتُ أحنتُ رأسها حتى لامسَ الأرضَ أمام ابنى . وحين قَدَّمْتُ هذه الرسالة بكتُ وهى تتأوّه صارخة « آى . آى . آى .. » .

ولمّا كنتُ أعرفُ أنه ما من شىء يجعلها تفعل ذلك سوى كارتة ، أحسستُ أن حياتى تتوقف فى صدرى للحظات ، وصحت :

— أمى .. أمى !

تذكرتُ كيف كانت منحنية بضعف ووهن وهى تتكىء على عصاها عندما رأيتها آخر مرة ، أنبَتُ نفسى فى داخلى لأننى لم أذهب إليها سوى مرتين منذ مَوْلَد طفلى . شغلنى عنها عمق استغراقى فى سعادتى !

أجابت « وانج دا ما » وهى تتنهد بشدة .

— إنها ليست أمك يَا بَنَّةَ أشرف السيدات .. لقد أمدّت الآلهة فى حياتها لترى هذه المحنة .

سألتها وقد تحول رعبى بسرعة إلى قلقٍ ولهف

– أَيْكون أبى ؟

أجابت وهى تنحنى .

– وحتى ذلك النبيل لم يشرب بعد من الينابيع الصفراء .

فسألت وأنا أَرَى الرسالة التى وضعتها فوق ركبتى .

– إذن ... ؟

فأشارت إليها قائلة :

– لتقرأ الأم الشابة للطفل الأمير تلك الرسالة . وألحْتُ أَنْ الأمر مُدَوَّن

فيها .

وهنا طلبتُ من الخادمة أَنْ تصب لها الشأى فى الحجرة الخارجية .

وناولتُ ابنى للخادمة الملازمة له ، ثم نظرتُ إلى الرسالة .. كان اسمى

مكتوبًا عليها ، وكذلك اسم المرسلة .. أمى ؟ ! انتابنى العجب ، إذ لم

يسبق قط أَنْ أرسلتُ خطابًا لى .

وبعد أَنْ دهشت لفترة قصيرة ، فتحت المظروف الصغير ، وسحبت

الورقة الرقيقة من داخله ، وفيها رأيت سُطُورَ أمى الرقيقة المدروسة

المتروية التى دَوَّنتَهَا بفَرشاة كتابتها . مررتُ بسرعة على جُمَل الافتتاح

المشككية ، ثم وقعتُ عيناى على هذه الكلمات التى كانت تُبُّ الرسالة .

« إِنَّ أَخَاكَ الذى كان فى البلدان الأجنبية تلك الشهور العديدة ، كتب لى

الآن أنه ينوى الزواج من فتاة أجنبية » .

وأنهت ذلك بالجمل الختامية التقليدية ، وهذا كل شيء ولكن أوه
يا أختاه . لقد شعرتُ بقلب أمى ينزف من خلال كلماتها المقتصدة ،
فصحتُ عاليًا

- أيها الأخ القاسى المخبول أيها الابن الشرير العاق

وظللتُ أصبح حتى أدركتني الخادمت اللاتي هرولن ناحيتي
لتهدثنى، وهن يتوسلن إلى كى أتذكر أن الغضب يُسمِّم لبني الذى
يرضعه طفلى ولما رأين أننى وقعتُ فريسة لفيض من الدموع التى لم
أستطع أن أكبحها ، جلسن على الأرض وارتفعت أصواتهن بالإعوال
معى، حتى ينزحن غضبى . وحين بكبتُ حتى هدأت ، وأزعجنى
ضجيجهن ، أَمَرْتُهن أن يَلْذَنَ بالصمت ، وأرسلت أستدعى « وانج دا ما »،
وقلت لها

- انتظرى ساعة أخرى حتى يعود والد طفلى إلى البيت فأفتح الخطاب
أمامه ، وأعرف ما يأمرنى به كى أفعله ، وسأستأذن فى الذهاب إلى أمى ..
وفى غضون ذلك تناولى أرزًا ولحمًا حتى تنتعشى .

وافقتُ عن طيب خاطر ، وأصدرتُ أوامرى بأن تُوضَعَ أمامها قطعة
إضافية من اللحم ، وأحسست بالراحة فى الترفيه عنها لمشاركتها الأسرة
فى نكبتها

حين جلستُ فى حجرتى منتظرة عودة زوجى استغرقتُ فى التأمل

والتفكير وحدى ، تذكرت أخى ، ولما قفز إلى ذهنى كما أعهد له لم أستطع أن أراه كما هو الآن ، فقد نما إلى ذهنى رجل يرتدى ثياباً أمريكية ، يسير بلا خوف فى الطرق الغربية لتلك الدولة النائية ، وربما يتحدث إلى رجالها ونسائها ، ليس هذا فحسب ، بل لا شك أنه يتحدث طالما يجب امرأة يمكننى أن أتصوره داخل عقلى كما عرفته جيداً ، أختاً لطفولتى ، يكبرنى قليلاً ، والذى كنت ألعب معه عند عتبات بوابات الأفنية .

كان أطول منى بمقدار طول الرأس ، سريع الحركة ، يتحدث بابتهاج ، ويبدو متحمساً عقب الضحك . له وجه بيضاوى شبيه بوجه والدتنا ، وشفتاه رقيقتان ناعمتان ، وحاجباه مُحَدَّدَان بوضوح فوق عينيه التابيتين . وكان موضع حسد المحظيات الكبيرات ، لأنه يفوق أبناءهن جمالاً .. وفى النهاية كيف يكون مختلفاً عن ذلك ؟ إنهن لسن أكثر من نساء عاديات ، كُنَّ من الجوارى فى شبابهن ، سفاهن ممتلئة خشنه ، وحواجبهن متناثرة مبعثرة مثل شعر الكلاب ، أمّا والدتنا فقد كانت سيدة سليمة مائة جيل عريق . كان جمالها بالغ الدقة والرقه ، محكمًا فى خطوطه وألوانه ، وهذا الجمال منحته لابنها .

لم يكن يعبأ بهذا الجمال . كان يمسح متبرماً آثار تربيت أصابع الجوارى على جنتيه الناعمتين حين كُنَّ يتملقنه محاولات إرضاء أمه .. كان ينكبُّ على ممارسة اللعب بل كان - بلا شك - قوياً جاداً حتى فى لعبه وصحكه ويبدو أننى أراه دائماً معقود الجبين فى أثناء لعبه . كان ثابت العزم فى كل شىء ، ولا يطيق أن تعلو إرادة على إرادته .

وعندما كنا نلعب معاً لا أجرؤ على مُنازعته ، من ناحية أنه ولد ، ومن غير المناسب أن أجعل - أنا البنت - إرادتي ضد إرادته ، ولكنني من ناحية أخرى أتحتُّ له أن يكون له أسلوبه واتجاهه من منطلق أنني أحببته حباً عميقاً ، ولا يمكنني أن أراه حزيناً .

أجل لم يكن أحد يحتمل أن يراه فاشلاً ، كان الخدم والعبيد يبجلونه وينحنون أمامه باعتباره السيد الصغير ، وحتى وقار والدتنا كان يلين في حضوره ، ولا أعنى أنها كانت تسمح له أن يعصى أوامرها بأي حال من الأحوال ، وأعتقد أنها كانت تقيد نفسها كي يكون ما تأمره به يتفق مع رغباته ، فقد سمعتها تطلب من إحدى الجوارى أن تنقل من فوق المنضدة كعكة بالزيت الحلو قبل مجيئه ، لأنه كان يستعذبها ، وأنه سيلتھمها فتصيبه بالمرض ، كما حدث ذلك دائماً ، لذا حرصت على ألا يراها ، إذ سيتشبث بها فتضطر إلى منعه من تناولها

وحتى في شبابه كانت الحياة ممهدة أمامه ، ولم يدر بخلدی أن لاحظ التفرقة في المعاملة بينه وبينی ، إذ لم أحلم في أي وقت بأن أكون على قدم المساواة مع أخي ، لم يكن ذلك ضرورياً ، فليس لي دور مهم كي أحققه للأسرة متلماً له ، فهو الابن البكر ، ووريث والدي .

في تلك الأيام أحببتُ أخي حباً يفوق كل الآخرين ، كنت أسير بجانبه في الحدائق متعلقة بيده ، وكنا ننحني فوق البرك الضحلة نبحث في الظلال الخضراء عن الأسماك الذهبية التي كانت تستحوذ على اهتمامنا ونسميها أسماكنا وكنا نجتمع الأحجار الصغيرة المتنوعة الألوان ونشكل بها

بعض المباني - كما في حكايات الجن - وسط أفنية ذات أسوار، ونُزَيْدُها على غرار مبانينا، ولكنها كانت رقيقة متناهية الصغر، ومعقدة في تصميمها. وعندما علمنى أن أحرك فرشاة الكتابة بعناية فوق الخطوط التمهيديّة للحروف في أول كراسة للخط ممسكا بيدي وهو يقودها، كنت أعتبره أَحْكَمَ البشر. وحينما كان يذهب إلى مباني النساء كنتُ أتبعه ككلب صغير. وإذا تسلل عبر البوابة ذات القنطرة المقوسة إلى قاعات الرجال حيث لا يمكننى الدخول، كنت أنتظره بصبر نافذ حتى يعود.

وفجأة - حين بلغ التاسعة من عمره - نقلوه من مساكن النساء إلى تلك المساكن التي يقطنها والده والرجال، فتحطمت حياتنا المشتركة معاً بقسوة

يا لتلك الأيام الأولى القليلة، لم أكن أستطيع أن أعيشها دون نوبات بكاء طويلة. وفي الليل كنت أبكى حتى أنام، فاحلم بمكان نزل فيه أطفالاً لا نفترق أبداً. آه. لقد مرت أيام عديدة قبل أن أكف عن الاستغراق في تفكير كئيب وأنا أرى كل حجرة خالية منه.. خشيت أمي أخيراً على صحتي فحدثتني قائلة

- يا بني، هذا الشوق الدائم لأخيك غير لائق، فمثل هذه العاطفة يجب أن تُحْفَظَ لعلاقات أخرى، ومثل هذا الحزن ملائم فقط عند موت والدَيّ زوجك. عليك أن تدركى ما يتناسب مع الحياة، واكبحى عواطفك بناء على ذلك. انكبرى على دراساتك وتطريزك، فقد جاء الآن الوقت الذي يجب أن نُعدك فيه جدياً للزواج

ومنذ ذلك الحين فصاعدًا كانت فكرة زواجى الذى يدنو منى تلازمنى على الدوام . وَنَمَوْتُ لأفهم أن حياتى وحياة أختى لا يمكن أبدًا أن تسيرا جنبًا إلى جنب ، فأنا أولاً لا أنتمى إلى أسرته ، بل لأسرة خطيبى ، لذلك اهتممت بكلمات أمى ، وعزمت على تطبيقها عملياً فى أداء واجباتى .

أتذكر أختى ثانية بوضوح فى ذلك اليوم رغب فيه أن يذهب إلى المدرسة فى « بكين » .. لقد مثل بين يَدَيِّ والدتنا ليسألها وفقاً للتقاليد أن تأذن له بالسفر ، وكنت حينئذ هناك ، ولما كان قد حصل على موافقة والدنا ، فإن مجيئه إلى والدتنا كان من قبيل المجاملة لا غير . فوالدتنا لم تكن تستطيع – إلا نادراً وبشق الأنفس – أن ترفض ما سمح به والدنا ، ولكن أختى كان يدقق دائماً فى مراعاة المظاهر الخارجية الخاصة بعاداتنا .

وقف أمامها مرتدياً ثوباً من الحرير الرمادى ، إذ كان الوقت صيفاً ، وقد أحاط إبهامه بخاتم من اليشب .. إن أختى مولع دائماً بالأشياء الجميلة، وفى ذلك اليوم جعلنى أفكر فى عصا فضية تُتَخَذُ للزينة .. أَحْنَى رأسه قليلاً أمام والدتنا وهو يغض من بصره .. ولكن من حيث كنتُ أجلس استطعتُ أن أرى عينيه تومضان بين أجفانهما ، وقال :

– أمى ، إذا كنتِ تسمحين ، فإننى أرغب فى الدراسة إلى مَدَى أبعد فى جامعة « بكين » .

كانت بالطبع تعرف أنها يجب أن توافق ، وعرف هو أنها سترفض إذا كان ذلك فى استطاعتها ، ولكن فى الوقت الذى كان فيه غيرها من النساء تتوانى شاكيات باكيات ، تحدثت هى فى الحال بهدوء وحزم .

— يا بنى ، إنك تعرف أن الأمور يجب أن تجرى كما يقول أبوك ، وأنا أعرف أنني لا شىء أكثر من أمك ، وعلى الرغم من ذلك سأتكلم ، حتى ولو كنت لن أعارض رغبة أبيك ، فإننى لا أرى أية فائدة فى مغادرتك البيت . فوالدك وجدك قد أتما تعليمهما فى البيت . وأنت شخصياً كان لديك أبرع العلماء فى المدينة ليعلموك منذ طفولتك لقد استدعينا لك بمشقة وجهد العالم « تانج » من « سيتشوين » ليعلمك الشُّعْر .. هذا التعليم الأجنبى ليس ضرورياً لواحد فى مركزك .. إن الذهاب إلى تلك المدن البعيدة يُعَرِّضُ حياتك للخطر ، وهى ليست ملكاً خالصاً لك إلى أن تعطينا ابناً يحمل اسم أسلافك فهلاً تزوجت أولاً ؟

حرك أخى — غاضباً — مروحته التى كان يمسك بها مفتوحة فى يده اليسرى وأغلقها ، ثم أعاد فتحها بحركة سريعة خاطفة ، ورفع عينيه ، وقفز الاعتراض من تحت جفنيه رفعت أُمى يدها .

— لا تتكلم يا بنى ، إننى لا أمرك ، بل أُحذِّرك فقط . إنَّ حياتك ليست لك فاحرص عليها .

وأحنت رأسها ، فانصرف خارجاً .

لم أعد أراه بعد ذلك إلا نادراً . وقد عاد إلى البيت مرتين قبل زواجى ، ولم يكن لدينا ما نقوله لبعضنا البعض ، كما لم يحدث قط أن التقينا وحدنا معاً . وكان لايجئ إلى مساكن النساء إلَّا لتقديم التحية التقليدية لوالدته أو ليوذعها ، ولم أكن أستطيع أن أتحدث معه بحرية فى حضور من يكبروننى سنًا .

رأيت فقط أنه ازداد طولاً ، واستقامت قامته ، وأن وجهه فقد بعض
نضارة الشباب ، كما فقد أيضاً رشاقة جسمه في طفولته وما كان يتميز
به من تناسق جميل مع خفضه لرأسه ، حتى أنه في سنواته المبكرة كان
أشبه ببنت وسيمة . وقد سمعته يُخبر أمى أنه في المدرسة الأجنبية كان
عليه أن يمارس الرياضة البدنية يومياً ، وهذا أكسب جسمه طولاً
وامتلاءً وقوة . وقص شعره وفقاً للنمط الجديد الذى ساد في زمن الثورة
الأولى ، وكان شعره ناعماً وأسودَ فوق رأسه المرفوع لقد رأيت أنه كان
مليحاً ، والنساء في الأفنية كُنَّ يتنهeden وراءه وهو يمضى أمامهن ،
وتمتت السيدة الثانية البدنية :

— آه . إنه يشبه أباه حين أحبيناه للمرة الأولى .

ثم سافر أخى عبر البحار ، ولم أره مرة أخرى . وأصبحت صورته
باهتة في ذهني حتى صارت معتمة غامضة من جراء كل الغرائب المحيطة
به ، حتى أنني لم أعد أراه بوضوح .

كنت جالسة في حجرتي منتظرة عودة زوجي ، وأنا ممسكة بالرسالة
التي بعثت بها أمى إلى ، فأدركت أن أخى كان رجلاً غريباً لم أفهمه .

حين عاد زوجي إلى البيت ظهراً هرولتُ إليه باكية ، والرسالة في يدي
المدوتين ، فتلقاني بدهشة قاتلاً .

— لكن ما هذه ؟ لكن ما هذه ؟

فصحت قائلة :

— اقرأ هذه .. اقرأ وانظر !

وارتفع صوتى بالنشيج والبكاء من جديد ، وتطلعت إلى وجهه لأرى ما يرتسم عليه وهو يقرأ .

تمتم وهو يعصر الرسالة ويجعلها في يده :

— غبى .. ولد أحمق .. أحمق ! كيف يفعل ذلك ؟ نعم .. اذهبى فوراً إلى أمك المبجلة . يجب أن تواسيها وتريحها .

طلب من الخادمة أن تخبر الرجل الذى يجر عربة الريكشا بالإسراع فى تناول طعامه حتى لا أضيع الوقت . وحين أصبح الرجل على أهبة الاستعداد ، اصطحبت ابنى فقط والخادمة الملازمة له ، وتوسلت إلى الرجل أن يجرى بسرعة .

وعندما دخلتُ من بوابة بيت أمى أدركتُ على الفور الصمت الذى يجثم ثقیلاً مرهقاً على كل الأشياء ، كما تطبق سحابة معتمة على القمر .. العبيد يروحون ويجيئون لأداء أعمالهم وهم يديرون عيونهم ويهمسون . أمّا « وانج دا ما » التى اصطحبتها معى فقد بكت ونحن نخرق الشوارع حتى انتفخت جفونها من كثرة ما ذرفته من دموع .

وفى فناء الصفصاف المتدلى كانت السيدتان الثانية والثالثة تجلسان مع أطفالهما . دخلتُ مع ابنى ، وما كادا يرحبان بمقدمى حتى انهالتا على تسألاننى فى شوق ولهف . وصاحت السيدة الثانية البدنية :

- آه ، يا للطفل الجميل !

ثم وضعت أصابعها السمينية على وجنة ابني ، وراحت تشم يده الصغيرة وتربت عليها بلطف قائلة

- أنت حُلوة صغيرة ! هل سمعت ؟

ثم استدارات نحوى فى رزانة .

أومات برأسى محيية . وسألت :

- أين أمى ؟

فأجابت .

- إن السيدة الأولى المبجلة قد لازمت حجرتها منذ ثلاثة أيام .. إنها لا تكلم أحداً ، وهى تجلس فى حجرتها ولا تبارحها إلى الحجرة الخارجية إلا مرتين فى اليوم لتأمر بتدبير شئون المنزل ، ولتخرج الأرز والطعام ، ثم تعود ثانية إلى حجرتها . إنَّ شفتيها مطبقتان كشفتى تمثالٍ من حجر ، وعينيها تحملنا على الانصراف عنها ، ونحن لا نجرؤ على التحدث معها ..
إننا لا نعرف أفكارها .

تملقتنى بانحناءاتها وابتساماتها وهمست :

- هل ستخبريننا بما تقوله لك ؟

ولكننى هززت رأسى رافضة فضولها .

فأضافت قائلة .

– لا أَقَلَّ من أن تتركى لنا الصغير العزيز لنلاعبه

ومدت ذراعيها تجاه ابنى ، ولكننى منعتهما من حَمْلِهِ وقلت .

– سأأخذه إلى أُمى سيبهجها مَرَّآه ، ويزيح عنها حزنها .

وحين عبرت من قاعة الضيوف إلى فناء أزهار الفاونيا ، ثم إلى
الحجرة التى تقضى فيها النسوة وقت الفراغ ، وقفت أمام الجناح الذى
تقطن فيه أُمى ، ومن المعتاد أن تكون الستارة الساتانية الحمراء مدلاة
على هذا المدخل ، أمَّا الآن فقد وجدتُ الباب موصداً خلف الستارة ، عندئذ
طرقتُه بخفة براحة يدي لم يكن ثمة مجيب . قرعت ثانية ثم صحت .

– هأنذى يا أماه ! أنا طفلتك الصغيرة !

حينئذ سمعت صوتها كما لو كان آتياً من بعيد

– تَعَالَى إِلَيَّ يَا بُنْتَى !

دخلتُ . رأيتها تجلس بجانب المنضدة السوداء المنقوشة كان البخور
يحترق بلا لهب فى الجرة البرونزية ، ويتصاعد أمام الكتابة المقدسة على
الحائط . كانت تجلس محنية الرأس ، وقد حملت كتاباً بين أصابع إحدى
يديها المدلاة بجانبها . ولما رأتنى أدخل قالت .

– هل جئت ؟ كنت أحاول أن أقرأ « كتاب التغيرات » ولكننى لم أجد

اليوم شيئاً فى صفحاته يريحنى

وهزت رأسها بشيء من الغموض حين كانت تتحدث ، وسقط الكتاب
على الأرض ، فتركته مكانه هناك

انزعجتُ إزاء هذه الحيرة في التصرف ، فقد كانت أُمي دائماً متمالكة
النفس ، واثقة رابطة الجأش ، والآن رأيت أنها بقيت طويلاً وحدها ،
فَأَنْبَتُ نفسي لأنني شُغِلْتُ عنها بحب ابني حباً خلب لُبِّي ، ووجدتُ في
حُبِّ أبيه وحنانه ورقته تجاهي ما أراحني بعمق ، وجعلني رحية البال
وقتاً طال مداه . لقد انقضت أيام عديدة منذ أن أتيتُ لزبارتها ، فكيف
أستطيع أن أرفع معنوياتها وأحوّل أفكارها وألهيها عما هي فيه ؟ أخذتُ
ابني وأوقفته على ساقيه السمينتين ، وثنيْتُ يديه الصغيرتين وجعلته
ينحني أمامها ، وهمست له .

– السيدة المبجلة الكبيرة . قُلْهَا أيها الطفل !

فقال متلعثماً وهو ينظر إليها بدون أن يبتسم

– السيدة الكبيرة !

لقد أخبرتك أنها لم تره منذ شهره الثالث ، وأن تعرفين يا أختاه كم هو
جميل ، بكل ما في الكلمة من معنى ! من ذا الذي يستطيع مقاومته ؟
تركزت عيناها عليه ، وتريثت متطلعة إليه ، توجهت إلى خزانة مطلية
بالذهب وتناولت منها صندوقاً أحمرَ بورنيش اللّك ، فتحتة ، فكان
بداخله كعكات صغيرة يغطيها بذور السمسم ، أعطتها إياه ماثلة يديه ،
فلما رأى تلك الحلوى ضحك عالياً ، في حين افترّ ثغرها عن ابتسامات
باهتة وقالت :

— كُلُّ يَا قَرْنَ اللُّوتَسِ الصَّغِيرِ ' كُلُّ أَيُّهَا الْبَدِينِ الصَّغِيرِ ' .

ولما رأيتُ أنها تلهت في تلك اللحظة وسُرَّت ، التَّقَطْتُ الْكِتَابَ ، وصَبَبْتُ
النَّشَاءَ فِي « السُّلْطَانِيَّةِ » مِنَ الْقِدْرِ الْمَوْضُوعِ عَلَى الْمَنْضَدَةِ ، قَدَمْتَهُ إِلَيْهَا
بِكُلْتَا يَدَيَّ .

طَلَبْتُ مِنِّي أَنْ أَجْلِسَ ، ثُمَّ أَخَذَ الْوَلَدُ يَلْعَبُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَنَحْنُ نَرْقُبُهُ .
انْتَبَهْتُ أَنْ تَتَكَلَّمَ ، وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ مَا إِذَا كَانَتْ تَرْغَبُ فِي أَنْ تَتَرَقَّى
مَوْضُوعَ أَخِي أُمِّ لَا ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَقْتَرِبْ مِنْهُ .

وَقَالَتْ أَوَّلًا .

— هَا طِفْلُكَ هُنَا يَا بَنِيَّتِي .

حِينَئِذٍ تَذَكَّرْتُ اللَّيْلَةَ الَّتِي أَخْبَرْتَهَا فِيهَا بِأَحْزَانِي وَالْآنَ أَطْلُ عَلَيْنَا
مَصْبَاحَ النَّهَارِ بِبَهْجَتِهِ ، فَقُلْتُ لَهَا وَأَنَا أَبْتَسِمُ .

— نَعَمْ يَا أُمَاهُ .

فَسَأَلْتُ وَعَيْنَاهَا مَا زَالَتَا عَلَى الْوَلَدِ .

— هَلْ أَنْتِ سَعِيدَةٌ ؟

أَجَبْتُهَا .

— إِنْ سَيِّدِي أَمِيرُ بَحْنَانِهِ وَرَقَّتْهُ وَلَطْفُهُ مَعِي ، أَنَا زَوْجَتُهُ الْمَتَوَاضِعَةُ .

قَالَتْ وَهِيَ مُسْتَغْرِقَةٌ فِي التَّفَكِيرِ وَعَيْنَاهَا عَلَى الْوَلَدِ :

— لَقَدْ حَمَلْتُ وَأَنْجَبْتُ طِفْلًا يُعَدُّ نَمُودَجًا لِلْكَمَالِ .

ثم أردفت :

- وإنى لاحظت أنه بلغ أعلى درجات الكمال ، ولم يعد يعوزه أى جمال
نرجوه له . آه !!

ثم تنهدت وقالت بتأثر وقلق .

- كان أخوكِ مثل هذا الطفل ! وإنى أود لو أنه مات فى ذلك الوقت ،
حتى أظل أتذكره جميلاً وباراً بوالديه !

عندئذ فهمت أنها ترغب فى التحدث عن أخى ، ولكننى انتظرت حتى
أدرك اتجاه أفكارها بوضوح أكثر . وبعد لحظة عاودت الحديث رافعة
عينيهما نحوى .

- تسلمت رسالتى ؟

أجبتها وأنا أنحنى :

- رسالة أمى وصلتنى هذا الصباح بيد الخادمة .

تنهدت مرة أخرى ، ونهضت وتوجهت إلى درج المكتب وأخرجت منه
رسالة أخرى .. وقفت أنتظر عودتها .. وعندما ناولتنى الرسالة تسلمتها
بكلتا يديّ .

قالت :

- أقرئها .

كانت من صديق لأخى يدعى « تشو » سافر معه شقيقى من « بكين »

إلى أمريكا ، وقد كتبها بناءً على رجاء أخى ، وفيها يقول : إن «تشو كوو تينج» يكتب إلى السادة الأجلاء المسنين ليخبرهم بأن ابنهم خَطَبَ لنفسه - وفقاً للعادات الغربية - ابنه أحد مُدَرِّسِيهِ في الجامعة . وهو ابنهم يبعث لوالديه بما يكره لهما من احترام بنوى ، ويرجوها أن يفسخا خطبته القديمة لابنة «لى» التى طالما أتعسته وأشقته ، حتى حين يفكر فيها . إنه يعترف بفضل والديه السامى وعطفهم اللانهائى حياله ، ابنهما الذى لا يستحق كل هذا ، ومع ذلك فإنه يود أن يقول بوضوح . إنه لا يمكنه أن يتزوج الفتاة التى خُطبت له وفقاً للعادات الصينية ، لأن الزمن قد تغير ، وأنه رجل عصرى قرر أن يختار طريقة للزواج العصرى الحر المستقل .

وانتهت الرسالة بكثير من الكلمات التقليدية التى تعبر عن الحب والاحترام والطاعة بيد أن ما اعتزمه أخى فى قلبه كان واضحاً جلياً . وقد سأل صديقه أن يكتب له لأنه يود فقط أن يجنب والديه ونفسه جرح التحدى السافر . لقد احترق قلبى ضده عندما قرأت الرسالة . وعقب انتهائى منها طويتها وناولتها لأمى ثانية بدون أن أتفوه بكلمة . فقالت - لقد انتابه الجنون ، وإنى بعثت إليه برسالة شديدة اللهجة أمره بالعودة فوراً

هنا عرفتُ عظم تأثيرها وتهيجها ، فأمى بكل كيانها من الصين القديمة .. وعندما نُصبت فى شوارع مدينتنا القديمة الجميلة أعمدة طويلة تحمل أسلاكاً - كما تحمل أغصان شجرة أنسجة العناكب - صاحت ضد ذلك التدنيس وقالت فى سخط .

- إن قدماءنا استعملوا الفرشاة والحبر ، فماذا لدينا - نحن أحفادهم
التافهين - لنقوله أكثر أهمية من كلماتهم الجلية حتى نحتاج لمثل هذه
السرعة ؟

وحين سمعتُ أن الكلمات يمكن أن تسافر حتى تحت البحر نفسه
قالت.

- وماذا هناك ما نرغب في توصيله إلى هؤلاء الهمج ؟ ألم تقم الآلهة
الحكيمة بصبّ البحر بيننا وبينهم لتفصلنا عنهم ؟ ليس من التقوى أن
نصل ما فصلته الآلهة وعزلتنا عنه بمعرفتها .

ولكنها الآن أصبحت في حاجة إلى مثل هذه السرعة !
وقالت بحزن :

- لقد اعتقدتُ أنني لن استعمل أبدًا تلك المخترعات الأجنبية ، كما
ظننت أن ابني يجب أن يبقى في بلده ، ولكن حين يتعامل المرء مع
الهمجيين، يكون مضطراً لأن يشد الشيطان نفسه إلى طاحونته !
عندئذ تحدثت لأخفف عنها .

- أماه ، لا تبتئسى كثيراً . إن أخى مطيع ، وسيستمع لكِ وكيف عن
الركض وراء امرأة أجنبية .

ولكنها هزت رأسها وأحنت جبهتها وأسندتها بيديها . انتابني قلق
مفاجيء لَدَى رؤيتي لها في مثل تلك الحالة .. كانت في الواقع تبدو
مریضة! لم تكن قط بدينة ، ولكنها الآن بدت مهزولة ، ويدها التي تسند

رأسها كانت ترتجف انحنيتُ إلى الأمام لأرقبها بمزيد من الاهتمام حين شرعتُ تتحدث ببطء ، فوصلنى صوتها خافتاً فى إرهاق شديد .

— لقد تعلمتُ منذ وقت طويل أنه إذا زحفت امرأة إلى قلب رجل ، تتركز عيناه بإحكام عليها ، حتى أنه يعمى عن رؤية أى شىء آخر عداها .

توقفتُ لوقتٍ قصير لتستريح ثم استأنفت الحديث ، فكانت كلماتها أشبه بالتهديدات

— والدك . ألا يُعدُّ رجلاً شريعاً جديراً بالاحترام ؟ نعم لقد استسلمتُ منذ وقت بعيد وكَيِّفْتُ نفسى وفق هذا الشىء بدون تذمر . فهو حين يستولى عليه جمال امرأة وتستأثر برغباته ، فإنه يَجُنُّ لفترة من الوقت ، ويزايله فهم أى شىء معتدل يتسم بصواب الفكر . لقد عرَفْتُ عشرين فتاة من المغنيات ، إلى جانب هذه الأفواه الكسولة التافهة التى بجىء بها إلى البيت كمحظيات . ولدينا منهن ثلاثٌ . أما سبب عدم إحضاره أخرى فيعود إلى أنَّ اشتهاه لفتاة « بكين » ضعف وانقطع قبل أن تنتهى المفاوضات ، فكيف يكون الابن أكثر حكمة من أبيه ؟

نهضت فجأة وقالت .

— الرجال !

ولَفَّتْ شفيتها حتى بدا فمها شيئاً حياً يجسد الهزء والسخرية والازدراء

- إِنَّ أَفْكَارَهُمْ فِي بَاطِنِهِمْ تَتَحَوَّى (١) وَتَتَجَمَّعُ وَتَسْتَدِيرُ كَالْحَيَاتِ حَوْلَ
الجسد الحى لامرأة ما ' .

جلستُ مرتعبةً من كلماتها ، إذ لم يسبق لها قط أن تحدثت من قبل
عن أبى والمحظيات . لقد تغلغلّت على حين غرة إلى تجاويف قلبها
الداخلية .. كانت المرارة وما لقيته من معاناة ومقاساة أوعية من النيران
تتأجج بداخلها . لم أجد كلمات أخفف بها عنها . أنا المرأة التى يحبها
زوجها ، حاولت أن أتصوره يتخذ له زوجة ثانية فلم أقوَ على ذلك ،
واستطعت فقط أن أتذكر ساعات حبنا ، تطلعت عيناي لا إرادياً إلى ابننا
الذى ما زال يلهو بكعكات السمسم الصغيرة . ماذا عسائى أقول لأمى
حتى أُسَرِّى عنها ؟

انقضت فترة طويلة قبل أن أبدأ الحديث فى خوف .

- لعل تلك المرأة الأجنبية ..

غير أن أمى ضربت الأرض بغليونها الطويل ، وكانت قد تناولته لتوها
من فوق المنضدة ، وبدأت تحسوه على عجل بأصابع مرتعشة نافذة
الصبر ، فقاطعتنى وقالت بحدة

- دعينا ، لا نتحدث فى ذلك الأمر

وأردفت .

- لقد تكلمتُ ، وعلى ابنى الآن أن يُطيع ، سعود ويتزوج ابنة «لى»

(١) تتحرى تلوّى وتلمع

خطيبته ، ومنها يجب أن تأتي بِذُرَّتَهُ الأولى ، وبهذا يتحقق واجبه إزاء أسلافه القدماء ، وبعدها يستطيع أن يتخذ زوجةً صغيرةً له مِمَّنْ يشاء .
أسألتنظر أن يكون الابن أفضل من الأب ..٩ لا عليك الآن إلا أن تصمتي وتركيني ، إنني متعبة مكدودة ، يجب أن أستريح هنيهة في فراشي .

لم أستطع أن أضيف شيئاً . لقد رأيت فعلاً أن وجهها كان شاحباً ممتقناً ، وأن جسمها تهدل كقصبة من البوص ذابلة . ولذا حملت ابني وانسحبت من حضرتها .

عندما عدتُ إلى بيتي أخبرْتُ زوجي - والدموع تنحدر من عيني -
أنني لم أتمكن من تخفيف أحزان أمي ، فواساني بوضع يده فوق يدي ،
وطلب مني أن أنتظر صابرة مجيء أخي . وحين تحدث معي بهذه الرقة
والدمائة انتعش الأمل في صدري تجاه المستقبل ، ولكنه حين توجه إلى
عمله في صباح اليوم التالي سقطتُ فريسة للشك مرة أخرى .. لم أستطع
أن أنسى أمي !

فمن خلال أحزان حياتها طيلة تلك السنوات داعبها ذلك الأمل العظيم
في المستقبل .. أمل النساء الصالحات جميعاً ، حينما كانت تفكر في أن
ينجب ابنها ابناً يكون سنداً لها في سنّها المتقدم ، وتُحقق به واجبها نحو
الأسرة ، فكيف تأتي لأخي أن يضع رغبته الطائشة في مسيرة حياة أمي ؟

سَأُوبِّخُ أَخِي .. سأُخبره بكل ما قالت أمي .. سأُذَكِّرُه بأنه ابنها الوحيد ،
وسأقول له بعدئذ .

كيف يمكنك أن تضع على رُكْبَتَي والدتنا طفل امرأة أجنبية ؟



لم نسمع جديداً بعد يا أختاه ! إننى أبعث البستانى يومياً
إلى بيت أمى ليسأل عن صحتها ، وليعرف ما إذا كانت
هناك رسالة جاءت من أخى .. وعلى مدى خمسة عشر يوماً

6

كان يجيبنا كل يوم

- إن السيدة الكبيرة المبجلة تقول إنها ليست مريضة ، ولكنها فى
عيون خادوماتها كانت تضعف وتهزل تدريجياً ، لقد عذفت عن الطعام .
أماً بشأن السيد الصغير فلم يبعث بأى رسالة منه ، وربما لهذا السبب
تدهورت صحتها ، ففى سنها لا يمكن تحمّل القلق بسهولة .

أوه ، لماذا لم يبعث أخى بكلمة ؟ لقد أعددتُ طعاماً شهياً لأمى ،
ووضعتُ فى أوعية جميلة من الخزف الصينى ، وبعثتُ الخادومات به
وقلت .

- كلى يا أمى من هذا اللحم المتواضع . إنه لا طعم له ، ولكن لأنه من
إعداد يدى فتلطّفى لتتناولى قليلاً منه .

وقد أخبرونى أنها بدأت تأكل ، ثم وضعت العودين (اللذين يتناول بهما الصينيون طعامهم) جانباً . لم تستطع أن تحرر قلبها من قلقه . هل يُترك أخى ليقتل أمى ؟ يجب أن يعرف أنها لا يمكنها أن تحتمل أساليب الغرب غير اللائقة التى تبيح عقوق الابن . من الخزى والمخجل أنه لا يتذكر واجبه !

قضيتُ عدة ساعات أتأمل وأتعجب .. لا يمكننى أن أقرر ماذا سيفعله أخى .. وفى أول الأمر لم يساورنى الشك فى طاعته لأمنا فى النهاية . أو ليس جسده وجلده وشعره تنحدر منها ؟ أيمكنه إذن أن يلوث هذه القداسة مع فتاة أجنبية ؟

زِدْ على ذلك أن أخى قد تعلّم فى أوائل شبابه حكمة « السيد العظيم » التى تقول : « إن أول واجب للرجل أن يحرص باهتمام على كل رغبة لوالديه » . وعندما يعود أبى ويسمع بما انتواه أخى فمن المؤكد أنه سيرفضه أيضاً . وبهذا كنت أقنع نفسى كى تركز إلى الهدوء .

وهكذا كنت ألجأ إلى إعمال فكرى فى أول الأمر ، أمّا اليوم فأنا أشبه بجدول غير مستقر بغير اتجاه مياهه فوق الرمال فيدفع بها تحتها .

إنه زوجى يا أختاه هو الذى جعلنى أشك فى حكمة الأساليب القديمة ، فمن حنايا حبه قادنى إلى الارتياح فى الليلة الماضية قال أشياء غريبة . سأخبرك بها ، لقد كانت على النحو التالى :

جلسنا في الشرفة الصغيرة التي أقامها من القرميد في الناحية الجنوبية من البيت . كان ابننا نائماً في فراشه الخيزراني بالطابق العلوى ، أمّا الخدم فقد انصرفوا إلى شئونهم الخاصة ، وجلست أنا على مقعد الحديقة المصنوع من الخزف الصيني على بُعدٍ قليل من سيدي ، كما تقضى بذلك اللياقة ، واستلقى هو على مقعد طويل من الخيزران .

ورحنا نرقب القمر في كامل وجهه وهو يبدو عالياً في السماوات وهبت رياح الليل ، وعبر السماء كان هناك موكب من السُّحب البيضاء تدور بسرعة الطيور الثلجية الضخمة فتُخفى وجه القمر تارة ، وتكشف سحره بجلاء تارة أخرى . وكانت السُّحب مسرعة ، حتى بدا القمر نفسه كأنه يدور فوق الأشجار . وتشبَّثتُ رائحةُ المطر بهواء الليل أبهجنى هذا الجمال والسلام ، وأحسستُ بهما ينبعان من داخلي . شعرت على نحو مفاجيء بالرضا العظيم بحياتي رفعتُ عينيّ ، فرأيت زوجي يتفرَّس في وجهي ، فانبعثتُ في داخلي متعة رائعة في خفر وحياء .

وأخيراً قال بصوت يعبر عن رضائه

— يا له من قمرٍ هلاً عزفتِ على قيثارتك القديمة يا « كواي لان » ؟

فأثرته بتأنيب ساخر حين قلت

— إن الهارب له ست حالات بغیضة ممقوتة ، وسبعاً محرمة طبقاً لأسلافنا القدماء الذين وضعها .

تم استطردت :

– إن صوتها لا ينطلق في حالة الحزن ، وفي وجود آلات البهجة في أعياد القصف واللّهو ، وإذا كان العازف شقيّاً وتعيّساً ، وحين يكون شخصه مدنساً سييء السمعة ، وعندما تكون أعود البخور غير حديثة الاشتعال ، أو في حضور مستمع غير متعاطف . فإذا لم تنبعث الألحان منها في هذه الليلة يا سيدي ، فأى هذه الحالات الممقوتة تكون السبب ؟

اتخذ سيماء الوقار ثم قال

– كَلَّا يا قلبي ، إننى أعرف أنها في يوم من الأيام لم تكن لتبعث بصوتها لأننى كنت تلك الحالة الممقوتة . مستمعاً غير متعاطف ، أمّا الآن فدَعِى أَنَا مَلِكُ تعزفُ الحانَ الحب القديمة ، وأغاني الشعراء .

عندئذ نهضت وأحضرتُ قيثارتى ، ووضعتها على الطاولة الحجرية الصغيرة التى بجانبه ، ووقفت ، ولَامَسْتُ أصابعى أوتارها في حين كنت أتأمل فيما أغنيه له . وأخيراً غنيتُ هذه

باردة رياحُ الخريفِ ،

صافٍ قمرُ الخريف .

الأوراق الذابلة تسقطُ وتتناثر ثانية،

وغراب مُتَيِّمٌ بالصقيع ينطلق من الشجرة

أين أنتِ يا حبيبى ؟

هل سأراك مرة أخرى ؟

آه ، قلبى يبكى هذه الليلة ..

إننى وحيد !

ثم سمع صدى تلك العبارة « . وحيد .. وحيد . وحيد .. » تتكرر مرارًا من الأوتار بعد أن كَفَّتْ أناملى عن مداعبتها ، حملت الرياح الصدى، وامتلاّت الحديقة فجأة بالصوت الحزين الذى اهتز فى أعماقى على نحو غريب ، وأعاد إلى حزنى الذى ظل قابلاً منسياً على مدى ساعة .. إنه حزن أمى . وضعتُ أصابعى على الأوتار برفق لأوقف أنينها ، وقلت

- إننى يا سيدى واحدة من الحالات المقنونة ، فإننى حزينة ، أنا العازفة، والقيثارة تنوح معى طوعًا .

نهض وأقبل نحوى وأمسك بيدى وقال .

- حزينة ؟

قلت بضعف :

- من أجل أمى !

وتجاسرتُ وأرحتُ رأسى لحظة فوق ذراعه ، وقلت .

- إنها حزينة ، وحزنها يحدثنى من خلال القيثارة ، إنه بسبب أخى ..
إننى أشعر بقلقها فى هذه الليلة .. كل شىء قلق ينتظر مجيئه . ليس لديها الآن غيره . لقد انقطعت الصلة بين أبى وبينها منذ أمد بعيد ، وأنا الآن أنتمى إلى أسرة أخرى .. أُسْرَتِكَ .

لم يقل زوجى شيئاً فى بادئ الأمر . تناول تبغاً أجنبياً من جيبه
وأشعله . وأخيراً تكلم بصوت هادىء

- يجب أن تعدى نفسك ، فمن الأفضل مواجهة الحقيقة . من
المحتمل أنه لن يطيع أمك
أفزعنى ذلك وسألت
- لماذا تعتقد ذلك ؟

سأل بدوره وهو ينفث من فمه دخان التبغ متقطعاً .

- لماذا تعتقدين أنه سيطيع ؟

استدرت نحوه قائلة .

- كلا ، لا تجيبنى بأسئلة توجهها لى ، إننى لا أعرف . أنا لست ذكية ،
ولا أجد الإقناع بالحجة والمنطق ! وإذا كان لى سبب حقيقى فلأن أختى
قد تعلم طاعة الوالدين كأساس من أسس الدولة ، وكواجب من واجبات
الابن .

فقاطعتنى ورمقنى بنظرة ذات معنى .

- إن الأسس القديمة قد تحطمت ، ويجب أن تكون هناك أسباب أقوى
من هذه فى أيامنا !

ملأنى الشك فى أثناء حديثه ، تم تذكرت سلوى سرية تريحنى ، هى
شئ لم أحدث عنه علانية ، كان هذا هو أفكارى الداخلية ، وهمست
قائلة

– ولكن النساء الأجنبيات قبيحات ، فكيف يتزوج رجل من جنسنا
منهن ؟ لا سبيل لرجالهن سوى الالتجاء لهن ، ولكن ...

لذتُ بالصمت ، فقد خجلتُ أن أتحدث عن الرجال هكذا أمام زوجي .
ومع ذلك فكيف يرغب الرجل في أمثال تلك النسوة التى رأيناها قبل مولد
ابنى ؟ مثل تلك العيون الفاتحة المسطحة ، والشعر الباهت ، والأيدى
والأقدام الخشنة ؟ إننى عرفتُ أخى ! أليس هو ابن والدى ، أو لم يكن
أبى مولعًا بالجمال في النساء فوق كل شىء في العالم ؟

ضحك زوجى ضحكة قصيرة وقال

– ها ! ليست كل النسوة الصينيات جميلات ، وليست كل الأجنبيات
قبيحات ! لقد سمعتُ أن ابنة « لى » التى خُطبت لأخيك ليست جميلة ..
يقولون في مشارب الشاى إن شفتيها عريضتان إلى مدى بعيد ، وإنهما
مُنحيتان إلى أسفل كمنجل الأرض .

صِحتُ في سخط :

– ما لكسالى مشارب الشاى والتحدث عن مثل ذلك الشىء ؟ إنها فتاة
محترمة ، وأسرتها من النبلاء !

هز زوجى كتفيه وقال .

– لقد أشرتُ فقط إلى ما أسمع ، وإلى ما لاشك قد سمعه أخوك ، وقد
يكون مثل هذا الحديث قد يسَّرَ له أن يتعلق قلبه التائه بامرأة أخرى .

خيم علينا الصمت لحظة ، ثم أكمل حديثه وهو يدخن مفكرًا :

- وهاته النسوة الأجنبية ! بعضهن يشبهن النجم الأبيض في جمالهن ! عيون صافية ، وأجساد متحررة .

استدرتُ ونظرتُ لزوجي بعينين مفتوحتين إلى أقصى مدى ، ولكنه لم يَرِنِي وتابع حديثه :

- وأذرعهن تلك العارية الجميلة .. ويمكنني أن أقول لك إنهن متحررات كتححر الشمس والرياح ، وبضحكهن ورقصهن يسلبن لُبَّ الرجل ، ويجعلن قلبه ينساب بين أناملهن كضوء الشمس ، حتى ينطرح فوق الأرض .

توقف أنفاسي لحظة .. عَمَّنْ تحدث زوجي إذن ؟ أية أجنبية علمته ذلك ؟ شعرت بغضب مريع يغلي في داخلي ، فقلت متلعثمة .

- أنت .. هل كان لديك ...

هز رأسه ، وضحك مني قليلاً وقال

- أية امرأة أنت ! كلا ، لم يحدث قط أن سلبت واحدة قلبي هكذا . لقد حفظته بطريقة مَّا حتى

وتغيرت نغمة صوته وهبطت إلى مستوى رقيق من الحب والحنان أدركها قلبي فاطمأنَّ ، وشعرت براحة البال

ثم همست .

- ولكن هل كان الأمرُ صعباً ؟

- نعم في بعض الأحيان ، فنحن - الرجال الصينيين - أبقينا على عادة الانفصال ، فنساؤنا متحفظات ، متظاهرات بالاحتشام ، لا يفصحن عن شيء ، وبالنسبة لشابٍ - وأخوك شاب - تبدو الأخريات ، أعنى النساء الأجنيات ببشراتهم الجميلة الناصعة البياض ، وأجسادهن الفاتنة ، يقدمن أنفسهن في الرقص

فقاطعته بوقار .

- صه يا سيدى .. هذا حديث رجال .. لن أستمع إليه .. هل حقيقة أن هؤلاء الناس يعوزهم التهذيب ، وغير متحضرين ، ومتوحشون كما صدر من بين شفتيك وطَرَقَ مسامعى ؟

أجاب بتمهل .

- كلاً ، إن بعض السبب يعود إلى أن بلدهم فتية ، والشباب فيها يستمتعون بشكل بسيط صريح ، ولكننى تحدثت عن ذلك لأن أخاك شاب أيضاً ، وحتى إذا كُنْتَ لا تؤدِّين سماع ذلك ، فإن الشيء الذى لا يُنسى هو أن شفتى خطيبته عريضتان ومقوستان كمنجل الأرض .

ابتسم ثانية ، وارتمى على مقعده وراح يحرق في القمر ..

زوجى حكيم ولا يمكننى أن أطرح كلماته جانباً بسهولة ، ومما قاله بدأت أدرك أن هناك بعضاً من السحر يحوم حول اللحم العارى لتلك

النسوة الأجنبيات ، وحين تكلم أزعجنى ما سمعته ، مِمَّا حَدَا بى أن أتذكر
عينى أبى المتألقين وضحكته ومحظيته الأثيرة لديه . ارتجفت ، ومع ذلك
لم أستطع أن أنتزع أفكارى .

لقد تأملتُ وفكرت ملياً .. صحيح أن أخى رجل ، هذا بالإضافة إلى أن
صَمْتَهُ المتواصل علامة سيئة . كانت هذه طريقته منذ طفولته ، إذ كان
يلتزم بالصمت ، ويصرُّ على تنفيذ ما عقد عليه عزمه ، فحين كان طفلاً
صغيراً إذا حدثَ ومنعتُ أمى عنه شيئاً ، فإنه كان يلوذ بالصمت فجأة ،
ويتشبث بذلك الشئ بشدة ، كما قالت « وانج دا ما »

وأخيراً وضعتُ القيثارة فى علبتها المصقولة المطلية بورنيش اللك وأنا
أتنهّد .. سَلَّمَ القمر نفسه للسحاب تماماً ، وبدأ رذاذ المطر يتساقط .. لقد
تغير مزاج الليل ، فتوجهنا إلى البيت ، ونمتُ ليلة سيئة .

* * *

طلع الفجر فى هذا اليوم تحت سماء رمادية ساكنة ، والهواء مثقل
بحرارة حديثة ، ومشبع بالرطوبة . كان الطفل قَلِقًا مضطرباً على الرغم
من أننى لم أجد فيه مرضاً .

عادت الخادمة اليوم من بيت أمى بعد أن سألت عن صحتها ،
وأخبرتني أن أبى قد جاء .. يبدو أن « وانج دا ما » قد تجرأت وبعثت إليه
برسالة ، بواسطة كاتب الرسائل المحترف الذى يجلس عند باب المعبد ،
تتوسل إليه بتذلل أن يجىء لأن صحة أمى وضعفها لم يطرأ عليهما

تحسن . فهي تلازم حجرتها يوماً بعد يوم ، وغير قادرة على تناول الطعام . تسلم أبى الرسالة فحضر إلى البيت ليقضى فيه يومين .
عندئذ عزمْتُ أن أذهب لأراه . ألبستُ ابنى ثوباً أحمر . إنها المرة الأولى التى يراه فيها أبى .

وجدت أبى جالساً على مقربة من البركة في فناء الأسماك الذهبية ، لما كان الجو حاراً ، ونظراً لأنه ازداد بدانة الآن ، فقد جلس بجانب البركة متدثراً فقط بسترته التحتية وسروال من الحرير الصيفى .. كان شاحباً كالماء تحت أشجار الصفصاف . ووقفت السيدة الثانية بجواره تحرك الهواء قبّالته بمروحة اليد . كانت حبات العرق تتدحرج على خديها لعدم تعوّدها على مثل ذلك الإجهاد . وكان أحد أطفاله يجلس على رُكْبَتَيْهِ مرتدياً ثوبَ المهرجانات احتفاءً بعودته .

وعندما دخلتُ إلى الفناء صفق بيديه وصاح

- آها .. آها . ها هى ذى الأم وابنها تجيء !

أنزل ابنه عن ركبته ، وطلب من ابنى أن يقترب وهو يغريه بصوت منخفض مبتسماً له . انحنيتُ بعمق تحية لأبى ، فردّها بإيماءة من رأسه ، وعيناه ما تزالان مُركَّزَتَيْنِ على ابنى ، ثم ثنيتُ ذِرَاعِي طفلى ، وطلبتُ منه أن ينحنى . سرَّ ذلك أبى أيما سرور ، وطفق يكرر بلطف .

- آها .. آها .

ثم رفع ابنى وأجلسه على ركبته ، وراح يتحسس ذراعيه المستديرتين وساقيه ، وضحك لمراى عينيه المتسعيتين فى دهشة .

صاح مبتهجًا :

- يا له من رجل ! دَعِيَ إحدى الجوارى تُحضر له الحلوى ، وثمرَ
البرسيمون المكتسى بالسكر ، وبعضَ الكعك المكسو بالدهن !

لقد انزعجت . ليس لطفلى غير عَشْرَ أسنان ، فكيف يستطيع أن يأكل
ثمر البرسيمون المسكّر ؟

فتوسلت إلى والدى

- أوه يا أبى المبجل ! إِنَّ معدته الصغيرة اعتادت فقط على الطعام
الخفيف . أرجوك ..

لكنَّ أبى لَوَّحَ بيده ليسكتنى وتحدث إلى الطفل ، فاضطرتُّ إلى أن
أمتثل .

- ولكنك رجل ! أمّا تزال أمك تغذيك بشديها ؟ يا بنيتى إن لى أبناءً
أيضًا .. أبناء كثيرون ، أربعة أو خمسة ؟ . لا أستطيع أن أتذكر .. على أية
حال ، إننى أعرف عن الأبناء أكثر مما تعرف أم لواحد فقط ، وحتى أم
لواحد كهذا !

قهقهه عاليًا ثم أكمل قائلاً .

- آه ، لو أن ابنى - أعنى أخاك - أنجبَ طفلًا كهذا من ابنة « لى » لَرَفَعَ
من روى المعنوية !

ولما ذَكَرَ أخى تملكتنى الشجاعة كى أسأل .

- ولكن ماذا إذا تزوج بأجنبية يا أبى ؟ هذا هو الخوف الذى يدمر قلب أمى حتى أخذ جسدها يذوى يوماً بعد يوم .

أجاب باستخفاف .

- يا لك من بَغَاء ! لن يستطيع .. كيف يمكنه أن يتزوج دون موافقتى ؟ هذا غير شرعى .. إِنَّ أُمك اهتزت واهتاجت لذلك الأمر بلا مبرر .. لقد قلت لها فى هذا الصباح

- كُفِّى عن غيظك الأحمق .. دَعِى الفتى يعذب بفتاته الأجنبية ، فهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، ودمه يستحثه ويثيره ويدفعه بقوة ، وهذا لا شىء ، ففى مثل عمره كان لدى ثلاث مغنيات أحببتهن . دعيه يستمتع ، فإذا ما سئمها .. قولى فى شهرين ، أو إذا كانت جميلة حقاً ، ربما فى أربعة أو خمسة أشهر ، ولو أننى لا أتوقع ذلك ، فستهدأ أعصابه وسيحسم أمره ويصبح أكثر استعداداً لزواجه . إنه ليس من المفروض أن يعيش راهباً أربعة أعوام وهو فى بلاد أجنبية .. أليست النساء الأجنبية من الجنس اللطيف ؟

ثم قال .

- ولكنَّ أُمك كانت على الدوام مُبْهَمَةً لا يُسَبَّرُ غورها ، فمنذ البداية الأولى كان يملكها تأثير غريب .. كلا ، إننى لا أتحدث عنها بالسوء . فهى حكيمة ، ولم يُنْفَقْ ذهبى وفضتى من بين يديها بطيش ، وأنا لا أشكو ، ولم يحدث قط أن سَلَقْتَنِي بِالسِّنَةِ جَدًّا كما تفعل بعض النساء لقد

مرت بى أوقات كنت أتمنى فيها لو تفعل ذلك لعلها لا تلتقانى بذلك الصمت الذى حيرنى حتى منذ البداية أوه ، هذا ليس له أهمية الآن . لا أحد يفهم غرابية أطوارهن ونزواتهن وأهوائهن المفاجئة ، وميلهن إلى التغلب فى الرأى بلا أسباب ظاهرة ، ولكنها منذ شبابها كان عندها هذا العيب ، وقار ورزانة أشد مما تقتضيه مسائل الحياة اليومية من سهولة ويسر .. إنها تتمسك بفكر واحد فى واجبٍ تتخيله ، ومن ثَمَّ تصبح الحياةُ نفسها بالنسبة إليها أمرًا مرهقًا شاقًا لا يحتمل .

ثم توقف فجأة عن حديثه ثائرًا مهتاجا فى غضب منكر عنيف لا عهد لى به من قبل ، تناول مروحة اليد من السيدة الثانية وبدأ يحرك الهواء أمام وجهه بحدّة ، لقد وضع ابنى على الأرض وبدأ أنه نسيه . واستأنف حديثه فى غضب .

- وهى الآن لديها وَهْمٌ نساى عجيب ينحصر فى أن أول زواج لابننا يجب أن يثمر حفيدًا لنا ، واستحوذت عليها فكرة خرافية ، وهى أن الطفل سيكون عندئذ منحة من السماء . آه من النساء "إنهن عنيدات متصلبات ' وأحسنهن جاهلات انغلقت على أنفسهن بعيدًا عن العالم .

أغلق عينيه وحرّك الهواء تجاهه بمروحة اليد فى صمت بضع لحظات ، وزايله الغضب ، وعادوته نظرته المسالمة المعتادة ، وانفجرت أسارير وجهه وهو يبتسم فى مرح ، فتح عينيه وقَدَّمَ الكعك لابنى فى عجلة قائلًا .
- كُلْ يا صغيرى ' ماذا عساه يهم ؟ لا تزعجى نفسك يَا بُنْتَى . أو

يستطيعُ ابْنُ أن يعصى أباه ويعيش ؟ لا يمكن أن يقلقنى ويثيرنى ذلك .
كنت لا أزال غير مقتنعة ، وبعد فترة صمت كان لىّ مزيد يجب أن
أقوله .

– ولكن ماذا يا أبتاه لَوْ رَفَضَ أن يتزوج خطيبته ؟ لقد سمعت أنه فى
هذا الزمان المتغير...

لم يكن والدى مستعداً لسماع شىء عن ذلك بتاتاً، ولَوْح بيده فى
حركة خفيفة ولم يدعنى أكمل ، وابتسم قائلاً .

– يرفض ؟ لم أسمع من قبل فى أى مكان أنَّ ابناً يمكن أن يعصى أباه
.. هَدِّئى من روعك يا بُنَيَّتِى ، فبعد سنة من الآن سينجب ابناً وفقاً
للقانون من ابنة « لى » سيكون مماثلاً لابنك ، رجلنا الصغير !
وَرَبَّتْ وَجَنَّةَ ابْنِى .

أخبرتُ زوجى بما قاله والدى، فاستمع لى وأجاب مستغرقاً فى
التفكير.

– إن المشكلة فى كل ذلك قد ترجع إلى أن الأجنبية ليست على استعداد
لتقبل مركزاً ثانوياً . ليس من عادات بلادهم أن يرتبط الرجال بزوجات
ثانويات .

لم يكن لىّ ما أقوله فى إجابة فورية ، إذ لم يحدث لى أن فكرت فى

الفتاة الأجنبية ، وفيما تعتقده عن عاداتنا . أَلَمْ تنجح في جَذْب أخى وإغرائه ؟ فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ لقد ذهب فكرى هكذا بعيداً من أجل أخى وواجهه نحو والديه .

سألت .

– هل تعنى أنها تتوقع أن تظل الزوجة الوحيدة طوال حياتها ؟

كنت ساخطة قليلاً ، كيف تتوقع أن تحرم أخى من حقه الشرعى الذى يكفله له قانون بلاده ؟ هل تطلب منه أكثر مما طلبت أمى النبيلة المبجلة من أبى ؟

قلت ذلك لزوجى وأنهيت حديثى كما يلى :

– أعتقد أنه من السهل لو تَزَوَّجَتْ رجلاً من جنسنا أن تعطيه الحرية التى اعتادها . إذ لا يمكنها أن تجلب أساليبها وعاداتها الأجنبية إلى هنا ؟
نظر زوجى نحوى وابتسم ابتسامة بالغة الغرابة .. لم أستطع أن أفهمه . ثم تحدث قائلاً .

– افرضى أننى أبعديتُ رغبتى فى اتخاذ زوجة صغيرة .. محظية ؟

أصبت برعب شديد مفاجئ وأحسست بشيء بارد كما لو كان ثلجاً يسدد ضرباته ويطعننى فى صدرى الأعزل . فقلت هامسة :

– أوه ، كَلَّا يا سيدى !! لن تستطيع أبداً .. ليس الآن ! لقد أعطيتُك ابناً!

قفز واقفاً على قدميه ، وَلَفَّ ذراعه حول كتفى . وتمتم

– كلا ، كلا ، يا قلبى الصغير .. إننى لا أقصد ذلك .. لن أفعله .. وفى الواقع لن أستطيع .

ولكن كلماته الأخرى كانت مفاجئة ، وهى الكلمات التى تخشاها كثير من الزوجات ويتوقعنها ، أمّا أنا أتوقعها منذ أن أحببى . والآن – بدون سابق إنذار – دَفَعَ إلى قلبى كل الآلام المبرحة التى عانتها أمى ومئات الأجيال من النساء اللاتى أحبين أسياذهن وفقدن الحظوة عندهم . انخرطتُ على حين غرة فى بكاء لم أَقْوُ على كبّحه .

وإذا بزوجى يُسرّى عنى مدمماً .. بيد أننى لا أستطيع يا أختاه أن أخبرك بكلماته ، إذ لو قيلتِ ثانية حتى فيما بيننا لأخجلتني . إننى أستحي حين أفكر فيها .. كانت كلمات حب بالغة الروعة . توقف بكائى من نفسه، وشعرت بالراحة .

ساد الصمت بيننا فترة سألنى بعدها :

– ولكن لماذا بكيتِ ؟

نكست رأسى ، وأحسستُ بالدم يتصاعد سريعاً إلى وجنتيّ .

رفع رأسى بين يديه :

– لماذا ؟ لماذا ؟

وواصل السؤال بعزم وإصرار ، وكشأنى دائماً حين أُجيب عن أسئلته، أفلتت الحقيقة من بين شفتى .

- لأن سيدى قد سكن قلبى

ثم تلعثمت .

- وملأه تماماً ، وسوف

ولاذَ صوتى بالصمت طَوَّعًا ، غير أننى وجدتُ الإجابة فى عينيه . تم
قال بصوت خفيض يفيض رقة وحنانًا

- وماذا لو كانت تُحب أخاك هكذا ؟ إن طبيعتها لا تختلف عن طبيعة
سائر النساء لمجرد أنها وُلدت فيما وراء البحار الغربية . أنتن نساء ،
ولكن متشابهات فى أرواحكن ورغباتكن

لم أكن قد فكرتُ فيها هكذا أرى أننى لم أكن أفهم شيئاً بوضوح
إن زوجى هو الذى يعلمنى دائماً

- أوه ، إننى خائفة .. خائفة ! لقد بدأت أفهم قليلاً الآن .

ماذا سنفعل إذا كان هناك مثل ذلك الحب بين الفتاة الأجنبية وأخى ؟



7
 جاء خطاب من أخى .. لقد كَتَبَ رسالة لى ولزوجى يلتمس فيها معاونتنا .. توسَّل إلى أن أتشفع له عند والديه . ثم راح يتحدث عنها الأجنبية - مستعملاً كلمات متألقة يصف بها ملاحظتها ، ويقول إنها تشبه شجرة صنوبر مغطاة بالثلج لفرط جمالها .
 ثم .. آه يا أختاه ! ها هو ذا يقول إنه تزوجها طبقاً لقانون بلادها ، وسيحضرها إلى البيت ، حيث تلقى الآن رسالة والدتنا التى طالبتة فيها بالعودة ، وهو يرجو مِنَّا أن نساعده من أجل حياته نفسها .. فكل واحدٍ منهما يحب الآخر !

إننى حائرة ، فبسبب ما بينى وبين زوجى أبدو مرتبكة تماماً . لم أعد أستطيع الآن أن أستمع لحديث أمى .. إننى لا أتذكر حزنها ، ولا عصيان أخى لها ، ولا شىء غير هذا الذى يحثنى عليه أخى .. وإذا كانت تحبه كما أحب سيدى فكيف أستطيع أن أرفض لهما شيئاً ؟

سأذهب إلى أمى .

مرت ثلاثة أيام الآن يا أختاه منذ أن التقيت بأمى كنت قد أعددتُ
نفسى لأمتل بين يديها فى تذلل . لقد انتقيتُ كلماتى مسبقاً كما يخنار
العريس الحلى والمجوهرات لعروسه . مضيتُ إلى حجرتها وحدى ،
ووقفت أمامها ، تكلمتُ برقة وكياسة وأنا أتوسل إليها

لم تفهم شيئاً على الإطلاق يا أختاه ! لقد دبَّ النفور بين أمى وبينى
إنها تتهمنى فى صمتها بمصادفة الفتاة الأجنبية ، وبمناصرة أذى
والوقوف إلى جانبه ضد أمه . وعلى الرغم من أنها لم تقل هذا ، إلا أننى
أعرف أنها فى أعماقها تقول ذلك لنفسها إنها لن تستمع لشيء إذا
شرحته أو فسرته لها

حدث هذا مع أننى خططتُ لحديثى معها بكل عناية ! فقلت فى نفسى
- سأوقظ ذكرياتها عن زواجها نفسه ، وعن الآبام الأولى لحب
والذى لها حين كانت فى أوج جمالها وعنفوان شبابها .

ولكن كيف لمتل تلك القوالب الشكلية الجامدة من الكلمات أن نحتوى
عبر الحب الزكى ؟ إن هذا كمن يحاول أن يحبس سحابة ورديّة داخل
وعاء حديدى ، أو يرسم فراشات بفرشاة خشنة من الخيزران . وحين
تكلمتُ مترددة لرهافة الموضوع ، وعن سحر الحب بين الشابين ، وعن
ذلك الانسجام الخفى الذى يربط بين قلبين دون توقع ، تملكها الاحتقار
والازدراء ، وقالت بغير رسة

- ليس هناك مثل هذا الشئ بين رجل وامرأة ، إنها الرغبة فقط

.. لا تستعملى تعبيرات شعرية فيما يتعلق بذلك ، إنها الرغبة فقط ..
رغبة الرجل فى المرأة ، ورغبة المرأة فى ابن . وإذا أُشبعَت تلك الرغبة لا
يبقى هناك أى شىء .

حاولت من جديد .

– هل تذكرين يا أمّاه حين تزوجتما أُنْتِ وأبى ، كيف تحدثت
روحاكما ؟

ولكنها أغلقتْ شفَتى بضربة من أصابعها النحيطة الساخنة فوقهما .
– لا تتحدثى عنه .. كان فى قلبه مائة امرأة ، فإلى أى منهن تحدثت
روحه ؟

سألنها برقة وأنا أتناول يدها فتوسدت بدى وهى ترتجف ، ولم تلبث
أن سحبتها

– وقلبك يا أمى ؟

قالت

– إنه خالٍ أجوف . إنه ينتظر حفيدى ابن ابنى ، وحين سيتوجهون
به ليقف أمام لوحات أسلافه يمكننى أن أموت فى سلام

استدارت مُزوَّرةً عنى ، ورفضت أن تتحدث إلى أبعد من ذلك .

عُدْتُ حزينّة . ترى ما الذى فرق بينى وبين أمى إلى ذلك المدى البعيد ؟

لقد صحنّا عالياً ، ولكننا لم نسمع بعضنا بعضاً . أشعر أننى تغيرت .

وأعرف أن الحب غيّرنى



إننى أشبه بجسر ضعيف سهل الكسر يمتد عبر المسافة اللامتناهية
بين الماضى والحاضر .. إننى أحتضن يد أمى ولا أستطيع أن أتركها ،
لأنها دونى ستكون وحيدة ، ولكن يد زوجى تمسك بيدي .. تقبض عليها
بإحكام .. لا يمكننى على الإطلاق أن أدعَ الحب يرحل !

فماذا عن المستقبل إذاً يا أختاه ؟

قضيتُ أيامى أنتظر . وَبَدَوْتُ أحلم ، وأرى فى الحلم على الدوام سفينة
بيضاء تمخر عباب مياه زرقاء ، وتمضى كطائر ضخم يسرع إلى
الشاطئ ، وإذا استطعت لمدت يدي إلى منتصف المحيط وأمسكت
بالسفينة وتركتها هناك حتى لا تجيء أبداً . هل هناك طريقة أخرى
يستطيع بها أخى أن يكون سعيداً بهذا الذى فعله ؟ لم يعد له مكان الآن
فى بيته تحت سقف أبيه .

لكنَّ يديَّ الضعيفتين ليس فى إمكانهما إيقاف أى شىء .. إننى أحلم
فقط ، ولا أستطيع أن أفكر بوضوح وجلاء لا شىء يمكن أن يعزل
السفينة بعيداً سوى ابنى وهو يبتسم ويثرثر بكلماته الأولى ، إننى أبقيه
بجانبي طوال اليوم ، ولكننى أستيقظ ليلاً وأسمع هدير الأمواج حولى ،
وتندفع السفينة ساعة بعد ساعة ، ولا شىء يمكنه أن يوقفها ليمنعها من
الاقتراب .

ما الذى سيحدث شبيهاً لذلك عندما يجيء أخى مستصحباً لها ؟
إننى أخشى ذلك الشىء الغريب .. إننى بكماء صامته فى هذا الوقت من
الانتظار ، لا أعرف خيراً ولا شراً ، إننى أنتظر فحسب .

يقول زوجى . إن السفينة البيضاء ستصل بعد سبعة أيام إلى الميناء عند فوهة النهر ، الابن العظيم للبحر ، الذى يتدفق إلى ما وراء البوابة الشمالية للمدينة . وزوجى لا يمكنه أن يفهم لماذا أتتبع الساعات متمنية أن تمتد وتطول إلى مدى أبعد حتى اليوم الثامن . إننى لا أستطيع أن أصيغ له الكلمات لأعبر بها عن مخاوفى من هذا الشيء الغريب القادم .

إنه رجل ، كيف يستطيع أن يفهم قلب أمى ؟ لا يمكننى أن أنسى كيف تخشى مجيء أخى .. إن لم أذهب لأراها مرة أخرى . ليس لدينا الآن ما يقوله بعضنا لبعض ، فقط لا أستطيع أن أنساها ، وأنها وحيدة .

وأيضاً ليس فى مقدورى أن أنسى أخى ، ولا تلك التى يحبها .. إننى أتمزق هنا وهناك كشجرة خوخ ضعيفة لا تقوى على مقاومة رياح عارمة ضارية .

* * *

لم أستطع أن أنتظر وقت فراغك يا أختاه ! جئتُ سعيًا على الأقدام ، تركتُ ابنى ، إذ دفعتُ به إلى ذراعى حاضنته دون أن أبالى بصرخاته حين رآنى أغادر البيت . كلاً .. لا أريد شيئاً ! يجب أن أعود مباشرة ، لقد أسرعت إليك لأخبرك ..

- لقد جاءا ! أخى والمرأة الأجنبية جاءا ! لقد جاءا منذ ساعتين وتناولوا الطعام معنا . وهأنذا قد رأيتها ، وسمعتها تتحدث ، ولكننى لم أستطع أن أفهم شيئاً مما تقول . إنها غريبة ، حتى أننى ظلتُ أتفرس فيها دون إرادتى .

دخلنا حينما كنا جالسَيْن إلى مائدة الإفطار ، وإذا بحارس البوابة جاء إلينا مندفعًا لا يكاد يتوقف حتى ينحنى ، وقال وهو يلهث .

– هناك رجل عند البوابة ومعه شخص أو شكل لم أر مثله من قبل !
ولا أعرف حتى إذا كان ذكرًا أم أنثى . إنه طويل القامة كرجل ، لكنّ الوجه يبدو وجه امرأة !

نظرَ إلَيَّ زوجى ، ووضع العودين اللّذَيْن يتناول بهما الطعام جانبًا ، وقال بهدوء مجيبًا عن تساؤل عيني المندهشتين .
هاهما .

ثم ذهب إلى البوابة بنفسه ، وسرعان ما دخلَ البيت . وقفتُ لأحييهما ، ولما رأيت الشخصية الأجنبية الفارعة الطول ، جَفَّتِ الكلماتُ في فمى ، كنت لا أكاد أرى أخى بأية حال ، وانصبَّ شعورى فقط عليها ، تلك الأجنبية بطول قامتها ونحافتها وهى ترتدى ثوبًا أزرق قاتمًا كان ينسدل إلى ما تحت ركبتها .

غير أن زوجى لم يكن مرتبكاً على الإطلاق .. دعاهما للجلوس إلى المائدة معنا ، وأمر لهما بشأى جديد وأرز .. لم أَقُل شيئاً . طفقتُ أنظر إليها فقط ، وأعاود ذلك المرة تلو المرة .

وحتى الآن ما فتئت أقول مرارًا وتكرارًا .

– ماذا سنفعل مع تلك المرأة الأجنبية ؟ كيف يمكن أن تنتمى على الدوام إلى حياتنا ؟

لم أتذكر أن أخى يحبها .. إننى مرتبكة ومندهشة لوجودها هنا في بيتنا .. هذا أشبه بحلم ، وحتى حين يراه المرء وهو يحلم يبدو غير حقيقى ، وسرعان ما يزول ، لأنه أبعد ما يكون عن الواقع .

أنتِ تسألين كيف تبدو ؟ إننى أعرف كيف أخبرك ، مع أننى - كما قلتُ لك - لم أفعل شيئاً سوى التفرس فيها منذ أن دخلتُ من الباب .. دعينى أفكر ماذا تبدو .

إنها أطول من أخى . شعرها مقصوص ، ولكنه لا ينسدل محتشماً فوق أذنيها ، ويبدو كأنه يطير مع الرياح في الجهات الأربع ، لونه أسمر مشوب باصفرار يحاكى لون نبيذ عظام النمر .. عيناها بلون البحر تحت سماء عاصفة ، وهى لا تبتسم بسهولة .

وحينما رأيته سألته نفسى على الفور : أهى جميلة ؟ ولكننى أجيب بأنها ليست مليحة ، فحاجباها ليسا رقيقين ناعمين مثل الفراشة كما نحب أن يكونا في وجوه النساء . إنهما داكتان ومحدودان بدقة فوق عينيها المستغرقتين في التفكير . ويبدو وجه أخى بجانبها أنصر ، بوجنتين أكثر استدارة . ومع ذلك فهى في العشرين من عمرها وتصغره بأربعة أعوام .

وبالنسبة ليديها ، لو وُضِعَتَا بجانب يدئى أخى وأخفينا جسديهما لَقُلْتُ . إن يدئى أخى هما يدا المرأة ، إذ أنهما ناعمتان ، ولحمهما زيتونى ، أما عظام يديها فبارزة تحت الجلد ، ورسغاها أكثر خشونة من رسغئى .

وحين شَدَّتْ على يدي أحسست براحتها خشنة قوية . ذكرت ذلك
 لزوجي عقب الإفطار في لحظة كنا فيها وحدنا فقال إن ذلك يرجع إلى
 لعبة تسمى « التنس » تلعبها النساء الأجنبية مع أزواجهن لتسليتهم
 كما أتصور . ما أغرب توذُّد النساء الأجنبية وسعيهن وراء الحب !
 وقدماهما أطول من قدمي أخى ببوصتين على الأقل كما بدا لى . كم
 يكون ذلك مربكاً لكليهما !

وبالنسبة لأخى فقد كان يرتدى ثياباً غريبة ، وبدا لى أجنبياً في أشياء
 عديدة .. إنه يتحرك بسرعة ولا يهدأ . حين أنظر إليه لا أرى الشاب
 الخفيض الرأس ذا العينين اللتين لهما لمعان الفضة كما كان في وقت
 مضى إنه اليوم يرفع رأسه عالياً ، ولا يبدو الابتسام على وجهه ، إنه لم
 يكن يتحدث . وهو لا يضع أية خواتم أو حلّ عَدَا خاتمٍ ذهبى بسيط في
 الأصبع الثالث من إحدى يديه . وهذا الخاتم ليس مرصعاً بجوهر ثمين
 من أى نوع . أمّا ملابس الغرب القاتمة الضيقة التى يرتديها فقد أبرزت
 شحوب وجهه بوضوح أشد .

وحتى عندما يجلس فإنه يحاكي الأجانب في جلوسهم ، فيضع ساقاً
 فوق ساق . وهو يتحدث الأجنبية بطلاقة مع زوجي ومعها ، فتنثال
 الكلمات من أفواههم مُحْدَثَةً جَلْبَةً كتلك الناجمة عن ارتطام الحصى
 بإحدى الصخور .

لقد تغير تماماً ، حتى عيناه تغيرتا ، فلم تُعوِّداً منكسرتين حزينتين كما

كانتا من قبل ، فهما سريعتا الحركة ، جريئتان ، تنظران بجسارة تجاه الشخص الذى يتحدث معه . وهو يرتدى نظارة ذات إطار من الذهب وبعض الصدف القاتم اللآفت للنظر لغرابته ، وتجعله يبدو أكبر سنًا مما هو .

غير أن شفتيه ما زالتا كشفتى والدتنا ، رقيقتين منضغطين معًا فى استرخاء ، لا يزال بهما أثر قديم من عناد الطفولة الذى كان يجيء دائمًا حين تُرْفَضُ له رغبة ، وبهذا عرفتُ أخى

أظن أنني وابنى كُنَّا الصينيين الوحيديين بينهم كانوا يقفون هناك فى بيتنا متلففين فى ثيابهم الغريبة ، يتحدثون بلسانهم العجيب ، ولم أكن أنا وابنى نفهم حديثهم .

كان عليهما أن يمكتا فى بيتنا حتى يستقبلهما أبى وأمى . وعندما تعرف والدتى بأننى سمحت بإقامتهما هنا سَتَشْتَاطُ غضبًا على ابنتها العاقّة ، وسخطًا على السقف الذى سيؤويهما تحته . إننى أرتعد ، ومع ذلك فما يريده زوجى يجب أن يُنفَّذ . وفوق كل ذلك أليس هذا هو أخى ابن أم واحدة لنا ؟

عندما جلسنا معًا لتناول الأُز ، لم تستطع استعمال العيدان .. كان مشهدًا مسليًا ، فضحكتُ خَفِيّة ، وقد أخففتُ فى الإمساك بهما ، ولا حتى كما يمسك بهما ابنى بيديه الصغيرتين . إنها تقبض عليهما بشدة ،

وانعقد حاجباها في سعيها الجاد لتتعلم ، بيد أن يديها تفتقران إلى المهارة
في الأشياء الدقيقة .. إنها لا تعرف شيئا .

وصوتها يا أختاه لا يشبه أى صوت سمعته من امرأة . إننا نحب أن
نسمع صوت المرأة خفيفا ناعما كجدول ماء صغير ينساب بين
صخرتين ، أو كما تُغرد الطيور الصغيرة على عيدان البوص . ولكن
صوتها كان عميقا وممتلئا ، ولما كانت لا تتحدث إلا نادرا فإن المرء
يتوقف ليصغى إليها . إِنَّ صَوْتَهَا ذو نغمة ثرية كطائر السَّمَان الذي
يجيء وقت الحصاد في الربيع ، حين يكون الأرز في انتظار لِيُحَصَدَ
ويكوَّم في حزم . وحين تتكلم تنحدر كلماتها في عبارات سريعة إلى أخى
وزوجى . وهى لا تتحدث معى ، لأننى لا أفهمها وهى لا تفهمنى .

ابتسمت لى مرتين ، ابتسامة مشرقة سريعة ، تنبعث من عينيها مثل
وميض فضيّ تعكسه مياه جدول رقرق حين تسقط عليه أشعة الشمس ،
وحين تبتسم أفهمها ، فهى تقول .

— هل سنكون أصدقاء ؟

وتنظر كُلاً واحدة منا إلى الأخرى في شك .

ثم أجيبها في صمت .

— عندما ترين ابنى سأعرف ما إذا كنا نستطيع أن نكون أصدقاء أم
لا .

ألبستُ ابنى سترته الحريرية الحمراء وسرواله الأخضر ، وجعلته

ينتعل الحذاء المطرز بأزهار الكرز ، ووضعتُ على رأسه قبعته المستديرة
ذات الطوق الرفيع المزين بصور « بوذا » الذهبية الدقيقة ، وحول عنقه
كانت تتدلى سلسلة فضية . لقد بدأ في زيِّه هذا أشبه بأمر ، وأحضرته
إليها .. وقف قبالتها مفتوح الساقين ، وراح يحدق فيها بدهشة .. طلبتُ
منه أن ينحنى ، فضم يديه الصغيرتين معاً ، وانحنى وهو يتمايل ويترنح
لما بذله من جهد في محاولته هذه .

تَفَرَّسْتُ فيه مبتسمة . وعندما انحنى أطلقت ضحكة بنبرة صوتها
الطبيعية فبدت كنغمة صادرة من طَرَقَةٍ على ناقوس عميق ، ثم صاحت
بكلمة حلوة مجهولة ، وأمسكت به وحملته قبالة صدرها وألصقت
شفتيها بعنقه الناعم . سقطت قبعته ، ونظرت إلى من فوق رأسه الحليق .
يا لها من نظرة يا أختاه ! قالت عيناها :

— أودُّ أن يكون لى واحد يُماثله تماماً !

ابتسمتُ قائلة :

— إذا سنكون صديقتين !

أعتقد أنني بدأت أرى لماذا يحبها أخى .

انقضى الآن اليوم الخامس منذ مجيئها دون أن يمثلا بين يدئ أبى
وأُمى. انهمك زوجى وأخى عدة ساعات فى حديث مقلق بذلك اللسان
الأجنبى، ولا أعرف ما الذى انتهىإليه ، ومهما يكن ما توصَّلاً إليه فيجب

أن يتم إنجازها على مهل وفي تلك الأثناء كنت أرقب المرأة الأجنبية

إذا سألْتَنِي يا أختاه عن رأيي فيها لما عرفت من المؤكد أنها ليست مثل نساءنا . إن كل حركة من جسمها حُرَّةٌ وغير مقيدة ، ومفعمة بالحيوية والرشاقة ، ونظرتها مباشرة وجريئة ، وعيناها تسعى إلى عيني أخی دون خجل . إنها تستمع إلى أحاديث الرجال ، ثم تقذف في حديثهما بكلمة سريعة فيضحكان لقد اعتادت على الرجال مثلما كانت السيدة الرابعة .

ومع ذلك فهناك فرق بينهما ، إذ يبدو لي أن السيدة الرابعة على الرغم من ثققتها في جمالها فإنها كانت تشعر بالخوف في حضرة الرجال ، وإنی أعتقد أن خوفها - حتى وهی في أوج فتنتها - يرجع إلى خشيتها من اللحظة التي يبدأ فيها جمالها يخبو ، فلا يبقى لديها شيء تجذب به قلوب الرجال .

أما هذه الأجنبية فلا تخشى شيئاً ، على الرغم من أنها ليست جميلة مثلما كانت السيدة الرابعة ، وهی لا تزعج نفسها ، وتتقبل اهتمام الرجال بها كحق لها ، ولا تبذل أى جهد لتظفر بنظراتهم ، ويبدو أنها تقول « هذه هي أنا . إنني كما ترونني ، ولا أبالي أن أكون شيئاً آخر » .

وإنی أعتقد أنها ذات كبرياء شديد ، وهی على الأقل تبدو غير مختثرة - على نحو غريب - بالعقبات التي جلبتها لأسرتنا .. إنها تلاعب ابني بترائح وكسل ، وتقرأ كُتُباً .. لقد أحضرت معها صناديقها العديدة المملئة بالكتب .. وتكتب في الأدب .. وياله من أدب ! تفرست من فوق كتفها

فرأيت الصفحة مغطاة بعلامات كبيرة ممتدة في غير نظام أو اتساق ، ومعقوفة ومتصلة ببعضها بما يشبه الخطاطيف .. إننى غير قادرة على عمل أى شىء يماثل ذلك .. وهى مولعة بالجلوس فى الحديقة لتحلم دون أن تفعل شيئاً على الإطلاق . ولم يحدث أن رأيتها مرة تطرز شيئاً فى يديها .

وذات يوم خرجت مع أخى فى الصباح الباكر ثم عادَا فى الظهيرة مُعْبَرَيْنِ مُعْفَرَيْنِ مُلَوَّنَيْنِ بِالْأُتْرِبَةِ وَالطَّيْنِ . سألت زوجى مندهشة . أين كنا ليعودا إلينا بمثل تلك الحالة ؟ أجاب

— كنا فيما يسميه الغربيون نُزْهَةً طويلة سيرًا على القدمين .

سألته فى فضول

— ماذا تكون تلك النزهة ؟

فأجابنى

— إنها سير طويل سريع إلى بقعة معينة على مسافة بعيدة . وقد ذهبنا اليوم إلى قمة الجبل البنفسجى .

سألت بدهشة كبيرة .

— لماذا ؟

قال

— إنهم يعتبرون ذلك متعة .

هذا فى منتهى الغرابة ! فهنا حتى المرأة المشتغلة بالزراعة تعتبر المشى
هكذا لمسافة بعيدة عملاً شاقاً .

وعندما قلت ذلك لأخى أجاب .

– كانت حياتُها فى بلادها حُرَّةً طليقة ، وهى تشعر بنفسها مقيدة فى
هذه الحديقة الصغيرة خلف تلك الأسوار المرتفعة .

دُهِشت بشدة حين سمعت ذلك . فقد بدا لى أن حياتنا بلا شك تُعَدُّ
عصرية تماماً وخالية من القيود القديمة . وسور الحديقة أقيم فقط
للحفاظ على حُرمة البيوت ، حتى لا يتمكن أحد من بائعى الخُضَر أو
الحلوى الجائلين من استراق النظر إلينا . وقد فكرت فى نفسى متسائلة .

– ماذا ستفعل فى أفنية البيت إذا ؟

ولكننى لم أجد إجابة لذلك

إنها تُظهر حبها لأخى بصراحة . فى الليلة الماضية جلسنا فى الحديقة
لنستمتع ببرودة الليل ، وجلستُ أنا فى مكانى المعتاد على مقعد الخزف
الصينى ، على بُعْدٍ قليل من الرجال ، أمّا هى فقد جلست بجوارى فوق
«الدرابزين » القرميذى المنخفض الذى يحيط بالشرفة ، وبأسلوبها
نصف المبتسم راحت -- ونحن معاً ، حمرة الأفق عند غروب الشمس –
تشير إلى شىء تلو الآخر ، وتسالنى عن اسم كُلِّ منها ، وهى تكرر الكلمة
من بعدى . إنها سريعة التعلم ، وهى لا تنسى أيّاً منها طالما سمعتها

صحيحة . كانت تكرر كل مقطع بصوت ناعم خفيض وهى تتذوق طريقة تنغيمة ، وتضحك قليلاً فى خجل حينما أَصَحَّحَ لها ما تخطىء فيه ، وهكذا سلينا أنفسنا بعض الوقت حين كان الرجلان يتحاوران .

ولما حلت عتمة الليل ، ولم نعد نميز الأشجار والأزهار والحجارة ، لزمت الصمت ، وانتابها القلق .. أدارات عينها ناحية أخى ، وأخيراً وقفت على حين غرة وتوجَّهت إليه وهى تتمايل وتتثنى فى مشيتها ، وكان ثوبها الأبيض الهففاف يتطاير كضباب رقيق ، ضحكت وقالت له شيئاً بصوت خافت ، ثم وقفت إلى جانبه ومدت يدها إلى يده دون تحفظ .

حولتُ بصرى عنهما .

وعندما حملتُ إليهما مرة أخرى ، متظاهرة بأننى أبحث عن شىء فى اتجاه الرياح ، كَوَّمتُ نفسَهَا بجانب مقعده على أرض الشرفة المرصوفة بالقرميد ، وَوَضَعْتُ وجنتها على يده ! شعرتُ بغصّة تعاطفاً مع أخى ، إذ لا ريب أنه خَجَلَ مما أبدته المرأة من حُبِّ وهيام بطريقة مبتذلة مكشوفة .. لم أستطع أن أَرى وجهه فى الظلام ، غير أن الحديث قد توقف بأكمله ، ولم يكن هناك سوى دمدمة حشرات الصيف عبر الحديقة .. نهضتُ واقفةً وانسحبت .

ولما لحق بى زوجى بعد دقائق معدودات قلت له :

- هذه الأجنبية غير محتشمة !

ضحك ثم قال :

- أوه ، كلا . إنه بالنسبة لك فقط أيتها الصينية الصغيرة !

وخزنى السخط ، فاستدرت لأنظر إليه وسألت ،

- هل تقبل إذا أن أتشبث بيدك أمام الناس ؟

ضحك ثانية وهو ينظر إلى

- كلا ، لأنك لو فعلتِ مثل ذلك فكم سيكون مخالفاً للاحتشام حقاً !

أدركت أنه كان يضحك ساخراً منى بعض الشيء ، ولما كنت لا أعرف

لماذا فإننى لم أقل شيئاً

إننى لا أفهم حريتها هذه ، ومع ذلك فالأغرب أننى عندما أتأمل وأفكر ملياً لا أتبين أىّ لمحة شرّ فيها . إنها تجاهر بحبها لأخى ببساطة ، كطفل ينشد رفيق لعبه ، لا يوجد شيء خفى أو مكر خبيث فيها . ما أغرب هذه " إنها ليست مثل نساتنا .

إنها كزهرة متفتحة فى شجرة برتقال برية ، نقية لاذعة ، لكنها بلا أريج أو عبير

أخيراً اتفقا على ما سيفعلانه . إنها سترتدى ثوباً صينياً ويمضيان معاً للقاء المبدلين المسنين . وقد علمها أخى الطريقة المثلى التى تنحنى بها أمامهما . وكان على أن أسبقهما لأُمَهَّ الطريق وأحمل الهدايا .

لم أستطع أن أنام ليلاً ، إذ كنت أفكر فى تلك الساعة . شفتاى جافتان ،

وحين أبلَّلهما بلساني أجدُّه جافاً أيضاً داخل فمي حاول زوجي أن يشجعني بالضحك والكلمات الجريئة ، ولكنه حين يتركني يعاودني الخوف .. إنني أخذتُ بصراحة الجانب المضاد لأمي ، أنا التي لم أعص رغبتها من قبل طوال حياتي .

من أين ستواتيني الشجاعة لأفعل هذا الشيء ؟ إنني مخلوقة خائفة ومترددة دائماً ، وإذا ترك الأمر لنفسى فإنني لا أجد فيه شيئاً غير الشر .. إنني أرى بوضوح حتى الآن ما يعتمل في قلب أمي بخصوص ذلك الموضوع ، فحين أنفرد بنفسى أقول إنها على حق بالنسبة لعادات شعبنا . إنه زوجي الذي غيرني ، حتى أنني أصبحتُ أتجاسر - رغم خوفي - على التحدث عن الحب ضد تقاليد أسلافي ، ولكنني أرتجف ..

إن المرأة الأجنبية هي الوحيدة الهادئة بيننا .

الفصل الثامن



سيرة

8

إننى اليوم متعبة ، منهوكة القوى يا أختاه ، وكأننى أحس
فى قلبى وتر قيثاره ظل مشدودًا بإحكام أيامًا عديدة ثم
ارتخى فجأة ، فماتت الموسيقى فيه .

لقد انقضت الساعة التى كنت أخشاها ! كَلَّا ، لن أقول كيف مضت ..
سأخبرك بالموضوع كاملاً ، ومن ثم يمكنك أن تحكمى عليه بنفسك . أمّا
بالنسبة لى فلن أخبرك بالنهاية قبل البداية .

بعثنا برسولٍ إلى والدينا يحمل التماسنا أن يُسمَحَ لنا بالمثل فى اليوم
التالى ظهرًا . فعاد يقول إن والدنا قد غادر البيت إلى « تينتسين » حاملًا
سمع بوصول أخى ، وبهذا تجنب اللحظة العصبية .. هكذا كان دائمًا
يتحاشى اتخاذ القرارات والفصل فى المسائل .. وقد حددت والدتى نيابة
عنه ساعة الظهر لتستقبلنى أنا وأخى . ولم تشر إلى الأجنبية بشيء ،
ولكن أخى صاح .

— إذا ذهبْتُ فستذهب زوجتى أيضًا

ذهبت أنا أولاً إلى البيت في اليوم التالي في الساعة المحددة ، وسارت خادمة أمامي تحمل الهدايا . انتقى أخى هذه الهدايا من البلاد الأجنبية ، وكانت كلها عجيبة وأشياء ممتازة يندر أن نراها في مدينتنا . ساعة صغيرة مطلية بالذهب في بطن طفل مذهب ، وكلها لا يزيد ارتفاعها عن ست بوصات ، وساعة للمعصم مرصعة بالمجوهرات ببراعة ، وآلة إذا أُديرَت بمقبض استطاعت أن تتكلم وتصحح ، ومصباح يشتعل دون نار ، ويُجَدِّدُ ضَوْءَهُ مهما ظل مشتعلًا ، ومروحة يد من ريش النعام بيضاء ككتلة من زهور الكمثرى

مضيتُ بهذه الهدايا للمتول بين يديها .. كانت والدتنا قد بعثت بكلمة قائلة إنها ستستقبلنا في قاعة الضيوف ، وحين دخلت كانت جالسة هناك على مقعد ثقيل من الخشب الأسود المنقوش ، على يمين المنضدة الموضوعة أسفل لوحة الإمبراطور « مينج » . رأيتها مرتدية ثوبًا من الساتان الأسود المطرز بخيوط الذهب ، وقد زَيَّنَتْ شعرها بحلى ذهبية . كانت في يديها خواتم عديدة من الذهب مرصعة بالياقوت الأحمر والتوباز بمختلف أشكاله وألوانه . وأنسجمت تلك الأحجار الكريمة مع وقار سنّها .. كانت تتكىء على عصا من الأبنوس والفضة لم يحدث قط أن شاهدها بمثل ذلك الجلال ، وتلك الفخامة في المظهر الخارجي .

بيد أنني كنتُ أعرفها جيدًا ، لقد أنعمتُ النظر في وجهها عن كثب لأتبين كيف كانت صحتها ، فسقط قلبي من الخوف فلون ثيابها الأسود أكد نحافة وجهها بصورة جلية واضحة .. لقد أصبحت نحيلة

حتى أن شفيتها تقوست حتى كادت تُحاكى منحنيات الموت نفسه ،
واتسعت عيناها وأصبحت غائرة كعيني مريض ميئوس من شفاؤه .
وكانت الخواتم حول أصابعها سائبة وتصلصل حين تصطدم ببعضها ،
وتصدر موسيقى قاتمة إذا حَرَّكت يديها .. تلهفتُ على سؤالها عن حقيقة
صحتها ، ولكنني لم أتجاسر على ذلك ، لمعرفة أن السؤال سيزعجها .
لقد توترت أعصابها لتحضر هذا اللقاء ، وهي بحاجة إلى كل قواها .

ولهذا فإنها حين استقبلتني لم تنبس ببنتِ شَفَةٍ .. قُدِّمَتْ إليها الهدايا،
فتناولت كل واحدة منها من يد الخادمة ، ثم وضعتها أمامها . عبرت عن
شكرها بإحناءة وقورة من رأسها ، وأشارت إلى خادماها اللاتي كُنَّ
يقفن بالقرب منها لِتَلْقَى أوامرها أن يحملن الهدايا إلى حُجرة أخرى ، غير
أن قبولها لها شجعني بعض الشيء ، فلو أنها رفضتها لكان ذلك معناه
بلغة تقديم الهدايا أن أخى صار مرفوضاً . وعلى ذلك قلت :

— يا أمي المبجلة .. إن ابنك هنا وينتظر رِضَاءَك !

أجابت ببرود :

— لقد أَخْبِرْتُ بذلك .

وغامرْتُ بضعف وتردد معتقدة أن من الأفضل اطلاعها فوراً بأسوأ
الأخبار ، ومع ذلك شعرت بروحي تغوص في قلبي ..

— لقد أحضرت المرأة الأجنبية .

تلقت ذلك بصمت . لم أستطع أن أصل إلى شيء من تعبيرات وجهها
الذي ظل جامدًا .

سألت يائسة دون أن أعرف ماذا أقول ، عدا ما كان مُخَطَّطًا له .

- أيمكنها الحضور ؟

أجابت بالصوت نفسه

- دَعِيه يحضر .

ترددت ، دون أعرف كيف أو اصل سبيل إلى الإنجاز .. ألم تكن المرأة
الأجنبية على العتبة ؟ توجهت إلى الباب حيث كانا ينتظران ، فأزحت
الستار جانبًا ، وأخبرت أخي بما قالته والدتنا ، وأنه من الأفضل أن
يذهب بمفرده أولاً .

اكفهر وجهه بتلك النظرة القديمة التي تذكرتها في صباه حين كان
شيء يثير استيائه . تحاور لحظة مع تلك الأجنبية بلغتها . رَفَعَتْ
حاجبيها حين سمعت كلماته ، هزت إحدى كتفيها هزة طفيفة ، ووقفت
تنتظر في هدوء ودون مبالاة ، وما كان من أخي إلا أن أمسك بيدها على
عجل ، ودخلًا معًا قبل أن أتمكن من الحيلولة دون ذلك .

ما أغرب تلك الشخصية التي كان عليها أن تدخل إلى القاعة العظمى
لأسلافنا ! وَقَفْتُ متعلقةً بالستارة وأنا أكاد أكون مسلوقة الحركة أمام
ذلك المشهد . أول دم أجنبي غريب يتخطى هذه العتبة اوقد حفزني
عجبي من هذه الفكرة إلى أن أوصل التطلع إلى المرأة الأجنبية ، حتى أننى

نسيت أمى فى ثانية ، على الرغم من أننى عرفتُ حينئذ - وأنا نصف واعية - أن عزم أخى على ألاَّ يدخل وحده ، لابد أنه أوقف فى لحظةٍ ميل أمى نحوه وتشوفها الطبيعى لأن تراه مرة أخرى ، فلم أملك سوى التعجب فى هذه اللحظة

اختار أخى ثياباً من بلادنا لترتديها الأجنبية ، ستره من الحرير الأزرق الباهت ، ثقيلة جداً من المخمل الأسود غير المطرز . وقد أبرزت هذه الملابس القائمة بياض بشرتها التى حاكت بياض اللآلىء اللامعة تحت ضوء القمر ، وراح شعرها يتمادى ويتوهج حول وجهها كألسنه اللهب الصفراء ، وكانت عيناها فى زُرقة سماء اجتاحتها عاصفة رعديّة ، واسترخت شفتاها فى كبرياء . ودخلت مرتفعة الهامة فى عجرفة ، وقد دفعت برأسها إلى الوراء . التقت عيناها بعينى أمى بلا خوف أو ابتسام .

ولما رأيتُ هذا ضغطت بيدي على فمي لأمنع صيحة كادت تفلت منى . لماذا لم يخبرها أخى بضرورة الدخول مسدلة العينين أمام من تكبرها سنّاً ؟ تأسفتُ كثيراً من أجله بسبب سلوكها المتغطرس . لقد دخلت كما تدخل الملكة الحاكمة فى حضرة أرملة عجوز مهيبة من الأباطرة .

تَبَّتَتْ أمى عينيها على المرأة الأجنبية - تلاقت أعينهما ، وسرعان ما أعلننا عدواتهما .. ثم أدارت أمى عينيها بكبرياء بعيداً نازرة إلى الفضاء فيما وراء الباب المفتوح . قالت المرأة الأجنبية شيئاً لأخى بصوت هادىء، عرفت فيما بعد ما سألته إياه .

- هل يجب أن أركع الآن ؟

أوماً برأسه وَرَكَعاً مَعَاً أُمَامَ والدتِنا ، وشرع أخى يتحدث بالكلمات
التي سبق أن أعدّها .

أيتها السيدة العريقة الجديرة بأسمى آيات التبجيل . لقد عُدْتُ من
البلدان الأجنبية بناءً على أمرك ، كى أحظى بالمثل بين أيدي والديّ
الكريمين . أنا ابنك الذى لا يستحق عطفك .. لقد أبهجنى أن والدتِنا رأت
أنه من المناسب أن تقبل هدايانا عديمة الجدوى . أقول هدايانا لأننى
أحضرت زوجتى معى التى كتبت رسالة عنها بيد أحد أصدقائى، لقد أتت
لتكون زوجة لابنك ، وعلى الرغم من أن دماء أجنبية تجرى فى عروقها
فإنها أرادت منى أن أخبر والدتِنا المجبلة أنها منذ أن تزوجتنى أصبح
قلبها صينيّاً ، وستأخذ طوعاً جنسيتنا وعادات أسرتنا وتتخلى عن
عاداتها ، وسيكون أبنّاؤها جميعاً من أُمَّتنا السماوية ، مواطنين من
الجمهورية الساطعة المتألقة ، وورثة الإمبراطورية الوسطى، وهى تقدم
وَلَاءَهَا .

التَقَّتْ إلى المرأة الأجنبية التى كانت تنتظر فى هدوء حين كان يتحدث ،
واعطاها إشارة .. انحنت بوقار فائق حتى لامست جبهتها الأرض أمام
قدمى أمى .. لقد انحنت ثلاث مرات .. ثم انحنت مع أخى ثلاث مرات
أخرى .. ثم نهضاً مَعَاً فى انتظار كلمات أمى .

لم تقل شيئاً لفترة طويلة .. وظلت عيناها مُرَكَّزَتَيْنِ على الفضاء
الفسيح فيما وراء الباب .. واستمرت هكذا عدة دقائق صامتة مرفوعة
الهامة فى كبرياء .

يغلب على ظني أنها كانت في دخيلة نفسها حائرة إزاء جسارة أخى في تحدّيه بإدخال الأجنبية أمامها ، حين قالت إن عليه أن يأتى وحده .. أعتقد أنها كانت في صمتها تتعجب كيف تواجه اللحظة العسيرة العويضة .. تصاعد الدم على شكل بقعة على خديّها ، ورأيت عضلة تنتفض في فكها الرقيق ، ولكنها في سلوكها الثابت الصاعد لم يكن يبدو عليها أية علامة من الارتباك

جلستُ وكلتا يديها منثنيتان على الرأس الفضية للعصا . ولم تنذب عيناها وهى تحقّق فوق رأسيهما انتظر الاثنان أمامها .. وأطبق الصمت على القاعة ثقيلًا مرهقًا وهما ينتظران .

وفجأة انفجرت أسارير وجه أمى المتجهم .. لقد تغيرت ، وتراجع اللون بسرعة كما جاء ، وأصبحت وجنتاها شاحبتين سقطت إحدى يديها مرتخية في حجرها ، ونكّست عينيها نحو الأرض في غموض ، وأحنت كتفيها، وانكمشت في مقعدها وقالت وهى على وشك الإغماء .

- يا بنى .. يا بنى !! مرحبًا بك على الدوام في بيتك .. سأحدث فيما بعد.. والآن عليك بالانصراف

رفع أخى عينيه إلى وجهها يسبر غوره . لم تكن نظرتة حادة قوية كنظرتى، ولكنه عرف أيضًا أن هناك شيئًا خاطئًا . تردد تم حلق في وجهى . رأيت أن في جعبته مزيدًا يريد أن يتحدث عنه ، أن يحتج على برودها ، إلّا أننى كنتُ جزعًا من أجلها . هزرتُ له رأسى ، فتحدث بكلمة إلى الأجنبية ثم انحنيا وانسحبا .

هرولتُ إلى جانب أمي ، ولكنها أشارت إليّ كي أظل بعيدة دون أن تتفوه بكلمة . كنت أتلَهفُ على أن أسألها العفو ، لكنها لم تسمح لي بالتحدث ، وقد استطعتُ أن أرى أن هناك ألماً خفياً يرهقها ، ولم يكن مسموحٌ لي بالبقاء، ولذلك انحنيتُ واستدرت خارجة على مهل ، ولكنني نظرتُ ورائي من الفناء فرأيتها تسير ببطء عائدة إلى مسكنها وهي تتكىء بكل ثقلها على جاريتين

تنهدتُ وعدتُ إلى بيتي . لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجل المستقبل ، أو أفكر فيه كما يجب .

أما بالنسبة لهذين - أختي والأجنبية - اللذين حطّما قلب أمي ، فقد ذهَبَا بعيداً ليستريحا من ذلك اليوم في نزهة من نزهاتهما التي يسيران فيها طويلاً ، وحين هبط الليل عادًا ، ولم نتجاذب الحديث معًا .

* * *

لقد طال غيابك يا أختاه ! ثلاثين يوماً بل إنها بلغت الأربعين تقريباً منذ رأيتك . شهر قمرى كامل وأكثر ! هل كانت الرحلة هادئة ؟ أشكر الآلهة لأنك عُدت .

نعم ، إن ابني بخير . إنه الآن يقول كل شيء ، وصوت كلامه يجرى ثابتاً خلال اليوم كجريان الماء في العزير . إنه لا يسكت إلا في أثناء النوم فقط . يا لحديثه العذب يا أختاه ! كلماته رقيقة ومتكررة وتثير فينا الضحك، نحن نحرص في كثير من الأحيان ألا ندعه يرانا نبتسم ، لأنه إذا

عرف أننا نضحك منه لَغَضِبَ وضرب الأرض بأخمص قدميه الصغيرتين. إنه يعتبر نفسه رجلاً حبذا لو شاهده وهو يسير بجانب والده بساقيه السميتين منفرجتين حتى يلحق بخطى والده السريعة .

إنك تسألين عن زوجة أخى ' آه .. إن جوابى لك ليس إلا تنهيدة .
قالأمور ليست على ما يرام مع أخى . نعم ، إنهما ما زالا هنا ينتظران لم يتقرر شىء بعد .. وأخى قلق ، فالأيام تمر فى كسل دون أن تأتى بقرار . لقد تعلّم نفاذ الصبر من الغرب ، وهو ينشد تلبية رغباته على الفور ، ناسياً أن الوقت فى بلادنا لا يساوى شيئاً ، وأن المصائر والأقدار قد تظل مجهولة حتى لو حمّ القضاء . ليس هناك تعجل يمكن أن يحدث الزمن على الإسراع ، ولكننى سأخبرك .

بعدأن قدّما نفسيهما لوالدتي ، دارت الأيام ، ثمانية أيام طويلة انتظرنا، ولكن لم تأت كلمة .. فى أول الأمر كان أخى يتوقع فى كل ساعة أن تأتى رسالة مّا . لم يسمح للأجنبية أن تفك أحزمة الصناديق الضخمة ، التى أحضرها معها ، لإفراغ محتوياتها ، وهتفت صائحاً

- لا داعى إلى ذلك الآن .. إنْ هى إلا يوم أو يومان .. كان قلقاً مزعزعاً فى مسلكه ، وسرعان ما يقهقه عالياً على لا شىء .. يمرح أحياناً ، ويصمت فجأة أحياناً أخرى بدون أن يسمع ما قيل له . كان أشبه بإنسان يصغى بلا انقطاع لبعض الأحاديث أو الأصوات التى لا يسمعها أحد سواه فى الحجرة .

غير أنه حين مر يوم وراء يوم دون أن تأتي رسالة لهما ، غضب وأصبح سريع التهيج والانفعال ، وكَفَّ عن الضحك على أى شيء ، وبدأ يتذكر ويعيد النظر في الساعة التى فيها مع والدته ، وطفق يتحدث عنها مرارًا وتكرارًا ، ملقياً اللوم الآن على الأجنبية التى لم تكن أكثر تواضعًا أمام أمه ، ثم لا يلبث أن يلوم والدته لغلطستها وعجفرتها معلناً أن زوجته كانت على حق ، ومن السخف في هذه الأيام الانحناء أمام أى أحد ونحن في عهد الجمهورية . وحين سمعتُ ذلك أخذنى العجب وقلتُ :

– ألم تعد والدتنا هى والدتنا منذ أن أصبحت لنا جمهورية ؟

غير أنه أصبح نافذ الصبر ، ويثور مغتاظاً لأى شيء ، ولا يسمع شيئاً مما يُقال له .

ولكننى يجب أن أكون عادلة منصفة للأجنبية ، فهى في الحقيقة لم تعترض على الانحناء أمام والدته ، وقيل لى إنها قالت

– إذا كانت هذه هى عادتكُم فإننى سأفعل ذلك بلا ريب ، على الرغم من أننى أعتقد أنه من السخف بعض الشيء أن أنحنى بهذا الشكل أمام أى شخص !

كانت هادئة ، أكثر هدوءًا من أخى ، وأكثر ثقة بالمستقبل : كانت تفكر فيه على الدوام ، وكيف تنجح في إعادة السعادة إليه . وفي بعض الأحيان عندما تراه غاضبًا تأخذ في ملاطفته ، وتمضى به إلى الحديقة أو إلى خارج البوابة .

وذات مرة نظرتُ إليهما من النافذه ، ورأيتهما هناك في الحديقة . كانت تتحدث إليه بجد ، وأخيراً عندما ظل لا يجيبها ، واستمر ينظر إلى الأرض بكآبة وعبوس ، مدت يدها إلى وجنته برفق ، وحملت في وجهه نصف مبتسمة ، ونصف حزينة . ولا أعرف ماذا كانت تقول له عندما ينفردان معاً هكذا . أن أخى بعدئذ تحسّن قليلاً ، وأصبح أكثر هدوءاً ، وإن كان باله لم يرتح قط ، وظل متوتراً من جراء الانتظار .

ولكنها لم تكن تُلطفه هكذا على الدوام . إذ كانت تهز كتفيها في بعض الأحيان بطريقتها الخاصة ، وتدعه وحده غير أن عينيها كانتا تتابعانه بتلك النظرة العميقة التي كانت تصوبها إليه كلما تفرست في وجهه . فإذا لم يأت إليها فإنها تحبه وتُحادثه بكلمات لا أستطيع أن أفهمها .

وقد بدأت أيضاً تتعلّم منى شيئاً من موسيقى القيثارة القديمة ، وسرعان ما تعلمت ما يكفي لكي تعزف لحناً مصاحباً لأغانيها . إن صوتها حينما تغنى ممتلئ ومثير في عمقه ، على الرغم من أنه بالنسبة لآذاننا - التي اعتادت على النغمات الرقيقة العالية للصوت البشرى - كان يتصف بعذوبة خشنة ، وهى تستطيع أن تجعل أخى يندمج على الفور منفعلاً مع أغانيها ، وأنا لا يمكننى فهم الأغانى ، ولكننى حين أسمعها أحس بالأم خفى غامض مبهم .

وأخيراً ، عندما لم تصل رسالة من أمى ، بدا أنها كَفَّت عن التفكير في الموضوع ، وحولت ذهنها إلى الاهتمام بأشياء أخرى . إن الأجنبية

تذهب يومياً لمسافات طويلة سيراً على الأقدام وحدها ، أو مع أخى .
أدهشنى أن أخى يدعها تذهب وحدها ، إذ لا شك أن ذلك لا يناسب
امراً ، ولكنه لم يقل شيئاً ، وكانت تعود وفى جعبتها الكثير للحديث عن
الطرق ، متعجبة من مناظر لم يلاحظها الآخرون ، ومن رؤيتها لأماكن
غريبة رائعة الجمال . وإنى أتذكر يوماً عادت فيه تبتسم ابتسامتها
السريفة ، كما لو أن هناك ابتهاجاً فى أعماق نفسها لم يحس به الآخرون ،
وحين سألتها أخى بخصوصه ، قالت بلغتها ما أخبرنا به أخى فيما بعد

- شأدت جمال الأرض وهى تضع حبوبها. فى متجر الحبوب فى
الشارع الرئيسى كانوا يضعون فى سلال بنية صغيرة من الأغصان
المجدولة شتى الحبوب بألوانها المحبوبة . الذرة الصفراء ، الفول
الأحمر ، الفاصوليا الجافة الرمادية ، السمسم العاجى اللون ، فول
الصويا بلونه العسلى الشاحب ، القمح المتورد اللون ، الفول الأخضر .. لم
أستطع أن أتجاوزها بسرعة. يالها من لوحة وِدْتُ أن أرسماً لو أتيح لى
أن أغمس فيها قلمًا من الباستيل'

لم أتمكن من فهم ماذا تعنى بهذا كله ؟ ولكنها هى هكذا .. إنها تعيش
داخل ذاتها ترى الجمال حيث لا يراه غيرها.. أنا لم أفكر فى متجر
الحبوب بهذا الشكل، صحيح أن الحبوب هناك متعددة الألوان، ولكنها
هكذا بوساطة الطبيعة . لم يقم أحد بتغيير ألوان الحبوب ، ولا شىء
يدعو للدهشة . فهى دائماً هكذا .. ومتجر الحبوب فى أعيننا ليس إلا
مكاناً لشراء الطعام.

بيد أنها ترى كل شيء بعيون غريبة، على الرغم من أنها نادراً ما كانت تُعلّق على ما تشاهده ، مكتفية فقط بالقاء الأسئلة ، وتخزن إجاباتها في ذاكرتها

ولما كنت أحيا معها يوماً بعد يوم فقد أحببتها وأنا أنمو في كنفها .. وعندما أرقبها كنت أرى أحياناً بعض الجمال في بعض نظراتها وأساليبها الغريبة ، ولا شك أنها كانت على درجة كبيرة من الكبرياء . إنها صريحة إلى أبعد حدود الصراحة ، ولا يكبحها شيء فيما تود أن تُدلى به ، حتى مع أخى - زوجها - لم تكن منواضعة فط . ولعل أغرب الأشياء جميعاً أنه لا يحتمل هذا من امرأة صينية، في حين يبدو أنه يجد منها ذلك مبعثاً لسروره، ويغض الطرف عمّا قد يُحدثه هذا من وخرات الألم ، بل ويزداد افتتناناً بها. وعندما يراها تتحول لتتسلى بدراساتها أو قراءاتها ، أو حتى باللعب مع ابني، ينتابه القلق ، ويحدق فيها المرة تلو المرة ، ويتحدث معها . وأخيراً إذا لم تعره انبهاً فإنه يدع تفكيره الطويل جانباً ويمضى إلى جانبها ، فتستحوذ عليه من جديد. وهذا لا يشبه شيئاً سبق أن رأيته قط ، ذلك الحب بينهما .

* * *

وأخيراً جاء يوم .. أظن أنه كان الثاني والعشرين بعد مقابلة أمى ، حيث أرسلت تستدعى أحى، وأبدت رغبتها في أن تلقاه وحده . كانت كلمات الرسالة رقيقة حتى بلغت حدّ الكرم واللفظ ، فبعثت ذلك الأمل

بين جوانحنا جميعاً ، وذهب أخى إلى هناك على الفور ، وانتظرت أنا والأجنبية عودته .

عاد بعد ساعة ! اجتاز الباب الأمامى بخطى واسعة ، وقدم إلى الحجرة التى كنا نجلس فيها . كان غاضباً ، متجهماً الوجه ، مقطَّبَ الجبين ، وطفق يقول مراراً وتكراراً . إنه سينفصل عن والديه إلى الأبد . لم نستطع فى أول الأمر أن نتبين شيئاً مرتباً منظمًا من حديثه ، ولكننا أخيراً حين ضممنا هذا بذاك وصلنا إلى بعض الحقيقة .

يبدو أنه عندما كان فى طريقه إلى لقاء والدته كان مفعماً بالحب والرقّة والحنان ، والرغبة فى استمالتها واسترضائها ، ولكنه قال إنها منذ البداية لم ترغب فى تقديم أية تنازلات ، لقد استهلت حديثها بالتأكيد على صحتها السيئة ، قائلة .

– لن يمضى وقت طويل حتى تنزعنى الآلهة لأرحل إلى دائرة أخرى من الوجود

تأثر بكلماتها فقال متوسلاً .

– لا تقولى ذلك يا أمى ! ما زال أمامك متسع من الحياة لترى أحفادك . وقد ندم على الفور أنه نبهها إلى تلك الفكرة .

ردت بهدوء .

– أحفاد ؟ أه يا بنى ، من أين سيأتينى أى حفيد إلّا من صُلبك ؟ وابنة «لى» ، زوجة ابنى ، لا تزال عذراء تنتظر !

ثم راحت دون استخدام مزيد من الكلام المذهب تتحدث ببساطة وتحتة على الزواج من خطيبته ليمنحها حفيداً قبل أن تموت . عندئذ قال : إنه الآن متزوج . فقالت بغضب : إنها لا توافق البتة أن تكون الأجنبية زوجة له .

هذا ما جمعناه ورتبناه ممّا قاله .. إننى لا أعرف ما جرى بينهما أكثر من ذلك .

لكن «وانج دا ما » الخادمة المخلصة ، تقول إنها أصاغت السمع من خلف الستارة ، وأن الحديث الساخن بينهما تطاير وتناثر وتطور بشكل غير متوقع ، على نحو غير ملائم بين أم وابن ، فقد كان كقصص الرعود عبر السماء ، وهى تقول إن أخى قد استمسك بالصبر إلى أن هدته أمى بحرمانه من ميراث الأسرة ، عندئذ قال لها بمرارة :

- وهل ستعطيك الآلهة ابناً آخر حتى تلقى بى بعيداً ؟ وهل سيخصبون رَجَمِكَ مرة أخرى فى مثل هذه السن ؟ وهل سَتُطْطِئِينَ رأسك وتنزلين إلى مستوى أدنى وتأخذين ابن إحدى المحظيات ابناً لك ؟ لا شك أنها كانت كلمات غير ملائمة من ابن !

ثم اندفع بقوة خارج المدخل ، وهَرَوَلَ قُدُماً خلال الأفنية لاعتنا أسلافه .. جثم ضمت عميق على حجرة أمى ، ثم سمعت « وانج دا ما » عويلا .. كانت أمى تنوح .. دخلت « وانج دا ما » على وجه السرعة . لكن أمى صمتت فى الحال ، وسألت الخادمة بصوت خافت وهى تعض شفثيها أن تعاونها فى الذهاب إلى فراشها .

من المخجل أن يتفوّه أخى بمثل هذا الكلام لأمى ' إننى لا ألتمس له العذر مهما كان السبب .. كان يجب أن يتذكر سنّها ومكانتها .. إنه يفكر فقط فى نفسه .

أوه ، إننى أحياناً أمقتُ الأجنبية لأنها تحمل قلب أخى فى راحة يدها تماماً ' أتوق إلى الذهاب لأمى على الفور ، لكن زوجى توسل إلى أن أنتظر حتى تستدعيني . أمرنى أيضاً بالانتظار ، لأننى إذا ذهبتُ سيبدو ذلك عملاً ضد أخى ، ولما كان يتناول الآن أرزنا ، فذهابى سيكون جافاً فظاً ، ولهذا لم يكن لى ملاذ سوى الصبر . ويا له من طعام فقير لقلب قلق، يا أختاه '

وهكذا بقيت الأمور معنا .

سرّنى بالأمس أن السيدة « ليو » جاءت لزيارتنا قضينا يوماً عسيراً تذكرنا فيه اليوم السابق حين غضبت أمى على أخى ، فلم يتمر لقاؤهما غير خيبة الأمل أخذ أخى يتسكع فى الحجرات ، لا يكاد يُحادث أحداً ، ويحملك من خلال النافذة إلى الخارج وكان إذا التقط كتاباً ليقرأه فإنه يلقيه بسرعة ليختار كتاباً آخر ، لا لشيء إلا ليعجل بطرحه جانباً .

أما الأجنبية حين لاحظته بهذا الشكل فقد انسحبت إلى أفكارها مع أحد كتبها الصغيرة وشغلتُ نفسى بابنى حتى لا أحتاج إلى الاقتراب منهما غير أن خيبة الأمل جثمت على البيت ثقيلة مرهقة ، حتى أن مَرَحَ

زوجى عندما يجىء ظُهرًا لتناول الأرز ، نادرًا ما كان يُخفف من كآبة
أخى. ولم تخرج الأجنبية عن صمتها ، لذا كان مجيء السيدة « ليو » بعد
الظهر أشبه برياح باردة نقية تهب مختربة حرارة كثيبة مُملّة في أحد أيام
الصف

كانت زوجة أخى تجلس حاملة كتابها في يدها بلا مبالاة كما لو كانت
نصف حاملة فوقه . تَفَرَّسَتْ قليلًا في السيدة « ليو » ، لم يكن يزونا أحد
منذ مجيء أخى ، فقد عرف أصدقائنا موقفنا الصعب فلم يجيئوا
لزيارتنا بدافع من كياستهم ، ومراعاتهم لأحاسيس الآخرين . كما أننا
لم نَدْعُ أحدًا ، لعدم معرفتنا كيفية تقديم الأجنبية إليهم. كنت أدعوها
زوجة أخى مجاملة له ، مع أنها حتى الآن ليس لها موقف شرعى حتى
يعترف أبى وأمى بها .

إن السيدة « ليو » لم تكن مُحَرَجَةً على الإطلاق .. لقد أمسكت بيد
الأجنبية ، وسرعان ما تحدثت الاثنان بسهولة ويسر ، وضحكنا أيضًا .
لم أعرف ماذا تقولان ، إذ كانتا تتحدثان بالإنجليزية . وبدا أن الأجنبية
توقظت وانتبهت فجأة .. كنت أرقبها ، فدهشت لذلك التغير .. إنَّ لها
هاتين الشخصيتين ، واحدة صامته ، منعزلة ، كثيبة بعض الشيء ،
والأخرى هى هذه المبتهجة ، بل وتبدو شديدة المرح .. كنت أرقبهما ،
فكرهتُ السيدة « ليو » لفترة قصيرة ، لأنها بدت غير مبالية بصعوبة
موقفنا، ولكنها حين نهضت مستوية على قدميها لتتنصرف ، شدّت على
يدى ، وقالت بلغتنا :

- إننى آسفة ، هذا صعب على كل إنسان .

واستدارت وقالت شيئاً للمرأة الأخرى ، شيئاً جعل عينيها الزرقاوين
الداكنتين فجأة تتألقان كالفضة ، حيث اغرورقتا بالدموع . وقفنا
ثلاثتنا ، ثم أخذ بعضنا يتطلع إلى بعض ، وقد تَرَدَّدَتْ كل منا فى الحديث ،
وفجأة - ودون سابق إنذار - استدارت الأجنبية وخرجت مسرعة من
الحجرة . كانت السيدة « ليو » ترقبها بوجه اكتسى بشفقة هادئة ،
وعادت تردد

- هذا صعب على كل إنسان . هل العلاقة بين الاثنين سعيدة ؟

ولما كانت السيدة « ليو » صريحة كزوجى فقد أجبتها دون موارد

- هناك حب بين أخى وبينها ، ولكن أمى تموت من خيبة أملها

وأنت تعلمين كم هى ضعيفة واهنة الآن ، وقد أوغلت بها السن إلى هذا
الحد

تنهدت وهزت رأسها

- آه .. إننى أعرف " كثيراً ما أَرَى ذلك الآن .. هذه أيام قاسية بالنسبة
للمسنين . ليس هناك تفاهم ممكن بين الكبار والشباب من الواضح
أنهم قد انفصل بعضهم عن بعض كما يحتز سكين مرهف النصل غصناً
من شجرة .

قلت بصوت خافت :

- هذا خطأ كبير

أجابت .

– كلاً ، ليس خطأً ، إنما هو شيء محتوم يتعذر اجتنابه ، وهذا أكثر ما يدعو إلى الحزن في العالم .

بينما كنا ننتظر يائسين عاجزين لَاعُونْ لنا ، نتطلع نحو إشارة أو علامة تهدينا سواء السبيل ، فإننى لم أستطع أن أنسى أُمى ، فكرتُ ملياً فيما قالته السيدة « ليو » بأن هذه الأيام محزنة بالنسبة لكبار السن ، ولكى أُسَرِّى عن نفسى قلت .

– سأخذ ابنى لزيارة والدِى أبيه ، فهما أيضاً مُسِنَّان ، تَعْلُو وجهيهما أماراتُ الأسَى والاكتئاب .

لقد رَقَّ قلبى لكل هؤلاء المسنين .. ألبستُ ابنى سِتْرَةَ الساتان الطويلة التى تشبه سِتْرَةَ أبيه ، وكنا قد ابتعنا له فى عيد ميلاده الأول قُبْعَةً من المخمل الأسود مثل قبعات الرجال ، وكانت تُناسِبُ رأسه بإحكام ، ولها زر أحمر فى أعلاها ، فوضعتها فوق رأسه ، ولمستُ ذقنه ووجنتيه وجبهته بفرشاة كانت مغموسة فى صبغ الزنجفر القرمزى ، ولما أنجزتُ ذلك بلغ من الجمال حدّاً خشيت معه أن تعتبر الآلهة جماله أكثر مما يستحقه كائن بشرى فتعمل على إهلاكه .

وهذا ما اعتقدته جدته أيضاً حين رآته ، فحملته واحتضنته ، فاهتزت وجنتاها المستديرتان من الفرح والضحك ، وقد استنشقت بشرته التى يفوح منها أريج العطر ، وأخذتُ تُردد فى نشوة وابتهاج غامر :

— آه يا صغيرى !! آه يا بَن ابْنى !

لقد هزنى انفعالها العاطفى ، وأُنَبِّتُ نفسى لأننى لم أُحضره إليها مرارًا ، ولم آسف أننا أخذناه لأنفسنا ؛ فهذا كان جزءًا محتومًا مما يتعذر اجتنابه .. ذلك الذى تحدثت عنه السيدة « ليو » . ولكننى شعرت بالأسى لهؤلاء الذين تتقدم بهم السن حتمًا دون أن يروا استمرارًا لوجودهم ، ولهذا وقفتُ أبتسم وهى تهيم بالطفل . ثم نَظَرْتُ إليه من جديد وقالت بسرعة ، وهى تدير وجهه بيديها من خديه يمينًا ويسارًا

— ولكن ما هذا ؟ إنكِ لم تفعلِ شيئًا لتقيه من الآلهة ! ما هذا الاستخفاف واللامبالاة ؟

ثم استدارت نحو الجوارى وصاحت

— احضرن قرطًا ذهبياً وإبرة !

كنت قد فكرت قبل ذلك أنه يتعين على أن أثقب أذنه اليسرى ، وأُعلِّقُ فيها قرطًا ذهبياً لأخدع الآلهة كي يظنونه بنتًا لا جدوى منها لهم إنها وسيلة قديمة لتحاشى الموت المبكر للابن الوحيد . ولكنكِ تعرفين يا أختاه مدى رقة لحمه ، لقد تقلص جسمى أُلماً من أجله ، وهذا ما حدث لى الآن أيضًا ، ولكننى لم تواتنى الجرأة على أن أنازع حماتى وأجادلها فى حكمتها .

إن ابنتى حين لامستُ الإبرة شحمةً أذنه الصغيرة صرخ واتسعت عيناه رعبًا ، وجذب فمه إلى أسفل ، حتى أن جدته حين رأت ذلك لم تقو

على ثقب أذنه ، وأسقطت الإبرة وأخذت تهمهم وتدمدم لتهدئته، وطلبت خيطاً من الحرير الأحمر ، وربطت به القرط حول أذنه دون ثقبها . عندئذٍ ابتسم ، فأدخلت ابتسامته السرور على قلبينا معاً .

ولما رأيت مكانة ابني بالنسبة لجدته وصلتُ إلى فهم عميق لمدى الألم الذي تُقاسيه أُمى . إن ثمرة حياتها هو حفيدها الذي لم يُولد بعد ولكننى كنتُ سعيدة حين أدخلتُ السرور على قلب جدة ابني ، قد خفف ذلك بعض الشيء مما أشعرُ به من أَسَى وحزن من أجل المسنين .

لقد سُرَّتِ الآلهة يا أختاه لأننى كنت بارّة ومضيت بالأمس مع الطفل إلى جدته لأبيه ، ففى هذا الصباح أتى إلينا رسولٌ يحمل رسالة من أُمى . كانت معنونة باسم أختى ، ولم يكن فيها شيء من كلماتها الغاضبة ، وطلبت من أختى ببساطة أن يذهب إلى البيت وقالت إنها لن تتحمل مزيداً من المسئولية تجاه الأجنبية . كانت المسألة ضخمة بالنسبة إليها ، ويجب أن يتولى والدنا وكبار رجال العشيرة اتخاذ قرار بشأنها .

وفى الوقت نفسه قالت إن أختى يمكنه أن يُحضرها معه إلى البيت ، وعليها أن تعيش فى القاعة الخارجية ، إذ ليس من اللائق أن نجعلها تختلط بالمحظيات وأطفالهن . ثم انتهت الرسالة .

دُهشنا جميعاً إزاء ذلك التَّغَيُّرِ فى عقلية أُمى .. اجتاح الأمل نفس أختى فى الحال ، فارتسمت الابتسامات على وجهه ، وهو يصيح مردداً .

- كنت أعرف أنها ستتخلى عن عزمها في النهاية ! فأنا فوق كل شيء
ابنها الوحيد !

وعندما ذكّرت به بأنه لا يوجد اتجاه منها على أنها رضيت بالأجنبية ،
قال

- طالما كانت داخل الأبواب فسيحبها الجميع .

عندئذ لم أقل شيئاً ، لعدم رغبتى في تثبيط همته ، ولكننى في قلبى كنت
أعرف أن النساء الصينيات لا يحببن الآخرين بسهولة ، ومن المرجح أن
النسوة سيتذكرن ابنة «لى» التى تنتظر إتمام زواجها .

سألتُ رسولَ أمى سرّاً ، فأجاب أنه في الليلة الماضية اشتد المرض على
أمى حتى أنهم جميعاً خشوا في تلك اللحظة أن ترحل إلى مقر الموتى .
ارتفعت الصلوات ، واستدعى الكهنة ، فتحسنت حالتها ، وفي الصباح
عُوفيت بمعجزة ، حتى أنها استطاعت أن تكتب الرسالة بخط يدها .

لقد فهمت في الحال ما حدث حين رأت الموت يدنو منها ، خشيت ألا
يعود ابنها إلى بيته أبداً ولا إلى تأدية واجبه ، فأقسمت في تلك اللحظة أنها
ستستدعيه إذا حفظت الكهنة حياتها .

أحسّ قلبى بالألم إزاء مذلّتيها ، وتلّهُفْتُ على الذهاب إليها فوراً ، ولكن
زوجى قال :

- انتظرى ! ليس لديها قوة لتحتمل أكثر من شيء في وقت واحد .
وحتى التعاطف يكون ثقيلاً ومرهقاً فوق احتمال المريض الضعيف .

عندئذ كبحتُ جماحَ نفسى ، وعاونتُ زوجةَ أخى فى حزم صناديقها .
ولو كان فى مقدورى أن أحدثها تلقائياً بلغتنا ، لقلت لها .
- تذكرى أنها مُسنّة ومريضة ، وأنت أخذتِ منها كل ما كان لها .
بيد أننى لا أستطيع أن أقول شيئاً ، لأن حديثنا معاً تهشمه الكلمات
غير المفهومة .

رحل أخى اليوم هو وزوجته إلى بيت أسلافه ، وسيعيشان فى الشقق
القديمة، حيث أمضى فيها أخى أحداثه ، ولن يسمح لها أن تنام أو تأكل
أو تتسكع فى شقق النساء ، وهكذا تكون أُمى غير معترفة بها .
الآن وقد انصرفا ، أسعدنى أن أكون وحدى مع زوجى وطفلى ، ومع
ذلك فقد رحلتُ بعض الحيوية من البيت حين غادراه ، وكأن رياح الغرب
قد فارقتنا مع مغرب الشمس فتركت وراءها صمماً وسكوناً أقرب إلى
الموت .

إننى أفكر فيهما وأتصورهما وحدهما فى الحجرات القديمة ، وقد قلت
لزوجى فى الليلة الماضية :

- ماذا سيأتى من جرّاء هذه المشكلة برمتها ؟

هز رأسه فى شك ثم قال :

- بهذين الاثنين تحت سقف واحد ، العجوز والشابة ، أشبه بالحديد

يقدر حجر الصوان . مَنْ ذا الذى يستطيع أن يخبرنا أيهما سيمحو الآخر ؟

فقلت .

– وماذا سيجيء من وراء ذلك ؟

أجاب برزانة

– نوع من النيران ستشبه نتيجة ذلك . إنى أشفق على أخيك ليس هناك رجل يستطيع أن يقف مكتوف اليدين بين امرأتين متكبرتين متغطرسين ، إحداهما عجوز والآخرى شابة ، وكلتاها تحبانه حباً عظيماً .

حمل ابننا وأجلسه فوق ركبته ، وقد تعلّق بصره بالطفل ، واستغرق فى التفكير . لم أعرف ماذا كان يدور بخلده .. ولكن الطفل رفع براءة خصلة شعره من فوق أذنه ليكشف مزهواً عن القرط الذى علقتة جدته فيها وهو يصيح .

– أو ترى يادا . دى ؟

وفى الحال نسينا أخى وزوجته .. تطلّع إلى زوجى بنظرة شك وتأنيب، وسأل

– « كواى لان » ما هذا ؟ لقد اعتقدت أننا انتهينا من تلك الأعمال الخرافية الحمقاء !

قلت متعلّمة

- لقد وضعته والدتك في أذنه ، ولم يطاوعنى قلبي على ..

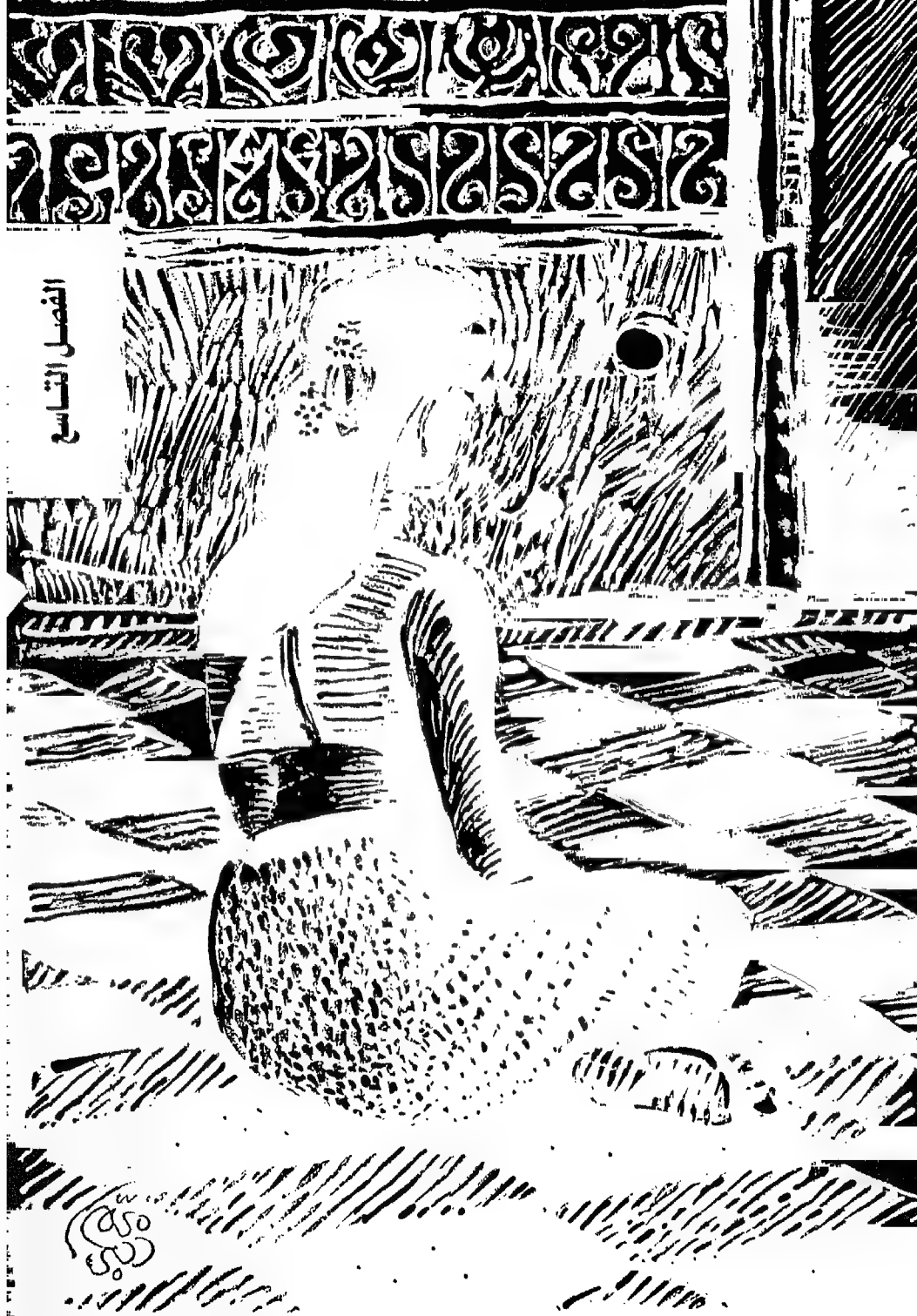
فصاح

- هراء ! يجب أن نفكر في الطفل أولاً ! ولا يمكننا أن ندعه يتلقى مثل هذه الأفكار .

وأخرج من جيبه مُدِيَّةً صغيرة ، وقطع بحرص الخيط الحريري الذي يشد القرط ، ثم مال بجسده وألقى بالقرط خارج النافذة إلى الحديقة ..
وحين ثنى الطفل شفتيه استياءً ، قال له ضاحكاً .

- أنت رجل مثلي ! انظر . إننى لا أعلق قرطاً في أذنى مثلما تفعل المرأة.. إننا رجال .. نحن لا نخشى الآلهة !
ابتسم الطفل لكلمات أبيه المرحّة .

ولكننى في ظلمة الليل فكرتُ في ذلك نصف خائفة . أو يمكن أن يكون القدامى على خطأ دائماً ؟ وماذا لو كان هناك آلهة برغم ذلك ؟ لن أهمل شيئاً يجب أن أفعله من أجل ابنى .. آه ، كم أفهم أمى !



الفصل التاسع

رواية

9
لم أزرُ بيتَ والدتي طوال عشرين يوماً ، كنت مرهقة ومتوتعة، وعندما كنتُ أفكر في أمي وأخي ، يزداد عقلي حيرة وارتباكاً ، فإذا تذكرتُ زوجي انعطفت قلبي إلى أخي ، وإذا حملتُ ابني بين ذراعيّ تعلّق قلبي بأمي .

هكذا بالإضافة إلى أن أمي لم ترسل في استدعائي ، فإذا ذهبت من تلقاء نفسي فربما لا أعرف كيف أحييها ، أو أشرح سبب قدومي . ولما كنتُ أمكث وحدي في البيت الهادئ - وأنتِ تعرفين أن زوجي يعمل طوال اليوم ، وحتى ساعة متأخرة من الليل - فتنتابني الدهشة والتعجب ، وأتخيل وأتصور أشياء عديدة .

كيف تقضي الأجنبية الأيام الطويلة المتناقلة ؟ هل رأتها أمي مرة أخرى، وتحدثت إليها ؟ إنني أعرف أن الجوارى والمحظيات سيثيرهن ذلك فيرقبونهن من خلف الزوايا والأركان ، وأن الخدم سيتذرعون بإحضار الشاي إلى أخي ، ويتعلّلون بهذا أو ذاك من الحيل لكي يروها . ويدور الحديث في المطبخ عنها ، وعن أساليبها ونظراتها ، وكيف تتصرف

وتتكلم ، وينتهى حديثهم دائماً باللقاء اللوم على وجودها في البيت ،
وبالرثاء لابنة « لى » .

وأخيراً قدِمَ أخى ليرانى .. وجلستُ ذات صباح أُطرز زوجاً من
الأحذية لابنى .. فأنت تعرفين أن مهرجان الربيع الصافى لم يبق على
حلوله سوى سبعة أيام لا غير .. وفجأة فتح الباب ودخل أخى دون
سابق إعلان .. كان يرتدى ثوباً صينياً ، وبدا منظره أشبه بما كان عليه
في حادثته من أى وقت مضى منذ عودته ، إلا أن وجهه كان يخيم عليه
الوجوم جلس وشرع يتحدث دون أن يحينى ، كما لو كنا نُكمل حواراً
بدأ من ساعة مَضَتْ .

- هل ستأتين يا « كواى لان » ؟ إنَّ أُمى في أشد حالات الوهن
والضعف ، وأعتقد أنها مريضة ، غير أن إرادتها وحدها بقيت قوية
كعهدنا بها دائماً . لقد أصدرت قراراً بأن تعيش زوجتى لمدة عام وفقاً
للحياة التى تتبعها المرأة الصينية في مسكنها ، ولما كانت التركة كلها التى
سأرثها تتوقف على طاعتها ، فلننا نحاول أن ننفذ رغبات أُمى .. ولكن ما
أشبه ذلك بحبس طائر الصافر الذهبى في قفص ! تعالى وأَحْضِرِى الطفلَ
معك .

نهض وسار في الحجرة جيئةً وذهاباً والقلق يبدو على وجهه ، وعندما
رأيتُ اضطرابه ارتبأكه وَعَدَّتْهُ بالحضور .

وعلى ذلك مضيتُ بعد ظهر ذلك اليوم لزيارة أُمى .. وطاف بذهنى أنه

يجب - وأنا في طريقى عبر الأفنية - أن أتوقف لرؤية تلك الأخرى ،
 زوجة أختى .. لم أتجاسر أن أدع أُمى تعرف أننى إنما جئت لأراها وحدها
 فقط دون أحد سواها . وفي الواقع عزمت على ألا أذكر الأجنبية أمام
 والدتى إلا إذا أتاحت لى الفرصة لذلك .

مضيتُ رأسًا للمثول بين يدى أُمى دون أن أتكلأ في الأفنية ، وعلى
 الرغم من ذلك فإننى لم أكد أصل إلى مساكن النساء حتى جاءت السيدة
 الثانية إلى مدخل بوابة القَمَر ، وأومأت لى من وراء إحدى أشجار الدفلى ،
 ولكننى انحنيتُ لها فقط ، وغذيت السير للقاء أُمى

وبعد أداء التحيات ، استهللنا الحديث عن ابنى ، ثم وانتنى الشجاعة
 لأتفحص وجه أُمى . لقد بدأ عليها بعض التحسن على الرغم ممَّا ذكره
 أختى ، أو على الأقل لم تكن مريضة بالدرجة التى كنتُ أخشاها ، لذا لم
 أسألها عن صحتها ، حيث كنتُ أعرف أن مثل تلك الأسئلة كانت دائمًا
 تثيرها ، على الرغم من أنها لم تكن تتقاعس عن الإجابة بكياسة ولطف .
 وبدلًا من ذلك سألتها

- كيف وجَدْتِ مدى تغيُّر ابنك - أختى - بعد سنواته التى قضاهـا
 بالخارج ؟

رفعت حاجبيها المزججين بدرجة طفيفة .

- نادرًا ما تحدثتُ إليه فى شىء ذى أهمية أُمًا مسألة زواجه من ابنة
 «لى» فهى بلا ريب تنتظر مجيء والده . إنه يبدو أشبه بمظهره السابق ،
 وعلى الأقل منذ أن أرسلتُ كلمة لافتة نظره إلى أن عليه أن يرتدى ملابسه

المعتادة حين عاد إلى البيت . لم يسرنى أن أرى ساقيه فى سراويل على غرار تلك التى يرتديها السَّقاء الذى يحمل المياه

ولما كانت قد تحدثت عن زواجه ، تعمدت أن أسأل فى غير مبالاة ، متظاهرة بأننى أتفحص الرسوم المنقوشة على ردائى الحريرى

– كيف وجدتِ الأجنبية ذات العينين الزرقاوين ؟

كنت مدركة أن جسم أُمى سيتصلب عندئذ ، إلا أنها سعلت فحسب ، ثم أجابت بصوت يُشتمُّ منه أنها تتحدث عن شىء مُهمَلٍ تافه

– أما عن تلك الأجنبية التى تقطن داخل المساكن فلا أعرف عنها شيئاً. لقد أرسلتُ إليها ذات مرة لتعد لى الشاى بعد أن أرهقنى شقيقك بتوسلاته إلى كى أسمح لها بالحضور عندى . ولكننى وجدت أننى لا أستطيع تحمل يديها المرتبكتين غير البارعتين فى تناول الأدوات على نحو سريع ، ونظراتها الهمجية كانت خرقاء تعوزها الرقة معى . وقد أدركت أنها لم تتدرب قط على السلوك القويم مع من يكبرها سنّاً . لن أحاول أن أراها ثانية . إننى تزداد سعادتى حين أتمكن من نسيان الموضوع، وأتذكر فقط أن ابنى قد عاد ليعيش تحت سقف أسلافه .

أدهشنى أن أختى لم يخبرنى بأنها استدعيت كى تعد الشاى لوالدتنا . كانت لحظة لها أهميتها ، ولكننى حين قَلَبْتُ الأَمَرَ فى ذهنى اتضح لى أنه تعمّد عدم إخبارى به ، طالما أنها كانت كريهة فى نظر أُمنا ، ولكننى حين تذكرت قلق أختى تجاسرت على أن أسألها المزيد :

- أو أستطيع أن أدعوها لقضاء ساعة في بيتي المتواضع طالما أنها

غريبة هنا ؟

أجاب ببرود .

- كلا ، لقد فعلت ما فيه الكفاية ، لن أسمح لها بالخروج عبر البوابة الضخمة مرة أخرى طوال إقامتها هنا ، يجب أن نتعلم العزلة الجديرة بالسيدات إذا كانت ستعيش هنا .. لا يعني أن تتحدث المدينة بأسرها عن الموضوع .. إنني أدرك أنها جامحة متمردة على القانون ، لا يقيدها شيء ، ويجب أن تُراقب ويُكبح جماحها لتصبح منضبطة لا تتحدث عنها أبعد من ذلك .

لم يكن لباقي حديثنا أهمية تُذكر ، ورأيت أنها لن تطرق في حديثها شيئاً غير مسائل الحياة اليومية العَرَضية كتمليح الخضراوات للخدم ، وارتفاع أسعار أقمشة ملابس الأطفال ، وأغراس أزهار الأقحوار الواعدة التي زُرعت لتُزهَرَ في الخريف ، ولذا ودَّعْتُها ومضيتُ خارجة .

بيد أنني حين عبرتُ البوابات الصغيرة متجهة إلى الخارج ، قابلتُ أخي، كان ذاهباً إلى بوابة البيت الضخمة ليوجه إلى البواب بعض الأسئلة. ولكنني عرفت على الفور أنه كان ينتظر خروجي ، ولما دنوتُ منه نعرسب في وجهه فرأيت حزماً وتصميماً جعلاه يبدو غريباً في عيني ، إلا أنهما سرعان ما أفسحا الطريق للحيرة والقلق اللتين تضافرتا مع ملابسه الصينية ورأسه الخفيض ليبدو ثانية مثل ذلك النلميذ نصف المكتئب الذي كانه قبل أن يذهب بعيداً .

سألته قبل أن يتحدث .

- كيف حال زوجتك ؟

ارتعشت شفتاه ، وبَلَلهما بلسانه ، وقال :

- ليست على ما يرام . أوه يا شقيقتي ! نحن لا نستطيع احتمال هذه الحياة طويلاً ، يتحتم عليّ أن أفعل شيئاً . أرحل بعيداً ، وأبحث عن عمل . سكت عن الكلام ، ورحتُ أستحثه على الصبر قبل أن يقرر الرحيل ، وألاً يستهين بسماح أُمى للأجنبية بالمجيء إلى البيت ، وأن فترة سَنَة ليست بالطويلة .. ولكنه هز رأسه وقال مُثَقَّلاً مهموماً

- إن زوجتي بدأت نفسها تئأس ، فهي لم تقنط ولم يهن عزمها حتى جئنا إلى هنا ، أمّا الآن فهي تذبل من يوم لآخر .. إنها لا تستسيغ طعامنا ، ولا أستطيع أن أدبّر لها طعاماً أجنبياً . وهي لا تأكل شيئاً .. كانت في وطنها معتادة على الحرية ، وتلقى هناك الثناء والتقدير . وتعدُّ مليحة جميلة في بلدها ، وكثير من الرجال قد أحبوها ، وكنت فخوراً مزهواً أن أظفر بها من دونهم جميعاً . واعتقدتُ أن ذلك يثبت تفوق جنسنا .

ثم استطرده قائلاً

- ولكنها الآن تشبه زهرة قُطِفَتْ وَوُضِعَتْ في آنية للزينة ، ولكن دون ماء ، وهي تجلس صامتة يوماً بعد يوم ، وعيناها تحترقان في وجهها الناصع البياض الذي اعتراه الشحوب .

تعجبتُ وأنا أسمع شقيقي يعتبر محبة كثير من الرجال لإحدى النساء

ميزة من مزاياها ، وقضيلة من فضائلها . فمثل هذا الثناء والإطراء لا يليق هنا إلا بإحدى بائعات الهوى ، فكيف يتطرق إليها الأمل في أن تصبح واحدة منا في يوم من الأيام ' غير أنه بعد أن تحدّث قفزت إلى ذهني فكرة جديدة ، فسألت في لهف :

— أو ترغب في العودة إلى ذَويها ؟

هنا رأيت حلًّا ، فهي إذا ذهبت بعيدًا وامتدت البحار بينهما مرة أخرى، فإن أخى مع ذلك ليس إلّا رجل ، سيكف عن التفكير فيها ، وسيعود إلى أداء واجبه .. ولكنني لن أسارع إلى نسيان نظرتة حينما قلت له هذا ، فقد لآخ لى أن عينيه تنظران نحوى في غضب ، وقال في عنف فجائى :

— لو ذهبت فسأذهب معها ، وإذا ماتت في بيتى هذا فلن أكون ابنًا لوالدى إلى الأبد !

أُنَبِّئُهُ برقة لهذه الكلمات العاقّة ، فإذا به لشدة دهشتى ينشج وينفجر متنهّدًا بأنفاس سريعة متلاحقة ، ثم استدار وهرول خارجًا .

وقفت هناك لا أكاد أعرف ماذا عساي فاعلة ، إننى أرقب شخصه المنحنى يتراجع إلى المسكن الآخر الذى يقطنه . عندئذ بعد أن مكثت برهة مترددة حائرة ، وفي الواقع نصف خائفة من أمى ، ذهبت في إثره أنشد اللحاق به .

دخلت لَرى الأجنبية .. كانت تسير بقلق في الفناء الداخلى لشقة أخى

.. كانت ترتدى زيها الأجنبى مرة أخرى ، ثوبًا مهندمًا ذا لون أزرق قاتم ، مفتوحًا من أعلى ليكشف عن عُنقها الأبيض العارى . وحملت في يدها كتابًا أجنبيًا مفتوحًا ، مطبوعًا بسطور قصيرة من الحروف الممتدة وسط كل صفحة ، في مجموعات صغيرة .

كانت تتجول وهى تقرأ وتقطب جبينها وهى تلتهم السطور بعينيهما ، ولكنها حين رأتنى انفرجت أساريرها وهى تبسم ، ووقفت ساكنة حتى أصبحت بجوارها ، ثم تحدثنا بكلمات قليلة ، كلمات عرضية كيفما اتفق .. إنها تستطيع أن تتحدث الآن جيدًا إذا تكلم معها المرء في موضوعات بسيطة ، وقد رفضت أن أدخل إلى مقر إقامتها ، إذ يجب أن أعود لابنى ، فانتابها الأسف وأشرت إلى شجرة العرعر القديمة ، وهى من الفصيلة الصنوبرية ، الموجودة في الفناء ، وتحدثت عن لعبة كانت تصنعها لابنى من القماش المحشو بالقطن . شكرتها .. ولم يعد هناك ما نقوله . انتظرت ، ثم شرعت أودعها ، وأنا أشعر بألم غامض ، لأن هناك بحرًا تفصل بيننا ، وليس بوسعى أن أفعل شيئًا لأساعد أخى وأمى .

ولكننى حين استدرت لأمضى خارجة ، أمسكت بيدي على حين غرة ، وتشبثت بها بشدة ، وهنا نظرت إليها ، فرأيت الدموع ترتعد في عينيها ، فطوّخت برأسها في حركة سريعة ، فطفرت الدموع منها وتساقطت . هزّنتى الشفقة عليها وأنا أهمهم - دون أن أعرف ماذا أقول - عدا وعدى لها بزيارة سريعة ثانية . ارتجفت شفتاها وهى تحاول الابتسام .

وهكذا مرَّ شهر قمرى آخر ، ثم عاد أبى إلى البيت . ومن الغريب أنه اهتم اهتماماً بالغاً بزوجة أخى ، ومال إليها . قالت « وانج داما » إنه ما إنْ دخل من البوابة الضخمة حتى سأل عمّا إذا كان أخى قد أحضر الأجنبية إلى البيت ، وحين سمع بحضورها غيّر ملبسه ، وأرسل بكلمة قائلاً : إنه سيزور شقة أخى حالما ينتهى من تناول طعامه .

دخل بلطف مبتسماً ، وتقبل انحناءة احترام أخى ، وطلب أن يرى الأجنبية ، وعندما قدِمَتْ ضَجَّ بالضحك ، وراح يتفحص مظهرها ، وعَلَّقَ بحرية على طلعتها وهيئتها ، وهو طَلَّقَ المحيّا قائلاً فى وُدٍّ .

– إنها وسيمة تماماً ، على طريققتها

ثم أردف

– حسناً ، حسناً ، هذا شىء جديد فى الأسرة .. وهل يمكنها أن تتكلم لغتنا ؟

لقد استاء أخى من حرّيته فى الحديث ، وأجاب باقتضاب . إنها تتعلمها.

أفرط والدى فى الضحك وصاح :-

– لا بأس ، لا بأس .. أظن أن كلمات الحُبِّ لها صوت حلو عذب أيضاً باللسان الأجنبى .. ها .. ها .. ها !

وانطلق يضحك حتى أخذ جسده البدين يهتز .

أمّا هى فلم تستطع أن تفهم كل كلماته التى يقولها بطيش ولا مبالاة

كدأبه حين يتحدث بصوته القوى العميق ، ولكنَّ الودَّ الدافئ الذي أبداهُ لها أوقع في نفسها شعورًا بالرضا والابتهاج ، ولم يستطع أخى أن يخبرها افتقار والده إلى احترامه لها .

وقد نَمَّا إلى أن أبى كثيرًا ما يزورها الآن ويُعابثها ، ويحدق فيها بحرية ، ويُعلِّمها كلمات وتعبيرات جديدة من لغتنا ، وأرسل لها حلوى ، وفي إحدى المرات شجرة ليمون بحجم يد « بوذا » داخل إناء أخضر مصقول .. ومن ناحية ثانية كان أخى يحرص على أن يكون موجودًا في كل هذه المقابلات

إنها مثل الطفلة ، وهى لا تفهم شيئًا على الإطلاق .

ذهبتُ لزيارة زوجة أخى مرة أخرى بالأمس ، بعد أن قدمتُ التهنئة لأُمى بيوم العيد .. لم أجروُ على أن أجازف بإثارة استياء أُمى وغضبها بأكثر من الزيارات العابرة للأجنبية ، لئلا تمنعنى تمامًا من الذهاب إلى شقة أخى .

سألتها

– هل أنتِ أسعدُ حاليًا ؟

ابتسمت ابتسامة سريعة أضاءت وجهها المتجهم كشمس تشرق فجأة من خلف سحابة معتمة .

أجابت

- نعم ، ربما ! فالأمور على الأقل لا تسير معنا على نحو أسوأ . لم أَرِ
أُمّه سوى مرة واحدة حين طلبت منى أن أعد لها الشاي ، ولم يسبق لى
قط طوال حياتى أن أعددتُ شايًا بهذه الطريقة ! ولكنَّ أباه يأتى ليرانا كل
يوم تقريبًا .

قلت لها

- سنصبر ، فسيأتى يوم تلين فيه الأم الجليدة المهيبة
قَسًا وجهها على الفور ، وتحدثت بكلمات مركزة قالتها بصوت
خافت

- ليس الأمر كما لو كنتُ قد فعلتُ شيئًا . لا ريب أنه ليس خطأ أن
نحب ونتزوج ؟ إنَّ أباه هو الصديق الوحيد لى فى هذا البيت .. إنه ودود
وشفوق معى ، ويمكننى أن أقول لك إننى بحاجة إلى العطف والحنان !
ولا أعتقد أننى يمكننى الصمود أكثر من ذلك محبوسة بهذا الشكل !

طوحت بشعرها الأصفر القصير إلى الوراء ، وفجأة أطل الغضب من
عينيهما ، واكفهرَّ وجهها .. رأيتها تنظر إلى الخارج نحو المساكن الأخرى ،
فتتبعتها بعينى ، وإذا بها تصيح

- انظرى إلى هناك مرة أخرى ! هاهن . إننى أشبه بمسرحية بالنسبة
لهؤلاء النساء ! إننى مرهقة وسئمت حتى الموت من تحديقهن . لماذا هن
هناك دائمًا يتهاמשن ، ويختلسن النظر ، ويُشرن نحوى ؟

أومأت برأسها صوب بوابة القمر حين كانت تتحدث . هناك كانت

المحظيات ونصف دسته من الجوارى قد تجمعن عند المدخل . كن يأكلن
 الفول السودانى فى خمول ، ويُلْقِمنه لأطفالهن ، ولكنهن كن يسترقن
 النظر خفية إلى الأجنبية ، واستطعتُ أن أسمعهن يضحكن . قطبتُ جبينى
 ونظرتُ إليهن بوجه متجهم ، ولكنهن تظاهرن بعدم رؤيتهن لى . وأخيراً
 سحبتنى معها إلى الحجرة ، صفقت ضلقتى الباب الخشبى الثقيل فى
 وجوههن ، وأحكمتُ غَلْقَهُ بالمزلاج .

قالت وهى تَنقِدُ غضباً .

- لا يمكننى احتمالهن ، ولا أستطيع فهم ما يَقُلْنَهُ ، ولكننى أعرف
 أنهن يتحدثن عنى من الصباح حتى المساء

قلت لتهدئتها

- لا تُعِيرُهُنَّ انتباهاً ، فهن جميعاً جاهلات .

ولكنها هزت رأسها قائلة .

- لا يمكننى أن أحتمل ذلك يوماً بعد يوم .

لكنها قطبت وجهها وصمتت ، وبدأ عليها التفكير ، وانتظرت ،
 وجلسنا معاً فى الحجرة الكبيرة المعتمة . وأخيراً تطلعت حولى ، طالما لم
 يكن هناك ما يقال ، ولاحظت التغييرات التى قامت بها لتجعل الحجرة
 على ما اعتقد ذات طابع غربى ، إلا أنها بدت فى عينى شديدة الغرابة .

كانت هناك بضع لوحات عُلِّقَتْ على الجدران بلا نظام ، ومن بينها

بعض الصور الفوتوغرافية داخل إطارات . ولما رأتنى أنظر إليها أشرق
وجهها وقالت بشوق

- إنهم والدائ وشقيقتي

سألتها .

- أليس لك أخ ؟

هزت رأسها ، وتكورت شفاتها قليلاً .

- كلا ، ولكن هذا لا يهم ، فنحن لا نهتم بأبنائنا فقط .

تعجبت بعض الشيء من لهجتها ، ولكننى لم أفهمها ، واستويتُ
واقفة لأتفحص الصور . كانت الأولى صورة رجلٍ عجوز وقور ذى لحية
قصيرة بيضاء مدبية .. كانت عيناه تشبهان عينيها ، تأثرتين ثقليتى
الأجفان . وله أنف شامخ ، ورأسه أصلع

قالت وعيناها مثبتتان بحنان وإعزاز على وجه الرجل العجوز .

- إنه يعمل بمهنة التعليم ، فهو أستاذ فى الكلية التى حدث فيها أول
لقاء بينى وبين أخيك من الغريب أن يُرى فى هذه الحجرة ، فهو غير
مناسب هنا . تمامًا كما أبدو أنا أيضًا غير مناسبة .

وأضافت فى صوت خفيض حزين .

- ولكن وجه والدتى هو الذى لا أستطيع أن أحتمل التطلع إليه فى هذه

الأيام

كانت قد جاءت ووقفت بجانبى بقامتها المديدة التى تفوقنى فى الطول كثيراً، إلا أنها استدرت مبتعدة عن الصورة الثانية ، ورجعت إلى المقعد الذى نهضت منه ، والتقطت قطعة من القماش الأبيض من فوق المنضدة القريبة ، وبدأت فى حياكتها . لم أكن رأيته قط تمارس الحياكة قبل الآن . وقد وضعت فوق أصبعها قلنسوة معدنية غريبة لا يمكن أن تكون بأى حال مثل « الكستبان » الحقيقى الذى يحيط بالأصبع الوسطى ، وأمسكت بالإبرة كما لو كانت خنجراً . ولكننى لم أقل شيئاً . ذهبت لأتفحص وجه أمها . كان صغيراً ورقيقاً وناعماً حنوناً بطابعه الخاص، على الرغم من أن ملاحظته قد أفسدت طريقة تكتل الشعر الأبيض حوله . أما وجه الشقيقة فهو يشبه وجه أمها بوضوح ، على الرغم من أنه كان صغيراً وضاحكاً . سألتها بلطف

— هل تشاقين بشدة لرؤية والدتك ؟

ولكننى دهشت حين هزت رأسها وقالت بطريقتها المفاجئة القاطعة :

— كلا ، بل لا أستطيع حتى أن أكتب إليها

سألت متعجبة :

— لماذا ؟

— لأننى أخشى أن يتحقق كل ما كانت تخاف أن يحدث لى .. ولا أودُّ

لها البتة أن ترانى على الحال التى أعيشها هنا ! وهى تعرفنى جيداً ،

ستدرك بوضوح ما أعانيه إذا كتبت إليها . لم أكتب لها على الإطلاق منذ
أن أتيتُ إلى هذا المكان .

ثم استرسلت .

– أوه ، هناك في بلادى بَدَا كل شيء مدهشًا .. فقد اعتقدتُ شقيقتى
الصغرى أنَّ حينا هو أكمل رومانسية يمكن تخيلها . والنسبة لى
فإنك لا تعرفين كم كان مُحِبًّا مثاليًا . فقد اعتاد أن يقول أشياء بطريقة
يبدو معها الغزل والحب الذى يبثه أى رجل آخر مملاً تافهاً مبتذلاً . كان
غَزْلُهُ يبدو جديدًا . غير أن أُمى كانت دائماً متخوفة !

سألتها مشدوهة .

– ما الذى كانت تخشاه ؟

– ألا أكون سعيدة بذهابى هكذا بعيدًا .. وألا يتقبلنى أهله .. أو لعلمهم
يفعلون شيئاً يودى إلى إخفاق الموضوع بأكمله . إننى أشعر بأن كل
شئ يسير على نحو خاطيء مغلوط ، ربما ! فأنا لا أعرف .. ولكن يبدو
لى أن شبكة تتجمع لتلتف حولى . إننى وأنا أعيش محبوسة خلف هذه
الأسوار العالية أتخيل أشياء عدة .. لا يمكننى فهم ما يقوله هؤلاء
الناس .. لا أعرف ماذا يضمرون .. إن وجوههم لا تفصح عن شئ ،
ويعترينى الخوف ليلاً .

واستطردت قائلة

– ثم إننى أحياناً أظن أن وجهه يُحاكى وجوههم ، ناعمًا جامدًا كما

لو كان يضع عليه قناعاً لا يكشف عمّا يعتمل داخله من مشاعر . أمّا هناك في بلادى فكان يبدو كواحد منا ، بل وكان أكثر سحرًا ، ويمتاز بفتنة جديدة لم أرها قط من قبل . ولكنه يبدو هنا ينسلّ عائداً القهقري ، وجانحاً إلى الغرابة .. إنه يفلت من بين يديّ بعيداً . أوه ، إننى لا أعرف كيف أعبر عن ذلك ' لقد اعتدت دائماً على الصراحة والمرح ، وأن أتحدث في صدق بكلام مباشر مستقيم . وهنا أجد الصمت المطبق ، والانحناء ، والعيون المتلصصة تزحف نحوى . ربما أستطيع أن أتحمّل سلبيّ حريتي بهذا الشكل إذا عرفتُ ماذا وراء كل ذلك . ولكن . أوّ تعرفين أننى قد أخبرته هناك في وطنى أنه يمكننى أن أصبح صينية ، أو « هونتونية » ، أو أى شىء من أجله . بيد أننى لا أستطيع ، لا أستطيع ' إننى سأظل أمريكية على الدوام '

لقد انهمر كل هذا ، واندفع متدفقاً ، نصفه بلغتها ، ونصفه بالقليل الذى تعرفه من لغتنا ، وكان حاجباها يلتويان ، ويدها تتحركان ، ووجهها مكفهرًا .. لم أحلم قط أن يكون في جعبتها كل هذا الحديث . لقد صَبَّتْهُ كما تنفجر المياه وتتدفق فجأة من إحدى الصخور الصّماء . أصابنى ارتباك شديد ، لأننى لم أرق قط قلب امرأة عارياً هكذا ، ومع ذلك فقد هزنى نوع من الشفقة الغامضة تجاوباً معها .

وبينما كنت أفكر فيما أقوله لها إذ دخل أخى من حجرته المجاورة لنا ، كما لو كان سمع كل ما قيل ، وإذا به يتجاهلنى ، ومضى إليها ، وتناول يديها اللين كانتا مشغولتين بالتطريز ، وركع إلى جانبها وهو ما زال

ممسكاً بيديها ، وراح يضغطهما على وجنتيه . ثم رفعهما فوق عينيه ونكس رأسه . ترددتُ ، فقد كنت لا أدري هل أذهب أو أبقي . تم نظر إليها بوجه أضناه القلق . وهمس بصوت أجش :

- ماري ، ماري ، لم أسمعك قط تتحدثين هكذا ! هل تَشْكِينِ في حقِّ ؟
لقد قُلْتُ لي في بلدك إنك ستأخذين جنسى وقوميتي وتشاركينني إياهما .
حسناً إذا كان ذلك مستحيلاً في نهاية ذلك العام ، فسنترك كل شيء خلفنا ، وسأصبح أمريكياً معك ، فإذا تعذَّر هذا فسنجد دولة جديدة ، وجنساً جديداً في مكان ما ، حتى يمكننا أن نكون معاً يجب ألا ترتابي في يا حُبِّي !

لقد فهمتُ كثيراً مما قاله ، لأنه تحدث بلغته الأصلية ليعبر عما يجيش في نفسه بمزيد من الحرية ، ثم بدأ يتمتم إليها بلغة أخرى ، ولا أعرف ماذا قال لها ، ولكنها ابتسمت ، ورأيت أنها تستطيع تحمُّل الكثير من أجله . أحنت رأسها حتى استكانت فوق كتفه ، وغابا في صمت خفق خلاله قلباهما . خجلت من أن أطيل بقائي أمام هذا المشهد من الحب المكشوف

لذا تسللت خارجة بهدوء ، متذرعة بتعنيف الجوارى اللاتي كن يختلسن النظر إليها من خلال البوابة . ومن الطبيعي أننى لم أستطع أن أوبخ محظيات أبي ، إلا أننى تعمدتُ أن أتحدث إلى الجوارى على مسمع منهن ، وهن لسن أكثر من خاويات جاهلات ، بل وفضوليات صفيقات .

وقد قالت المحظية البدينة وهى تمضغ بصوت عال ، وتتلمظ بشدة
أمام كعكة ذات نكهة شهية .

- أئى أمرىء ذى مظهر ساخر وهمجى يجب أن يتوقع تحديق الـ
فيه، بل وضحكهم عليه أيضًا !

فقلت بقسوة وصرامة على قدر ما أمكننى

- ومع ذلك فإنها إنسانة ، ولها أحاسيس مثل أحاسيسنا .

غير أن السيدة الثانية هزت كتفها وهى تلوك الطعام فى فـ
وتمسح أصابعها فى كم رداؤها

خرجتُ غاضبةً ، حتى أصبحتُ على مقربة من بيتى قبل أن أدر
غضبى كان بأكمله من أجل زوجة أخى ، وليس ضدها .

* * *

والآن يا أختاه ، لقد حدث ما كنا لا نرغب فيه .. فقد حملت
أدركت ذلك منذ عدة أيام قبل أن تخبر به أخى بطريقته الأجنبية الـ
المتحفظة . وما إن أبلغته بهذا حتى أخبرنى به الآن .

وهذا شئ لا يبعث على الابتهاج ، وحين سمعتُ به أمى حملو
فراشها ، ولم تعد قادرة على النهوض من فرط أساها ، فهذا ما
تخشاه وترتعب منه ، ولم يعد جسمها الضعيف يستطيع أن يصمـ
خيبة الأمل هذه ، إنك تعلمين كيف كانت ترغب فى أن تكون أولى
للأسرة من لحم أخى . والآن لما كان ذلك لن يتحقق ، فهى تعتقـ

الفضيلة قد غادرته من أجل لا شيء ، لأن ذلك الصبي من المسحيل أن
تعتبره حفيداً لها .

عندئذ ذهبت لزيارة أمي ، فوجدتها مستلقية على فراشها دون حراك.
كانت عيناها مغلقتين ، وفتحتهما برهة فقط لتراني قبل أن تغلقهما ثانية .
جلستُ إلى جوارها بهدوء ، وانتظرتُ في صمت . وفجأة تغير وجهها كما
حدث في يوم سابق ، فبدا مرهقاً منطفضاً ساكناً بلون الرماد المفزع ،
وبدأت تتنفس بمشقة .

أصابني الرعب ، وصفقت استدعى إحدى الجوارى ، فجاءت « وانج »
دا ما « نفسها وهي تعدو حاملة غليوناً من الأفيون مشتعلًا ، تتصاعد
منه سحب الدخان . أمسكت به أمي وراحت تدخن يائسة ، فسكن ألمها

ولكنني حين رأيتُ ذلك شعرت بعدم ارتياح ، فمن الواضح أن الألم
كان مألوفاً حيث كان غليون الأفيون مُعدًّا ، والمصباح مشتعلًا . وحين
هممتُ بالتحدث عن هذا ، فمنعتني أمي قائلة بحدّة

– هذا لا شيء . لا تُزعجيني .

لم تقل شيئاً أكثر من ذلك . وبعد أن بقيت إلى جوارها قليلاً ، انحنيتُ
وخرجتُ . ولما مررت خلال مقر الخدم ، سألت « وانج دا ما » بخصوص
أمي ، فهزت رأسها :

– إن السيدة الأولى تعاني بهذا الشكل كل يوم عدة مرات تزيد على
عدد أصابع اليدين . كان الألم عرضياً لسنين طويلة ، غير أنك تعرفين

أنها لن تبوح بشيء من شئونها الخاصة ، ولكنها بتأثير أحزان هذا العام
أصبح الألم مستمراً . إنى أحرص أن أكون على مقربة منها على الدوام ،
فأرى وجهها حين يتحول إلى اللون الرمادى ، وعندما ينتفض ألماً فى مطلع
الفجر حينما أقدم لها الشاي . غير أن بعض الأمل قد ساندتها على تحمّل
الألم حتى الأيام القلائل الأخيرة . أمّا الآن فقد انهارت كشجرة اجْتُثَّ
آخر جذر فيها بضربة فأس قاطعة

أمسكتُ أمى بطرف مريلتها الزرقاء ، ومسحتُ عينيهما ، ثم تنهدت .
آه ، إننى أعرف الأمل الذى قَوَّى من احتمال أمى ، ولم أقل شيئاً ،
ولكننى عُدْتُ إلى بيتى وبكىُّ ، وأخبرت زوجى ، وتوسلت إليه أن يذهب
معى لنراها ، بيد أنه نصحنى بأن أنتظر ، وقال .

— إذا أكرهت أو أغضبتْ فستزداد حالتها سوءاً ، وعندما يجيء
الوقت المناسب توسِّلِ إليها كى ترى طبيباً ، ولن تكون عليكِ مسئولية
أكثر من ذلك نحو شخص بلغ من الكبر عتياً .

إننى أعرف أنه على حق دائماً ، ولكننى لا أستطيع أن أطرح جانباً
إحساسى بنذير الشر

يبدو أن والدى سرَّه أن الأجنبية ستلد طفلاً . وها هو ذا يصيح عندما
سمع بذلك

— آه ، ها ! الآن سيكون لنا أجنبيّ صغير نلعب معه ! هاى .. يا ! لعبة جديدة لاشك ! سندعوه المهرج الصغير ، وسوف يُسلينا !
دمدم أخى متذمراً من هذه الكلمات .. لقد بدأ يكره والدنا من أعماقه ،
واستطعتُ أن أرى ذلك .

أما الأجنبية فقد تخلّت عن الحزن ، وزايلها اليأس .. وعندما ذهبت لرؤيتها كانت تغنى بلحن أجنبى غريب ، ولما سألتها عن معناه ، قلت إنها أغنية تجلب النعاس للطفل .. تعجبتُ ، كيف يمكن أن يهدأ الطفل وينام لدى سماعها ؟! يبدو أنها نسيت ما كشفته لى عن تعاستها فى ذلك اليوم وهى وأخى قد جدّدا حُبهما ، ولم يعد الآن أى مكان فى عقلها لغير الطفل القادم .

إننى أتشوّ من أعماق قلبى لرؤية هذا الطفل الأجنبى ، لا يمكن أن يكون جماله مضارعاً لجمال ابنى ، قد تكون طفلة ، وربما سيكون لها شعر أمها الأصفر المتوهج . آه ، يا لأخى المسكين ! إنه تعيس مُحْبَط ! هناك الآن طفل سيولد ، فأصبح أخى أكثر تلهفاً من أى وقت مضى على إثبات المكانة الشرعية لزوجته ، وهو يُلمّح يومياً إلى والدنا بهذا الموضوع ، ولكن أبانا يتملص منه بالابتسام ، والحديث المتمهل عن أشياء أخرى .

وفى اليوم الثانى من العيد قال أخى إنه سيلح على ذلك الأمر أمام رجال العشيرة فى قاعة الأسلاف قبالة لروحاتهم المقدسة ، حتى يولد الطفل شرعياً كابنه البكر ، ومن الطبيعى إذا جاءت بنتاً فالأمر لن يكون ذا أهمية ، ولكننا لا نستطيع أن نتبيّن شيئاً من المستقبل

إننا الآن في الشهر القمري الحادى عشر من العام . الثلج يكسو الأرض ، يجثم ثقیلاً على أعواد الخيزران فى الحديقة ، فتبدو كبحر ذى موجات بيضاء يعلوها الزبد حين تحركها الرياح بلطف . نالت زوجة أخی شهرة بالطفل الذى تحمله فى أحشائها ، ففى بيت أُمى هناك إحساس ثقیل بالانتظار . إننى أسأل نفسى يومياً . لماذا ؟

حين نهضت من فراشى هذا اليوم رأيت الأشجار عارية ، واسودَّت تحت سماء رمادية شتوية عاصفة . استيقظت فجأة وأنا أشعر بالخوف كما لو كنت أصحو من حلم مشئوم كره ، ومع ذلك فحين اختبرت ذاكرتى اكتشفتُ أننى لم أحلم بشىء . ترى ما معنى حياتنا ؟ إنها فى أيدى الآلهة ، ونحن لا نعرف شيئاً سوى الخوف

حاولتُ أن أتبين لماذا أنا خائفة ؟ هل من أجل ابنى ؟ ولكنه أسد صغير فى قوته ، وهو يتحدث الآن كملك يحكم العالم . لا أحد يجرؤ على عدم طاعته ضاحكاً غير أبيه ، أمّا بالنسبة لى ، فأنا جاريتته ، وهو يعرف ذلك . يا للخبيث ! إنه يعرف كل شىء . كلاً إن خوفي لا يرجع إلى ابنى .

غير أننى مهما حاولتُ أن أتعلل الأمر فلا يمكننى أن أطرح قلقى جانباً ، أو إحساسى الغريزى بالشر الذى سينقض علينا من السماء مستقبلاً ، إننى أنتظر أن تعلنه الآلهة ، إننى متأكدة من مقصدهم المملوء بالحق والغل . أياكون ابنى برغم كل شىء هو الهدف ؟ إننى مازلت نصف خائفة بعد أن طَوَّحْنَا بالقرط بعيداً .

وها هو ذا والده يضحك ، صحيح أنه سليم من رأسه إلى قدمه ،

وشهيته تكفى لإثارة دهشتى .. إنه الآن يدفع ثديي بعيداً عنه ، ويطلب
الأرز والعودين اللذين يتناولهما ثلاث مرات يومياً . لقد فطمته عن
الرضاع ، وهو رجل . آه ، لا يوجد من يماثل ابني في قوّته !

ازدادت أُمى ضعفاً . وكم وددت ألا يرحل أبى ، فحينما أصبح أخى
مزعجاً بإلحاحه من أجل زوجته ، وجد والدى ما يشغله من أعمال
تجارية بإلحاحه من أجل زوجته ، وجدو والدى ما يشغله من أعمال
تجارية فى «تينتسين» فتغيب شهوراً عدة ، أمّا الآن حين غدا الشر معلقاً
فوق بيته فيجب أن يعود . إنه لا يهتم بشيء سوى مسراته ، كعادته
دائماً ، ولكنه يجب أن يتذكر أنه ممثل أسرته أمام السماء .

ومع ذلك فلا أجرؤ على الكتابة إليه ، فأنا مجرد امرأة تستحوذ عليها
مخاوف النساء ، قد لا يكون هناك شيء ، ولكن إذا لم يكن هناك شيء
فلماذا يحدق بنا هذا التوقع القاسى الذى ننتظره يوماً بعد يوم ؟

لقد أخذتُ بعض أعواد البخور وأحرقتها أمام الإلهة « كوان - ين »
سراً ، مخافة أن يضحك زوجى منى . قد يكون سائغاً ألا نعتقد فى الآلهة
حينما لا تكون هناك مشكلة تدنو منا ، ولكن إذا رفرف الحزن بأجنحته
السود فوق أحد البيوت فبمن نستغيث ؟ لقد صليتُ لها قبل أن يُولَد
طفلى فسمعتنى واستجابت لى .

هذا اليوم يعلن بداية الشهر القمري الثانى عشر . إن أُمى تترقد فى

فراشها ساكنة بلا حراك ، وقد بدأت أخشى عليها ألا تستطيع أبداً النهوض منه. توسلتُ إليها أن تستدعى الأطباء ، فوافقت في النهاية ، وأخاف أن يكون ذلك نتيجة تعبها منى فاستقدمت « تشانج » الطبيب الشهير ، والمشتغل بعلم التنجيم الذائع الصيت ليعنى بها ودفعت له أربعين أوقية من الفضة ، وقد وعدها بالشفاء . وأثلج صدرى حين قال هذا ، حيث يعرف الجميع أنه حكيم

ولكننى تعجبت متى تحل ساعة الفرج والتماثل للشفاء .. إنها تدخن الأفيون المحشو به غليونها على نحو متواصل لتقضى على الألم في أعضائها الحيوية ، وهى فى حالة نعاس لا يمكنها من الحديث ، ووجهها أصفر باهت، وجلدها مشدود فوق العظام حتى أصبح جافاً ، وله ملمس الورق الرقيق .

التمستُ منها أن ترى زوجى لعله يحاول علاجها بالأدوية الغربية ، ولكنها أَبَتْ . وتمتعت بأنها كانت شابة ، والآن صارت عجوزاً ، ولكنها لن تستطيع أبداً احتمال الطرق والأساليب التى يتبعها الهمجيون . أمّا زوجى فهو يهز رأسه حين أُحْدِثُهُ عن أمى ، وإنى لأرى أنه يعتقد أنها قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى من دخول ظُلْمَةِ الموت .

أه يا أمى " يا أمى "

أخى لا ينبس ببنت شفة من الصباح حتى الليل ، فهو يجلس فى

سكينة مستغرقًا في التفكير داخل شقته الخاصة ، محدقًا بعينه ، مقطبًا
جبينه ، وحين ينتبه من أعماق ذاته فإنما ليعبر فقط عن نوبة مسعورة
من الحب والحنان نحو زوجته .. لقد صارا يعيشان في وجود خاص
بهما، في عالم يقيما فيه وحدهما مع طفلهما الذي لم يُولد بعد

وقد قام بوضع حاجز من عصي الخيزران المجدولة على بوابة القمر
حتى لا تتمكن النساء الحاملات من استراق النظر إليها

وعندما أتحدث معه عن والدتنا يتصامم غير راغب في الإصغاء .
وينطلق قائلاً المرة تلو المرة كطفل غاضب

– لن أستطيع أن أسامحها .. لن أستطيع أن أسامحها !

لم يسبق قط طوال حياته أن رُفض له أى شيء ، وهو الآن لا يمكنه
أن يسامح أمه !

وظل عدة أسابيع لا يذهب ليراها ، ولكنه أخيرًا تأثر قليلًا بمخاوفه
وتوسلاته ، فمضى معي ووقف بجوار فراشها ، وظل واقفًا في صمت
عنيده ، رافضًا أن يُحييها . نظر إليها ، وفتحت عينيها وتطلعت إليه بثبات
دون أن تنطق بكلمة .

ومع ذلك ، فحين انسحبنا معًا من حضرتها ، وعلى الرغم من أنه لم
يتحدث عنها حتى معي ، فإنني لاحظتُ أن وجهها المريض قد هزه . كان
يشك في أن هناك قرارًا مريبًا ستتخذه ضده هو الذي جعلها تُلَازم

حجرتها، ولكنه أدرك الآن أنها مريضة على نحو مُميت ، ولذا فإنه صار بعد ذلك يذهب كل يوم كما أخبرتنى « وانج دا ما » ، ويحمل إناء الشاي بكلتا يديه ويقدمه بنفسه لأمه ، دون كلام .

كانت تشكره أحياناً بصوت واهنٍ ، وفيما عدا ذلك لم يكن لديهما ما يقولانه بعد أن صار معروفًا أن زوجته تحمل في أحشائها طفلاً .
بعث أخى برسالة إلى والدنا ، وسيحضر غداً .

لم تتحدث أُمى منذ عدة أيام ، وترقد مستغرقة في نوم عميق لم يسبق أن رأينا مثله قط . هز الطبيب « تشانج » كتفيه ، ومد يديه قائلاً :
- إذا قضت السماء بالموت ، فَمَنْ أنا لأمنع قضاءً علوياً ؟

تناول أجره من الفضة ، ودفع يديه في كُمَيْهِ وانصرف . وحين مضى إلى حال سبيله ، هرولتُ إلى زوجى والتمستُ منه أن يأتى ليرى أُمى .
وأنها الآن لا ترى شيئاً مما يجرى حولها ، ولن تعرف ما إذا كان قد جاء أم لا . رفض في أول الأمر ، إلا أنه عندما رأى مدى خوفى عليها جاء كارهاً ، ووقف بجانب فراشها ، وكانت هذه أول مرة يرى فيها أُمى .

لم أره قط بمثل تلك الحالة من التأثر .. أطال النظر إليها ، ثم ارتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وخرج مسرعاً . ذهلتُ ، خشية أن يكون مريضاً ، ولكننى حين سألته اكتفى بقوله :

- سبق السَّيْفُ العَدَلَ .. سَبَقَ السَّيْفُ العَدَلَ (١) .

ثم استدار نحوى فجأة وهو يصيح .

- إنها شديدة الشبه بك ، حتى خِلْتُ أَنَّ وجهك قد استلقى هناك وقد
فارقته الحياة !

وبكىنا معًا .

إننى الآن أذهب إلى المعبد يوميًا ، حيث لم أعد أتوجه إلى هناك إلا نادرًا
منذ أن وُلد ابنى ، وحين اكتحلت عيناى به لم يعد لى ما أريده من
الآلهة، لذا فهم غضبوا لسعادتى ، عاقبوني من خلال أمى المحبوبة . إننى
أذهب إلى إله العمر الطويل . وأقدم أمامه قرابين من اللحم والنبيد . وقد
نذرت للمعبد مائة حلقة من الفضة إذا أَبْلَتْ أُمِّى من مرضها . ولكن الإله
لم يستجب لى . إنه يجلس بلا حراك خلف ستارته . ولست أعرف ما إذا
كان يتقبل قرابينى أم لا .

من تحت حياتنا جميعًا تتأمر علينا هذه الآلهة من وراء الحجاب .

آه يا أختاه ! لقد تحدثت الآلهة أخيرًا ، وأبانوا لنا عن ولعهم بالأذى !
انظرى ! إننى أرتدى كساءً من الخيش ! الأبيض الخشن ! من أجلها .. من

(١) مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَا قَدْ فَاتَ وَلَا يُسْتَدْرَكُ .

أجل أمى! أه يا أمى ، يا أمى ! لا تمنعيني من البكاء .. يجب أن أبكى الآن .. لأنها قد ماتت!

كنتُ قد جلستُ معها وحدى فى منتصف الليل وكانت ترقد - كما استلقت طوال هذه الأيام العشرة - كأنها قطعة من البرونز . لا تتحرك .. لم تتكلم ولم تأكل .. لقد سمعتُ روحها فى ذلك الحين نداء الأصوات العلوية ، ولم يبق لها سوى قلبها القوى ينبض بوهن فى سكون .

وحين أطلت ساعة ما قبل الفجر ، رأيتُ فى خوف مفاجئ أن هناك تغيراً لم بها ، فصفتُ يديّ ، وأرسلتُ الجارية التى كانت تؤدى الخدمة ليلاً إلى أخى كان يجلس فى الحجرة الخارجية مستعداً فى انتظار استدعائى له .. وحين جاء نظر إليها وهمس وهو نصف خائف .

- لقد حل التغير الأخير . لنرسل أحدهم إلى أبينا .

أشار إلى « وانج دا ما » التى كانت تقف بجانب الفراش تكفكف دموعها ، فانسحبتُ لتنفيذ ما أمرها به . وقفنا ننتظر وقد تشابكت أيدينا ، وطفقنا نبكى فى رهبة .

وعلى حين عرة بدا أن أمى تحاول النهوض ، أدارتُ رأسها وحدقتُ فينا ، ورفعت ذراعيها ببطء كما لو كانتا تنوءان بحملٍ ثقيل ، وتنهدت بعمق مرّتين ، ثم سقط ذراعاها ، وفاضت روحها فى صمت كما كانت فى حياتها دون أن تبوح بشيء .

وعندما دخل والدنا وهو ما زال نصف نائم ، وأثوابه ملقاة بسرعة

حول جسده - أخبرناه .. وقف قُبالتها يحدق فيها خائفاً .. فلطالما كان
يخشأها في قلبه .. وشرع الآن ييكي ، وانهمرت دموعه كطفلٍ ، وصرخ
بصوت عالٍ .

- زوجة فاضلة .. زوجة فاضلة !

قاده أخی بلطف بعيداً ، وأخذ يُهدئه وهو يطلب من « وانج دا ما » أن
تحضر نبيذاً ليخفف عنه ، وليجد فيه سلوى وعزاء .

ثم تُرِكْتُ وحدي مع أمي ، فنظرتُ ثانية إلى الوجه الصامت المتيبس ،
وكنْتُ الوحيدة التي طالما رأيتها على حقيقتها ، وانصهر قلبي في دموع
حارة ملتَهبة . وأخيراً أسدلتُ الستائر عليها ، وأغلقتُ الباب ، وتركتها
للوحدة التي عاشت فيها .

أمّاه . آه يا أمي !

عطرنا جسدها بزيت زهور « الأَقْنُثَا » ، وطوقناها بلفة تلو اللفة من
الشاش الحريري الأصفر . ووَسَدْنَاها في أحد تابوتين كبيرين صنعا من
جذوع أشجار الكافور الضخمة ، وكانا قد أُعِدَّا لها ولأبي منذ سنين
عديدة حين مات جدى وجدتي .. ووضعنا حجر « اليشب » المقدس فوق
عينيها المغلقتين .

أحكمنا الآن إغلاق التابوت الكبير ، واستدعينا ضارب الرمل بغية
التكهن وكشف الغيب ، واستشرناه ليدلنا على اليوم السادس من الشهر

القمري السادس من العام الجديد .

عندئذ استدعينا الكهنة فجاءوا مرتدين ثياباً قرمزية وصفراء طبقاً
لشعائهم وطقوسهم الدينية وفى موكب جليل مهيب بمصاحبة
موسيقى حزينة معزوفة على المزامير ، أوصلناها إلى المعبد انتظاراً ليوم
الدفن.

إنها ترقد هناك تحت أعين الآلهة فى صمت وغبار القرون . ليس ثمة
صوت يعكر صفو نومها الطويل ، هناك فقط الأناشيد الخافتة التى يترنم
بها الكهنة على الدوام فى الفجر فى حُمْرَةِ الأفق عند غروب الشمس ، ورنين
جرس المعبد الذى يدق على فترات متباعدة خلال الليل .

إنى لا أستطيع أن أفكر فى أَحَدٍ غيرها



الفصل العاشر

10

أَمَّنَ الممكن أن تكون أربعة أشهر قمرية قد افترقنا فيها يا أختاه ! إننى أضع فى شعرى شريط الحداد الأبيض من أجلها ، تلك الأم العريقة . ولو أننى أعيش حياتى ، إلا أننى لم أعد كما كنت لقد فصلتنى الآلهة من منبعى ، من اللحم الذى صاغ لحمى ، والعظم الذى صُنعت منه عظامى ، وسأظل أنزف على الدوام عند موضع الاتصال .

غير أننى أتأمل الأمر وأفكر فيه ملياً . لما كانت السماء لم تلبّ رغبة أمى الكبرى ، فهل كان من كرم الآلهة ومحبتهم لها أن نقلوها من عالم متغيّر لم يكن باستطاعتها أن تدركه قط ؟ لقد بلغت من العمر أرذل ، فكيف يمكنها أن تحتل ما سيجىء ؟ سأخبرك بكل شيء يا أختاه

لم يكد موكب الجنازة يمر عبر البوابة العظمى أمام المحظيات حتى بدأ يتشاجرن فيما بينهن حول من ستكون الأولى . لقد تآقت كل واحدة فى أن تكون السيدة الأولى مكان أمى ، مشتتة أن ترندى الملابس السمراء ، التى لم يكن مسموح لهن كزوجات صغيرات أن يتدنّرن بها . وكانت كل

مهن تودّ أن تحظى بامتياز أن تُحْمَل عبر البوابة العظمى حين تموت ،
لأنك كما تعلمين يا أختاه ، أن جثمان المحظية داخل تابوتها يمر فقط من
خلال بوابة جانبية ، وكل واحدة من هؤلاء الحمقاوات راحت تتزين من
جديد لتظفر مرة أخرى بنظرات أبى .

أَوْ قَلْتُ كل واحدة « لقد نسيْتُ تلك الأخرى ، « لا - ماى »

كل هذه الشهور التى طالت الآن إلى أعوام ، كانت تقيم فى ضياع
الأسرة فى الريف ، وتحت وطأة الحزن الذى انتابنا ساعة موت أمى ،
نسينا أن نكتب إليها .. وقد مرت عشرة أيام قبل أن يحمل خادم أبى كلمة
إليها .. نعم فقد عاشت فعلاً وحدها هناك دون أن يكون معها أحد سوى
ابنها والخادمت ، منذ أن تردد أن أبى سيتخذ محظية جديدة بالإضافة
إليها ، وصحيح أنه لم يقدم على ذلك ، لأن رغبته فى المرأة التى أراد
إضافتها كمحظية قد تضاءلت قبل المضى فى الترتيبات النهائية ، إذ قرر
أنها لا تستحق كمية الأموال التى طلبتها أسرتها من أجلها ، غير أن « لا -
ماى » لم تستطع أن تنسى أنه رغب فى غيرها ، وهى لم تعد إليه إطلاقاً ،
ولما كان يكره الريف ، فقد عرفت أنه لن يذهب إليها هناك .

ولكنها حين سمعت بوفاة أمى جاءت على الفور ، وذهبت إلى المعبد
حيث يرقد جثمان أمى ، وألقت بنفسها على التابوت ، وذرفت دموعها فى
صمت طوال ثلاثة أيام دون طعام . وعندما أخبرتنى « وانج دا ما » بهذا
مضيتُ إليها ورفعتها بذراعى ، واصطحبتها إلى بيتى .

لقد تغيرت حقاً . فقد زایلتهأ ضحكاتها وحيويتها ، ولم تعد ترتدى
الحرير الزاهى ، وكَفَّتْ عن صبغ شفيتها اللتين أصبحنا ناهلتين باهتتين
في وجهها الشاحب .. إنها تجلس مكتئبة في هدوء وصمت ، ولكنها ظلت
محفوظة بترفها القديم ونظرتها الساخرة . وحين سمعت بتنازع
المحظيات فيما بينهن تكورت شفاتها في هزة وازدراء ، وهى وحدها التى
لا تبالى ولا تهتم بأن تكون السيدة الأولى .

وهى تتجنب ذِكْرَ أى شىء عن أبى . وقد سمعتُ أنها آلت على نفسها
أن تتناول سُمًّا إذا عَنَّ له أن يقترب منها مرة أخرى . وهكذا تخترَّ حبها في
داخلها كما يتختر اللبن ، وتحول إلى كراهية .

وعندما سمعت عن زوجة أخى الأجنبية لَأَذْتُ بالصمت ، كأنها لم
تسمع شيئاً مِمَّا قُلْتَه ، ولما حدثتها بذلك ثانية ، استمعت ببرود ، وقالت
بصوت خفيض حاد كالثلج .

— إنها محاولة كبرى لإثارة الشعور العام فيما يتصل بشىء سبق أن
قرره الطبعة . هل يستطيع ابن مثل ذلك الأب أن يكون مخلصاً ؟ إنه
الآن بكل كيانه في غمرة رغبته الجنسية .. إننى أعرف ماذا يعنى ذلك ..
ولكن انتظرى حتى يُولد ابنها ويتمزق جمالها كما يتمزق غلاف أحد
الكتب . هل يدور في خلدها أنه سيهتم بقراءة الكتاب حينئذ ؟ حنى لو لم
تتحدث صفحاته بشىء سوى حبها له ؟

ولم تهتم بأكثر من ذلك ، ولم تتحدث عن أبى بأى كلمة في أثناء الأيام

الأربعة التى قضتها فى بيتى ، لقد مات كل ما كان تمتلىء به جوانحها من مَرَحٍ وابتهاج وتوق إلى الحب .. إنها الآن غاضبة فقط ، دائماً غاضبة من كل شىء ، غير أن غضبها لا حرارة فيه ، فهو بارد لا مبرر له ، وليس هنا ما يدعو إليه ، مثل غضب الأفعى المتخم بالسّم . لقد ارتعبت منها أحياناً ، وأخبرت زوجى بما كان منها بعد أن رحلت ، ووضعت يدي فى يده أمسك يديّ بكلتا يديه فترة طويلة ، وأخيراً قال .

- إنها امرأة ساحرة . وفى ظل عاداتنا القديمة لم تلق المرأة اعتباراً لائقاً ، وكان يستخفُّ بها ، وهى لم تكن من اللواتى يحبين بسهولة ويتحملن نزع سهامه .

ما أفضَحَ الحب إذا لم يستطع أن يتدفق عذباً نقياً ، نصيراً قوياً ، فياضاً، من قلب إلى قلب !

ومن جهة « لا - ماى » فقد عادت إلى الريف بعد انتهاء فترة الحداد على أُمى .

أما بالنسبة للمحظيات الأخريات فلم يكن من المستطاع اتخاذ قرار بشأنهن حتى يعترف بزوجة أختى ، حيث إن زوجته الشرعية هى الأحق طبيعياً بأخذ مكان والدته كسيدة أولى .

ولكن هناك مسألة أصبحت الآن أكثر إلحاحاً لأن بيت « لى » الذى ما زال أختى خطيباً لابنته بدأ يبعث بالرسائل يومياً تقريباً مع الوسيطاء يستحثنا على إنجاز الزواج فوراً .

من الطبيعى أن أخى لم يخبر الأجنبية بذلك ، ولكننى عرفت الأمر ، ففهمت عندئذ لماذا أصبح وجهه مُنْهَكًا ، وازداد قلقه حين أطبقت عليه هذه التعقيدات ، وأحدقت به . وكان أبى يستقبل الوسطاء ، فى حين أن أخى لم يرههم فى الواقع ، لم يستمع إلى كلماتهم . أمّا والدى فلم يكفّ عن ترديد ما قالوه بلا مبالاة وهو يضحك بالضحك .

ومنذ وفاة والدتنا جدد أخى والأجنبية ما بينهما من حب . وكان ذا فى حد ذاته أشبه بسكين مرهف النصل سُدِدَ إلى أعضاء أخى الحيوية - كالدماغ والقلب - والتوى فيها ، فاجتث كل حديث عن أى زواج آخر وعلى الرغم من أن الأجنبية لم تحب أمى فإنها مع ذلك - حين أنبأ أخى نفسه فى النهاية لأنه كان فظًا غليظًا مع أمه إبان مرضها وضعفها ، وحين طفق يديق صدره عندما اعتقد أنه عجل بنهايتها كانت (أى زوجته الأجنبية) تصفى إليه بأناة متعاطفة معه ، وتُعامله بفيض من الرقة والحنان

كانت تستمع إلى ندمه ، وتحول أفكاره بلطف إلى مجيء الطفل ، ونحو المستقبل إنها حكيمة إن امرأة غيرها ذات أفق ضيق كانت تمتعض مستاءة من نواحه وتفجّعه على أمه. ولكن الأجنبية حين تحدثت عن فضائل أمه - شأن كل مَنْ يتحدث عن هؤلاء الذين ماتوا - كانت تسلم بذلك معه ، وكانت تصمت بِسُموٍّ ونُبلٍ ولباقة فيما يتعلق بموقف أمى منها . بل قد أضافت إلى إطرائه وثنائه عليها احترامها لقوة روح أمى ، على الرغم من أنها كانت موجهة ضدها . وهكذا كان أخى يبتثها ما يعتمل

في داخله ، مُنْقَسًا عَمَّا تنوء به نفسه من أشجان وأحزان ليتدفق حبه لزوجته مالتًا به فراغه الباطني من جديد .

ومن ثم مَكَّنًا مَعًا في سكنهما بعيدًا عن كل شيء ، ونادرًا ما كنتُ أراهما طوال فترة ليست بالقصيرة ، وكأنهما كانا يعيشان في بلاد أخرى نائية ، ولم يكن أحد يستطيع الاتصال بهما ، وعندما كنت أذهب إليهما كانا يُرحبان بي دائمًا ، إلا أنهما - دون أن أعرف لماذا - سرعان ما ينسيان وجودي . كانت أعينهما تلتقي سرًّا ، وتتحدثان مَعًا من خلال النظرات المتبادلة بينهما ، حتى حين كانت كلماتهما معي تخرج من بين شفاههما ، وإذا حَدَّثَ وكانا مبتعدين عن بعضهما - بجلوسهما عند طرفي الحجرة - فإنهما يندفعان دون وعي منهما حتى يُصبحا متجاورين .

وإنى أعتقد أنه في تلك الأيام من الحب المتجدد بدأ أخى يرى بجلاء ما يجب عمله ، وامتد إلى روحه هدوء خاص حتى أصبح يتوق إلى منحها كل شيء عن طيب خاطر ، وزَايَلَهُ ما كان يعتريه من قلق وأَرْقَ

وحين كنتُ أرقبهما أدهشني أنهما زَرَعَا الدفء في قلبي ، ولو حدث أنى رأيتهما هكذا قبل زواجي لتقززت نفسي من مثل تلك الأحاسيس العاطفية بين رجل وزوجته ، وَلَبَدَا لناظريَّ مشهدٌ يعوزه الوقار والكرامة ، طالما كنت لا أستطيع فهمه . وَلَقَلَّلْتُ من شأن الحب نفسه ، واستهنتُ به ، معتقدة أنه جدير بالمحظيات والجواري .

والآن هَانِذِي تَرِينَ كَيْفَ تَغِيرُ ، وكيف عَلِمَنِي سِيدِي ! لا ريب أننى
كنت لا أعرف شيئاً حتى جاء
وهكذا عاشا معاً ، ينتظران المستقبل ، هذان الاثنان ، أخى وزوجته
الأجنبية .

ومع ذلك فلم يكن أخى فى أوج السعادة ، أمّا هى فقد كانت سعيدة ! لم
يكن شيئاً ذا بالٍ الآن عَدَمُ كونها عضواً فى أسرة أخى ، فبرحيل والدته عن
عالمنا - وعلى الرغم من مشاركتها الوجدانية - فقد انزاح عنها نوعٌ من
الاسترقاق والعبودية ، ولما كانت تعرف أن طفلها يعيش فى أحشائها ،
تحررت من بعض مخاوفها التى انتابتها من قبل ، ولم تعد تفكر فى شيء
الآن غير زوجها ونفسها وطفلها . وعندما تحس بطفلها يتحرك بحيوية
ونشاط كانت تبتسم وتقول :

- إنه هذا الإنسان الصغير الذى سيعلمنى كل شيء . سأتعلم منه
كيف أنتمى إلى بلاد زوجى وجنسيته .. سيرينى مدى شبيهه بوالده منذ
أن كان طفلاً رضيعاً حتى بلغ سن الرجولة . لن أكون منعزلة ووحيدة
بعد الآن .

وقالت لزوجها مرة أخرى :

- لا يهم الآن إن كانت أُسْرَتُكَ ستستقبلنى أم لا ، فقد دخل عظمك
ودمك ودماغك فى كيانى ، وسألدُ ابناً منك ومن قومك .

ولكن أخى لم يكن مقتنعاً بقانون الروح هذا . لقد انحنى لها احتراماً حين تحدثت هكذا ، خرج من أمامها وقد غلى رجل الغضب تجاه أبيه . وقال لى .

- يمكننا أن نعيش وحدنا - نحن الاثنين - إلى الأبد ، ولكن هل سنحرم الطفل مما سَيَكُونُ إليه بالميراث ؟ وهل يحق لنا أن نفعل ذلك ؟ ولكننى لم أستطع أن أجيبه بشيء ، لأننى لم أكن أعرف ما هو الرأى الحكيم .

حين اقترب موعد ولادة الطفل ، وأصبحت متوقعة ذلك فى أية ساعة ، فإن أخى ذهب مرة أخرى إلى أبى ليسأله منح زوجته اعتبارها الرسمى . وسأخبرك يا أختاه بما قاله لى أخى .

قال : إنه مضى إلى ساكن أبيه ، وهو يحاول أن يؤكد لنفسه ما سبق أن لاقته زوجته من استحسان وتأييد من والده ، وكان أخى يأمل أن يكون ذلك قد أسفر عن بعض الميل الحقيقى نحوها . أحنى أخى رأسه أمام أبيه وقال :

- يا أبى المبجل ، الآن وقد فَارَقَتْ عالمتنا السيدة الأولى ، أمى المبجلة ، لتقيم بجوار الينابيع الصفراء ، فإنى ابنك التافه ، ألتمس أن تتفضل وتتنازل بالاستماع لى .

كان والده يجلس إلى المائدة يشرب ، وها هو ذا الآن قد آمال رأسه

وابتسم ، وما زال يبتسم ، وصب النبيذ من الإبريق الفضى ، وأخذ يرتشفه هاشاً هاشاً من طاس الخمر الصغيرة المصنوعة من « اليشب » التى كانت بيده ، ولم يجب بشىء ، ولذا تشجع أخى فأكمل حديثه قائلاً .

— إن الزهرة المسكينة التى جاءت من الأرض الأجنبية ، تسعى الآن لتحقيق وضعها فى المركز الملائم بيننا . وقد تزوجنا شرعياً طبقاً للعادات الغربية فى الزواج ، وهى فى نظر مواطنيها وأبناء بلدها تعد السيدة الأولى لى ، وهى تتوق إلى توطيد وضعها وفقاً لقوانين وطننا ، وهذا شىء فائق الأهمية طالما أنها على وشك أن تضع ابنى الأول

إن السيدة الأولى رحلت عن دنيانا ، ونحن سنظل نتفجع على فقدانها إلى الأبد ، غير أنه من الضروري أن نضع السيدة الأولى لابنها فى الترتيب الصحيح لجيلنا . إن الزهرة الأجنبية ترغب فى أن تكون واحدة منا ، وأن تنتمى إلى جذورنا ، كما ينقل جزء من غُصْن شجرة الخوخ (١) ويُدفع فى شقٍّ طولى بجذع شجرة أخرى مثمرة فتندمج الخلايا وتلتحم الأنسجة الحية ، قبل أن يحمل الطَّعْم ثمار الفاكهة .

إنها تريد لأطفالنا أن ينتموا إلى جنسنا الصينى العريق السماوى إلى الأبد ، ولم يبق الآن إلَّا أن يعترف بها والدنا ، وقد شجعها ما سبق أن أبداه نحوها من عطف ومُساندة ، وكَرَمٍ مُتَّسِمٍ بِسماحة النفس .

وظل أبوه صامتاً لا يقول شيئاً ، واستمر يبتسم ، وصب مزيداً من النبيذ واحتساه من طاس الخمر الصغيرة ، وأخيراً قال .

(١) وَيُسَمَّى : الطَّعْم . وَغُصْنُ تَصْغِيرِ غُصْنٍ

- إن الزهرة الأجنبية مليحة وما أجمل عينيها اللتين تشبهان
جوهرتين قرمزيتين ! وما أنصع بياض لحمها الذى يُحاكى لُبَّ اللوز !
لقد سَلَّتُنَا كثيرًا. أليس كذلك ؟ إننى أهنئك ، لأنها على وشك أن تهديك
لعبة صغيرة

صب النبيذ من الإبريق واحتسائه ثانية ، وأكمل حديثه بأسلوبه
الدمث العذب .

- اجلس يا بنى .. لقد أفرطتَ فى إرهابك نفسك .

وفتح درج المنضدة وأخرج طاسًا ثانيةً ، وأشار لأخى أن يجلس .
وملأ الطاس بالنبيذ حتى حافته ، بيد أن أخى رفض الشراب ، وظل واقفًا
قبالته. وواصل أبوه حديثه ، وصوته الغليظ اللين ينساب فى سهولة
ويُسْر

- آه ، ألا تحب النبيذ ؟

ابتسمَ وارْتَشَفَ الخمر ، ثم مسح شفثيه بيده ، وعاود الابتسام ..
وتكلم أخيرًا حين رأى أخى عاقدا العزم على أن يستمر واقفًا أمامه حتى
يتلقى جوابًا :

- أما عن طلبك يا بنى فساأخذه بعين الاعتبار وأفكر فيه مليًا ، إننى
مشغول جدًّا ، هذا بالإضافة إلى أن وفاة والدتك قد ملأتنى بلوعة الحزن
حتى صرتُ غير قادر الآن على التركيز فى أى أمر من الأمور . سأرحل
الليلة إلى « شنجهاى » لعلنى أجد بعض السلوى واللهم لأعيد إلى عقل

جِدَّتَهُ وَمُضَاءَهُ ، حتى لا أسقط سقيماً علياً من فرط ما بُليت به من أحزان وأشجان . بَلَغَ تحياتى للسيدة التى تنتظر مولوداً ، وأخبرها بثنائى عليها .. أَوَدُّ أَنْ تلد ابناً كزهرة اللوتس « وداعاً يا بنى .. الابن الفاضل ! الابن الكفو !

نهض وهو ما زال يبتسم ، وانتقل إلى الحجرة الأخرى ، وسحب الستارة .

وحين حدثنى أخى عن كل ذلك ، كانت كراهيته قد بلغت حدّاً جعله يتحدث عن أبى كما لو كان شخصاً غريباً . آه " لقد تعلمنا - حتى حين كنا أطفالاً - أن الأوامر العالية المقدسة تنص على أن الرجل لا يجب أن يحب زوجته أكثر من والديه ، فهذه خطيئة أمام لوحات الأسلاف والآلهة، ولكن أى قلب إنسانى ضعيف يستطيع أن يصد تيار الحب المتدفق فيه ؟ إن الحب يندفع داخله ، سواء قَبِلَهُ القلبُ أو رَفَضَهُ . كيف لم يعرف القدماء ذلك على الرغم مما كانوا يمتلكونه من حكمة ؟ إننى لا يمكننى أن ألوم أخى بعد الآن .

من الغريب أن الأجنبية هى التى تقاسى الآن بشدة .. إن عداً أمى لها ونفوراً منها لم تُسبب لها مثل ذلك الحزن إنها مسحوقة الفؤاد أسى ويأساً من إهمال والدى لها ولامبالاته حيالها . كانت فى أول الأمر غاضبة منه ، وتحدث عنه ببرود ، وحين سمعت بما جرى بين زوجها وأبيه قالت :

– هل كان إذاً كل ما أبداه من مَوَدَّةٍ نحوى كذباً وادِّعاءً وتصنُّعاً ؟ لقد اعتقدتُ أنه استملحنى ومال إلى . لقد شعرتُ أنني وجدتُ فيه صديقاً لي . ماذا كان يعنى ؟. أوه ! حقاً يا له من حيوان متوحش تتحكم فيه طبيعته البهيمية !

صعقنى مثل ذلك الحديث المكشوف الذى ينال ممن هو أكبر سنّاً ، ونظرت إلى أخى لأرى ماذا سيقول لها مُؤنِّباً أو مستنكراً لما بدَرَ منها ، ولكنه وقف صامتاً وقد أحنى رأسه ، فلم أستطع أن أرى وجهه .. كانت تنظر إليه وقد اتسعت عيناها رعباً كما بدا لى ، وفجأة ودون إنذار – لأن طريقتها فى الحديث كانت فى منتهى البرود والتحرر – انفجرت متنهدة ، وأسرعت إليه باكية :

– أوه يا أعز ما لَدَيَّ ، دعنا نغادر هذا المكان البشع البغيض !
أذهلنى انفعالها المفاجئ .. غير أن أخى تلقاها بين ذراعيه ، وراح يُحدثها هامساً ، ولذا سحبتُ نفسى وأنا أشد ما أكون ألماً من أجلهما ، وقد انتابنى الشك تجاه المستقبل .

* * *

الآن قد اتخذ والدنا قراره يا أختاه ! كان تَلَقَّى قراره أمراً ثقيلاً على النفس ، ولكن معرفته خيرٌ من التعلق بأمل كاذب .

بعث رسولاً لأخى بالأمس ، وهو أحد أبناء العم الثالث ، ومسئول فى عشيرة بيت أبى ، وكان يحمل إرادة والدنا إلى أخى بهذه الكلمات ، بعد أن تناول الشاي والمرطبات فى قاعة الضيوف

- اسمع ، يا بُن « يانج » إِنَّ أباك يجيب على التماسك ببساطة ووضوح هكذا ، ويوافقه على ذلك أعضاء العشيرة ، حتى أدهام منزلة يؤيدونه . يقول والدك .

- من المستحيل أن نستقبل المرأة الأجنبية بيننا ، ففي عروقها تتدفق دماء غريبة غير قابلة للتغيير ، والأطفال من رحمها لا يمكن أن يكونوا من أبناء « هان » .. وحيث يكون الدم مختلطاً وغير نقي لا يمكن أن يصبح القلب مستقراً راسخاً .

زِدْ على ذلك أن ابنها لا يمكن قبوله عضوًا في قاعة الأسلاف ، فكيف يمكن لأجنبي أن يركع أمام ذلك الصف الطويل والمقدس من القدماء العظام ؟ واحد فقط يستطيع أن يجثو هناك ، إذا كان وريث سلالة نقية ، وكان يجري في بدنه دم الأسلاف الخالص

ثم أكمل حديثه قائلاً

- إن أباك كريم ، وهو يرسل إليك ألف قطعة فضية ، وعندما يولد الطفل ادفع لها ، ودعها تقفل راجعة إلى بلادها . لقد أطلقت العنان للعبث واللهو فترة طويلة ، وآنَ لَكَ آن تستأنف واجباتك . اسمع الأمر الذى صدر ، تزوج الفتاة التى أُخْتِبرَتْ لَكَ إن ابنة « لى » قد ضاق صدرها بهذا التوانى الطويل . لقد صبرت أسرة « لى » مفضلة إرحاء الزواج حتى ينتهى جنونك الذى تناقلته الألسن فى كل أنحاء المدينة ، حتى الحق الخزئ والعاز بالعشيرة ، ولكنهم لن ينظروا بعد الآن ، إنهم يطلبون

حقوقهم ، ولا يمكن تأجيل الزواج أكثر من ذلك .. إن الشباب سريع الزوال ، والأبناء الذين ينجبهم الآباء في شبابهم هم الأفضل .
ثم سَلَّمَ إلى أخی حقیبة مثقلة بالفضة .

غير أن أخی تناول الفضة وقذف بها فوق الأرض ، وانحنى إلى الأمام ، وكانت عيناه أشبه بمدية ذات حَدَّين ظامئة إلى قلب الآخر .. كان غضبه يتجمع تحت وجهه الذى بدا مكسواً بالجلید ، انفجر الآن رهيباً كومضات برق غير متوقع عبر سماء صافية . وصاح .

- ارجع إلى هذا المرء واطلب منه أن يأخذ فضته ! فَمِنْ اليوم لن يكون لى أب ، وليس لى عشيرة .. وأَتَبَرُّ من اسم « يانج » ! أزيلوا اسمى من السجلات ! وسأَمْضى أنا وزوجتى قُدُومًا وفى هذا اليوم سنكون أحرارًا مثل غيرنا من شباب البلدان الأخرى . وسنبداً سلالة جديدة .. حُرَّة . متحررة من هذه الروابط القديمة الكريهة التى جثمت ثقيلة مرهقة فوق أرواحنا !

ثم أسرع الخطى مغادرًا الحجرة .

التقط الرسول كيس الدراهم وهو يغمغم

- آه ، هناك أبناء آخرون .. هناك أبناء آخرون !

ثم عاد إلى والدى .

أَوَاه يا أختاه ! هل ترين الآن لماذا قلت إنه كان من الخير أن أُمى قد ماتت ؟ كيف كانت ستتحمل رؤية مثل هذا اليوم ؟ كيف تستطيع احتمال

رؤية ابن إحدى المحظيات وهو يأخذ مكان ابنها الوحيد والوريث الذى ستؤول إليه ثروة أبيه ؟

وعلى ذلك فإن أخى الآن لا يملك شيئاً من ممتلكات الأسرة ، وسيدفع نصيبه إلى بيت « لى » تطيباً لخاطرهم إزاء الإهانة والإساءة التى لحقتهم .. وتقول « وانج دا ما » إنهم يتطلعون إلى زواج لتلك الفتاة التى كانت خطيبة أخى .

ما أعظم التضحية التى قدمها أخى فى سبيل حُبِّه لهذه الأجنبية !

إن أخى لم يخبر زوجته بشيء عما ضحى به حتى لا يوقع الكآبة فى نفسها ، خاصة أنها تنتظر مولوداً ، لئلا يُنقص عليها سعادته فى المستقبل ، واكتفى بقوله .

– دعينا نغادر هذا المكان يا عزيزتى ، إذ لا يمكن أن يكون لنا مأوى داخل هذه الجدران .

ابتهجت ، وذهبت معه فَرِحَةً جَذِلَةً .. وهكذا ترك أخى بيت أسلافه إلى غير رجعة ، ولم يكن هناك أحد فى وداعه ، فيما خلا « وانج دا ما » العجوز التى جاءت وبكت وأحنت رأسها أمامه حتى لامست التراب وهى تصرخ .

– كيف يغادر ابن سيدتى تلك المساكن ؟ إنه الوقت الذى فارقت فيه الحياة .. إنه الوقت الذى مت فيه !

إنهما يعيشان الآن فى بيت صغير من طابقين ، مثل البيت الذى نقطن

فيه فى شارع الجسور . وقد تغير أذى خلال هذه الفترة القصيرة ، فبدأ أكبر سنًا ، وأكثر هدوءًا ، ولأول مرة فى حياته كان عليه أن يفكر من أين يأتى بالطعام والثياب . وهو يذهب يوميًا فى الصباح الباكر ليعلم فى المدرسة الحكومية هنا وهو الذى لم يسبق له قط أن نهض من فراشه حتى تتوسط الشمس كبد السماء .. إن عينيه يبدو فيهما التصميم والعزم ، وصار أقل كلامًا وابتسامًا عمًا اعتاد عليه من قبل . وقد غامرت ذات يوم وقلت له

– هل تأسف على أى شىء يا أذى ؟

فالتمعت عيناه وهو يوجه نظراته السريعة القديمة نحوى من تحت جفنيه ، وأجاب

– أبدًا !

آه ، أعتقد أن أمى كانت مُخطئة ! فهو لم يكن ابن أبيه .. إنه ابن والدته فى ثباته وحزمه .

والآن ، ماذا تظنين يا أختى قد وقع ؟ لقد ضحكتُ حين سمعتُ به ، وفجأة دون أن أفهم أنخرطتُ فى البكاء .

ففى الليلة الماضية سمعَ أذى قرعًا عنيقًا على باب بيته الصغير ، فتوجه ليفتحه بنفسه ، إذ لم يكن لديهما سوى خادمة واحدة فى هذه

الأيام ، ولشدة دهشته وجد « وانج دا ما » تقف قبالة . لقد جاءت
ممتطية عربة يد يعجلة واحدة ، وأحضرت معها كل حوائجها في سلة
كبيرة من الخيزران وحزمة مربوطة في قطعة قماش زرقاء ، وحين رأت
أخى قالت له في هدوء بالغ ورباطة جأش

- جئت لأعيش مع ابن سيدتى ، ولأخدم حفيدها .

فقال أخى

- ولكن ألا تعرفين أننى لم أعد اعتبر ابن أُمى ؟

أجابت « وانج دا ما » فى عناد وهى تشدد قبضتها على السلة والحزمة
فى كل من يديها .

- والآن ماذا بعد ١٩ أو تقف هناك وتقول ذاك الكلام ؟ أَلَمْ آخُذْكَ مِنْ
ذراعى أُمك إلى هاتين الذراعين وأنت لم يكن طولك يبلغ قدماً ، وكنت
عارياً كإحدى الأسماك ؟ أو لم تَرْضَعْ مِنْ ثَدْيِي ؟ وكما وُلدت فأنت كما
أنت ، وابنك هو ابنك . دَعِ الْأُمُورَ تَجْرِى كما أقول !

لم يعرف أخى بماذا يجيب إلا بشق الأنفس .. لقد عرفتنا حقاً طيلة
حياتنا ، وهى بالنسبة لنا أكثر من خادمة . وبينما كان يقف متردداً ،
تحركت وأدخلت حزمته وسلتها فى القاعة الصغيرة ، وهى تدمدم
وتلهث ، فقد تقدمت سِنّها وأصبحت الآن بدينة ، وراحت تبحث عن كيس
نقودها فى ارتباك . ولما عثرت عليه استدارت لتتشاجر بقوة مع صاحب
العربة عن أجرة الركوب . وهكذا استقرت كما لو كانت فى بيتها .

لقد فعلت هذا من أجل أمى .. من العيب أن يُبالغ المرء في تأمل سلوك إحدى الخادمت ، ومع ذلك فإن أخى يضحك ضحكة يشتم منها العطف حين يتحدث عنها . فقد سرَّه مجيئها ، وأن ابنه سينام ويلعب على ذراعيها.

وفي هذا الصباح قدمت لتقدم احتراماتها لى ، وكانت كما عهدناها . وقد يظن المرء أنها عاشت مع أخى أعوامًا عديدة في هذا البيت الأجنبى ، على الرغم من أننى أعرف أنها تدهش سرًّا من أشياء كثيرة .. ويقول أخى إنها تتظاهر بعدم ملاحظتها لأى شىء غريب ، مع أنها لا تثق على وجه الخصوص بدرجات السلم ، ولا شىء يقنعها ويستميلها كى تصعد فوقها لأول مرة أمام الآخرين ، ولكنها أخبرتنى اليوم بأن التغييرات التى حدثت في بيت أمى قد وقفت في حلقها .

قالت : إن المحظية البدينة قد أصبحت السيدة الأولى في مكان أمى .. وقد أعلن ذلك في قاعة الأسلاف أمام اللوحات المقدسة . إنها تتجول في زهو واختيال مرتدية ثياباً حمراء وأرجوانية رمزاً لمنزلتها الرفيعة ، وقد أحاطت أصابعها بخواتم عديدة ، بل وانتقلت إلى حجرات أمى ! وحين سمعتُ « وانج دا ما » تخبرنى بذلك أدركتُ أننى لا أستطيع أبداً أن أذهب إلى هناك مرة أخرى .

آه ، يا أمى !

إن أخى رقيق مع زوجته ، ويحيطها بحنانه أكثر من ذى قبل منذ أن
ضَحَّى بكل شيء من أجلها ، هذا الذى عاش حياة رغدة فى كنف ثروة
والده قد أصبح الآن فقيراً . ولكنه تعلَّم كيف يجعلها سعيدة .

حين توجهتُ بالأمس لأراها كان نظرها موجهاً إلى صفحة كانت
تكتب عليها سطوراً طويلة متدفقة متخذة شكلاً لولبياً، وعندما ولجتُ إلى
الغرفة مع ابنى نظرتُ إلينا وهى تبسم ، كما تفعل دائماً حين ترى
الطفل.

قالت وقد لَمَعَتْ عيناها فجأة - كعادتهما عندما يشرق وجهها
بالابتسام:

- إننى أكتب لوالدتي ، وهأنذى أخيراً! أستطيع أن أخبرها بكل شيء..
سأقول لها إننى علقتُ ستائر صفراء على النوافذ ، وأن هناك أنية تطل
منها زهور النرجس الذهبية فوق المائدة . وسأخبرها أننى قد بَطَّنتُ
اليوم سلَّة صغيرة بالحريز القرنفل لينام فيها إنها حريز بلون زهور
التفاح الأمريكى ! ستقرأ ما بين السطور ، وترى من خلال كل كلمة
وتعرف كم أنا سعيدة .. كم أنا سعيدة أخيراً !

هل سبق لكِ يا أختاه أن رأيتِ وادياً ممتعاً ذا لون رمادى تحت سماء
مُلبَّدة بالغيوم ، مُنذرة بالمطر ، ثم تنقشع السحب فجأة وتسقط أشعة
الشمس فتنتطق الحياة والألوان المتناغمة فرحة صاخبة من كل موقع فى
ذلك الوادى ؟ هكذا هى الآن . فى عينيها حيوية الابتهاج والسرور ،

وصوتها أغنية متواصلة . وشفاتها لا تهدآن ، فهما تنحنيان
وتتقوسان، وتتحركان على الدوام بقليل من الابتسامات ، وشظايا من
الضحكات السريعة .. وهى فى الواقع ذات جمال أسير . كثيرًا ما تشككت
فى جمالها من قبل ، لأنها لم تكن تشبه شيئًا سبق أن رأته ، ولكننى الآن
أدركته بجلاء . لقد انقشعت العاصفة والكآبة الحزن من عينيها .. إنهما
زرقاوان مثل البحر تحت سماء مشرقة تتألق فتنة وسحرًا .

أمّا أخى ، فبعد أن أنجز ما قرر أن يفعله ، أصبح هادئًا ، رزينًا ، قانعًا ،
راضيًا

إنه رجل .

وحين أفكر أن كُلاً منهما قد ترك عالمه من أجل الآخر ، أحنى رأسى
أمام مثل ذلك الحب . إنه سينتج ثمرة ثمينة رائعة ، مثل حَجَر كريم
كاليشب .

أما طفلهما فتراودنى عنه فكرة أنه سيكون له عالمه الخاص ليشيده
ويبنيه . إنه لن يكون نقيًا خالصًا صافى الدم ، لا من الشرق ولا من
الغرب ، وبسببصبح منبوءًا من كليهما ، إذ لن يفهمه أى منهما . غير أننى
أعتقد أنه لو تحلّى بقوة والديه الاثنين ، فسيفهم كُلاً من هذين العالمين ،
وهكذا سينتصر

هذا ما أفكر فيه . فقط حين أرى أخى وزوجته .. إننى امرأة فحسب

يجب أن أحدث مع زجى بهذا الشأن ، فهو حكيم وعليم ببواطن الأمور
دون أن يخبره أحد أين تكمن الحقيقة .

آه ، ولكننى أعرف هذا 'إننى مشتاقة لمشاهدة طفلهما . وأود أن يكون
أخا لابنى .

ها هى ذى الأجنبية تُغنى ، وساعة بعد ساعة تنبع الأغانى من قلبها
وتصعد إلى شفثيها كما تصعد الفقاقيع خلال سائل ، وهى مرحة وتشعر
بفرح مذهل وأنا ، وقد سبق لى أن وضعتُ ابناً ، أبتهج معها أيما ابتهاج ،
ونحن بتجربتنا وخبرتنا البشرية المشتركة مشدودتان معا برباط واحد .
إننا نحيك الملابس ، ملابس صينية صغيرة ، وحين تفكر فى أى الألوان
تختار فإنها تعقد حاجبيها فوق شفثيها المبتسمتين ، وتسأل نفسها
هكذا.

- الآن ، إذا كانت عيناه سوداوين فسيحتاج إلى هذا اللون القرمزى ،
ولكن إذا كانتا رماديتين فيجب أن يحظى باللون القرنفلى الوردى .
وتدير عينيها الضاحكتين نحوى قائلة .

- هل ستكون عيناه سوداوين أم رماديتين يا أختى الصغيرة ؟

عندئذ أسألها وأنا ابتسم بدورى .

-- بأى لون هما الآن فى قلبك ؟

فتقول وقد تدفق الدم فجأة في وجنتيها خجلاً أمامي

- إنهما سوداوان على الدوام ، دعينا نأخذ اللون القرمزى .

حينئذ أخبرها .

- إن القرمزى هو لون الفرخ والسرور ، وهو دائماً يناسب الابن .

وكنا نعرف معاً أننا قد اخترنا اللون بحكمة .

ثم جعلتها ترى الملابس الصغيرة الأولى الخاصة بابنى ، ووضعنا معاً نماذج التفصيل على قماش الساتان القرمزى المزين برسوم الأزهار ، وعلى الحرير القرمزى الناعم . وقد طرزت نماذج لنفس الأحذية الصغيرة التى لها شكل وجه النمر . وبمثل تلك المهام اقتربت كل واحدة مِن الأخرى .. ونسيْتُ عن أى وقت مضى أنها غريبة ، لقد أصبحت أختى ، وتعلمتُ أن أناديها باسمها . مارى .. مارى !

وعندما تم إعداد كل شئ ، قامت بعمل مجموعة صغيرة من الملابس الأجنبية لم يسبق أن رأيت مثلها لبساطتها ورقتها وأناقتها . وأدهشنى الثوب الرقيق . كان الكُمان الصغيران يتدليان إلى التنورة الطويلة بشرط مزركش ، يشد الخصر ، كان أروع من التطريز . ومع أن القماش لم يكن من الحرير فإنه كان ناعماً كضباب رقيق ، وقد سألتها :

- كيف ستعرفين متى تلبسينه تلك الأثواب ؟

ابتسمت وربتت وجنتى بسرعة إن لها أساليب حلوة لطيفة حين أصبحت مرحلة الآن .

– ستة أيام من الأسبوع سيكون فيها طفل أبيه ، ولكننى فى اليوم السابع سأدثره الكتان والأشرطة المزركشة ، وسيصبح أمريكياً .

ثم اكتسى وجهها فجأة بالوقار ، وقالت فى بطة ورزانة .

– لقد اعتقدتُ فى أول الأمر أننى أستطيع أن أجعله صينياً تماماً ، ولكننى أعرف الآن أننى يجب على أن أمنحه أمريكا أيضاً ، لأنها نفسى ، وسوف ينتمى إلى طَرَفِ العالم ، يا أختى الصغيرة .. إلى كلينا .. إليكم وإلى .

ابتسمتُ لها ثانية .. إننى أرى الآن كيف تمكنت من اجتذاب قلب أخى إليها ، واستحوذت عليه بقوة .

الآن جاء ابنهما إلينا يا أختاه ! لقد تلقيته بين زِرَاعَى من يدَيَّ « وانج دا ما » . كانت تتمتم وتضحك مزهوة وهى تناوله لى .. لقد تفرستُ فيه بشوق ولهف .

إنه طفل رجل .. طفل يتمتع بالقوة والنشاط ، على الرغم من أنه ليس فى جمال ابنى .. إِنَّ ابناً شبيهاً بزوجى وبى لا يمكن أن يُولد مثيلٌ له مرة ثانية .. غير أن ابن أخى وأختى لا يشبه أحداً سواه . إن له عظاماً كبيرة ، ويتمتع بنشاط وقوة ، ومفعم بالحيوية ، تلك الحيوية التى يتسم بها

الغرب، ولكنَّ شعرَه أسودَّ، وعينه سودوان مثلنا، وبشرته - على الرغم من صفائها - كاليشب، إلا أنها سمراء. ويمكنني أن أرى الآن في عينيه وشفتيه سيماء وجه أُمِّي .. يا له من مزيج من الألم والسرور وأنا أرى ذلك!

غير أنني لم أَدِّثْ زوجة أخى عن هذا الشبه، وحملتُ إليها طفلها وأنا أضحك وأقول

- انظري ماذا فعلت يا أختي! بهذه العقدة الصغيرة قد قمتي بربط عالمين!

كانت مستلقية في ضعف وإرهاق وهي تبتسم، وهمست قائلة.

- ضَعِيهِ بجانبِي

ففعلتُ ذلك.

إنه يرقد على صدرها الناصع البياض بوجهه الأسمر، وعينه السوداوين. ركزتُ أُمُّهَ عينيها عليه، ولست شعره الأسود بأناملها البيضاء.

قلت وأنا أبتسم لدى رؤيتي لهذا المشهد

- يجب أن يرتدى الثوب الأحمر، فهو شديد السُّمرة بالنسبة إلى لونك الأبيض.

قالت ببساطة.

- إنه يشبه والده ، وأنا قانعة راضية .

ثم دَخَلَ زوجها ، فانسحبتُ .

* * *

في الليلة الماضية - بعد مولد الطفل - وقفتُ بجوار زوجي في غرفة ابننا . نظرنا معًا من النافذة المفتوحة وتطلَّعنا إلى الليلة القمرية .. كان الهواء صافيًا شفافًا ، وكانت حديقتنا كلوحة أبدعتها الفرشاة بالأسود والأبيض .. وارتفعت الأشجار سامقة تجاه السماء ، وسقطت أشعة القمر على قممها الأبنوسية فبدت متألقة كالفضة

كان ابننا يرقد خلفنا نائمًا في سريرهِ الخيزراني لقد نما الآن وضاق به السرير ، وهو حين ينام يدفع بذراعيه إلى الخارج فترطم يداه بجوانب السرير في رفق . إنه هذه الأيام رجل بكل ما في الكلمة من معنى . نظر بعضنا إلى بعض . كنتُ أنا وزوجي في زهو وفخر حين سمعنا تنفسه القوى الثابت .

ثم طاف بذهني الطفل المولود حديثًا ، وكيف يبدو شبيهاً بأمي التي فارقت الحياة حين بدأت حياته . قلت بتؤدة ممتزجة ببعض الأسى .

- يا لآلم الانفصال الذي حَلَّ بحياة طفل أخينا وأختنا ! انفصال أمه عن بلادها وسلالتها ، وآلم أمِّ أبيه وهي تتخلى عن ابنها الوحيد ، وآلم أبيه وهو ينسحب قاطعًا صلته ببيته وأسلافه ، ضاربًا عرض الحائط بالماضي المقدس !

بيد أن زوجى قابلَ ذلك بالابتسام فحسب ، ووضع ذراع حول كتفى ،
ثم قال بوقار

- فَكَّرِى فى هذا فقط .. إِنَّ فرحة مجيئه إلى العالم كثمرة لذلك الارتباط
شئ رائع ! لقد أدمج قَلْبِى والديه فى قلب واحد ، هذين القلبين بكل ما
بينهما من اختلافات وفروق فى المنبت والتربية . فروق ترجع إلى قرون
سابقة ! فيأله من زواج !

وهكذا أراحنى وقَوَّانى عندما تذكرتُ ما مضى من أحزان ..
إنه لا يدعى أتعلق بأى شئ لمجرد أنه قديم ، جاعلاً إيَّائى أَيْمَمَ وجهى
شطر المستقبل ، وهو يقول .

- يجب أن ندع كل ذلك يذهب أدراج الرياح يا حبى ! نحن لا نود
لابننا أن يرسف فى أغلال الأفكار القديمة البالية التى لا نفع فيها !
إننى حين أفكر فى هذين الاثنين ، ابنى وأخيه ، أعنى ابن خاله ، أدرك
أن زوجى على صواب . وأنه ذو رأى سديد على الدوام .



عليهما ، وهما بعنوان : « المنفية » ، وهو دراسة عن حياة والدتها ، و « الملاك المناضل » الذى تصور فيه حياة والدها. والكتابان ضمهما مجلد واحد نُشر عام ١٩٣٧ .

ولدت « بيرل سيدينستريكر » فى السادس والعشرين من يونيه عام ١٨٩٢ فى بيت الأسرة فى «هيلز بورو» بولاية « وست فيرجينيا » حينما كان والدها « أبسالوم وكارولين سيدينستريكر » فى إجازة من عملهما كمبشرين فى إرسالية دينية بالصين . وعلى الرغم من أن « بيرل سيدينستريكر » قد وُلدت فى الولايات المتحدة ، فإنها انتقلت إلى الصين مع والديها وهى لم يتعد عمرها خمسة أشهر ، وتربت هناك ، حيث قضت باكورة سنواتها ذات الأثر الفعال فى تكوينها وقد شكلت الصين عقل الطفلة وخيالها ودمغتها بطابع لا يُمَحَى .. والصين عالم غريب . عالم من السقوف العتيقة الطراز المكسوة بالقرميد التى تعلو البيوت ، والمعابد البوذية ، وتمائيل عجيبة لآلهة غير معروفة تبعث خشية فى النفس ، واحتفالات الأعياد ، والمهرجانات الفريدة الغنية بالألوان ، والنابضة بالحيوية . وهناك أنواع متباينة لا حصر لها من الناس تمتد من المتسولين المعدمين ، إلى الشخصيات الموهلة فى السن من ذوى الوقار والهبة ، إلى اللصوص وقُطَّاع الطرق الهمجين البعيدين عن المدينة فى التلال القريبة ، والذين كثيرًا ما يُهاجمون المدن والقرى الصغيرة وكان والدا « بيرل سيدينستريكر » يأنفان دائمًا من تعقيدات الإرساليات الدينية المتحفظة المنفردة التى يعملان فى حقها ، وفَضَّلَا أن يعيشا ويعملا

بين أبناء الصين من عامة الشعب .. وهكذا نمت الطفلة الصغيرة على مقربة من سكان الصين الوطنيين فَأَلْفَتَهُمْ ، وحملت لهم مَوَدَّةً وصداقة حميمة وكانت تتحدث الصينية ، وتلعب مع الأطفال الصينيين ، وتزورهم في بيوتهم ، وتستمع إلى أفكارهم ، وعرفت مشاعرهم ووجهات نظرهم.

واستحوذت الحكايات والقصص على الفتاة الصغيرة ، وهي تعترف بأنها كانت فضولية أزعجت كل امرئ بما طرحه من أسئلة تكون أحياناً عميقة ، وتتسم بحب الاطلاع على شئون الآخرين الخاصة . إن قصة عن أى شخص في مكان قريب أو بعيد تأسرها وتثير اهتمامها ، إلا أنها كانت مولعة بوجه خاص بحياة من حولها من الناس . وهي تتذكر أنها كانت تستمع ساعات طويلة لأى امرئ يتحدث إليها ، ولأحظت أن الصينيين كانوا لا يكتفون ما يتصل بحياتهم الخاصة حين يتناقشون بشأنها ، بل يتحدثون عنها بالتفصيل.

وجدير بالذكر أن « بيرل سيدينستريكر » استمعت في صغرها إلى سلسلة لا نهاية لها من القصص رَوَتْهَا لها حاضنتها ومربيها العجوز وهي طفلة . وأعلنت « بيرل » فيما بعد أن تلك القصص كانت تمثل أول تأثير أدبي ترك بصماته عليها ، وكانت تلك الخادمة الصينية مولعة على وجه خاص بأن تروى الأساطير البوذية والطاوية .

أثارت الأساطير البوذية اهتمام الطفلة الأمريكية لما فيها من خيال

جامح، من تحليق وانطلاق ، وحركات سريعة ، وهروب وفرار ، مثلما جاء في قصة عن الخناجر العجيبة التي يمكن أن يتناقص حجمها وتصغر إلى درجة يمكن معها إخفاؤها في أذن امرئ أو في زاوية عينه ، ولكنها عند الإمساك بها لخوض معركة أو للدفاع عن النفس تزداد طولاً وقوة .

أما بالنسبة للطاوية - وهى دين صينى خالص - فيعتبر الحكيم «لاوتسو» مُنشئاً له وتشمل الطاوية أفكار وفلسفة وتعاليم ذلك الحكيم الصينى الذى عاش في القرن السادس قبل الميلاد . وكان مرجعهم في ذلك كتابه « تاو تيه تشينج »

ويحتل دين الطاوية المنزلة نفسها مع الكونفوشيوسية والبوذية . وتتصف الطاوية باتجاه إيجابى نشط نحو الإيمان بالقوى الخفية الغامضة، وبإمكان إخضاعها للسيطرة البشرية بالسحر ، واتجاه إلى ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا .

وكانت قصص الأساطير الطاوية التى تروىها الخادمة الصينية للطفلة الأمريكية تتناول الشياطين ، وحكايات الجن ، والأرواح الخيالية الفانتازية التى تعيش فى الصخور والأشجار ، والتنانين التى تقطن الرياح والعواصف .

وبالإضافة إلى الحكايات والقصص العجيبة التى كانت تروىها الخادمة الصينية سمعت « بيرل سيدينستريكر » من والدها قصصاً نادرة فريدة ومثيرة . فقد كان « أبسالوم سيدينستريكر » بحكم مهنته

كمبشّر في إرسالية دينية يقوم برحلات إلى المناطق النائية المنعزلة في الصين ، و مر بتجارب ومخاطر نادرة ومثيرة . وعلى الرغم من أنه بطبيعته كان محتفظًا كتومًا ، إلا أنه لدى عودته كان يروى بعض مخاطراته ، وما مر به من خبرات وتجارب . وترك ذلك تأثيرًا عميقًا على ابنته الصغيرة .

أما « كارولين سيدينستريكر » والدة « بيرل » فقد كانت بطبيعتها راوية بارعة في سرد القصص والأخبار ، وتحب الغناء والاشتراك في الحفلات العامة . وكانت تحن في أفكارها إلى وطنها في أمريكا ، فبصّرت ابنتها بالكثير عن حياتها كفتاة في « وست فرجينيا » حيث كانت الحياة هناك مخالفة تمامًا للحياة التي عرفتھا « بيرل » . وها هي ذى « مسز سيدينستريكر » تخبر ابنتها عن الحرب الأهلية الأمريكية وما حاق بأسرتها في هذه الجائحة . إنها تتحدث كثيرًا عن أقاربها وأسلاف الأسرة . كانت تنشد الأغاني ، وتتلو أشعار القصائد لتسلية أطفالها ، كما حاولت أن تزرع في نفوسهم حب الطبيعة والهواء الطلق في الخلاء والشئ الذى لا يُنسى أيضًا تلك الاستعدادات التى كانت تجرى للاحتفال بعيد الميلاد وما يحيط به من مبهج رائعة ومسرات عجيبة

كانت هناك أيضًا قصص وآراء ووجهات نظر من دول أخرى ، فطبيب العائلة كان من أبناء الهند ، وكان هو وزوجته يجيدان التحدث باللغة الإنجليزية . أمطرت الصغيرة « بيرل » الطبيب وزوجته بالأسئلة عن طفولتهما ، وعن تعليمهما المدرسى ، وعن الحياة في الهند بوجه عام . وهكذا أصبحت على وعى مبكر عن سحر وفتنة تلك الدولة

كما صادقت « بيرل » سيدة يابانية تقيم على مقربة منهم ، كانت تزورها كثيرًا ، حيث كانت على معرفة واسعة بأناس من بورما ، وسيام ، وإندونيسيا ، وغيرها من الدول القريبة من الصين . وأسعد هؤلاء الأفراد الذين يقيمون في الصين أن يتحدثوا عن أوطانهم . وهذه الصداقات قد أمدت « بيرل » بثروة من القصص والتجارب والخبرات التي ساعدت على تطوير عقل وخيال طفلة يقظة نشطة ذكية .. وليس هذا فحسب ، بل زودتها أيضًا بمادة ضخمة لرواياتها وقصصها القصيرة .

وعزمت « بيرل سيدينستريكر » حتى وهى طفلة على أن تصبح كاتبة قصصية ، ولنستمع إليها وهى تقول « إن المرء يشفق أن يعمل ما يحبه ، وأنا قبل كل شيء أحببت سماع القصص عن الناس . وأخشى أننى كنت طفلة مزعجة ، يدفعنى الفضول دائمًا إلى حب الاطلاع على شئون الناس ، ولماذا كانوا كما وجدتهم » . لقد شعرت منذ طفولتها بدافع قوى لكتابة الروايات . وهى تعترف بأن الهواجس قد انتابتها تجاه ذلك ، واستحوذت عليها هذه الفكرة واستبدت بها ، وتسلم بأنها لن تذوق طعم السعادة أبدًا ما لم تداوم على الكتابة

وبالإضافة إلى استماعها لقصص مختلف الناس فى شتى الأمكنة ، فإن الفتاة كانت كلفةً بالقراءة بدون انقطاع ، وتنفق كل ما تحصل عليه من نقود فى شراء الكتب . ونظرًا لندرة كتب الأطفال فى الصين فقد انحصرت معظم قراءاتها فى الروايات ، وكانت غالبية تلك الأعمال من الروايات الإنجليزية ، لقلة الكتب الأمريكية التى يصعب الحصول عليها .

ومعظم قراءاتها في صغرها كانت تشمل الأعمال الكاملة أو نصف الكاملة لشكسبير ، وسير والتر سكوت ، ووليم ثاكري ، وجورج إليوت ، وتشارلز ديكنز . وقد بدأت في قراءة « أوليفر تويست » حين كانت في السابعة من عمرها . وهي تتذكر أنها كانت تقرأ جميع روايات ديكنز مرة على الأقل في العام ، وتعيد قراءتها سنوياً على مدى فترة تقرب من عشرة أعوام لقد أسعدها ديكنز وأثر فيها ، مما دعاها إلى كتابة مقال حماسي تعبر عن إعجابها بقلمه ، وبقوة خياله.

تحدثت « بيرل سيدينستريكر » اللغة الصينية قبل أن تتكلم الإنجليزية ، ولكنها سرعان ما تمكنت من القراءة والكتابة بالإنجليزية أكثر من الصينية ، فقد تلقت من والدتها دروساً مكثفة في اللغة الإنجليزية ، وكانت أمها تصر على أن تؤدي « بيرل » عديداً من التمارين ، وتناقشها وتراجعها معها ، وتؤكد أهمية استعمال لغة إنجليزية صحيحة دقيقة . ونشرت كثيراً من الكتابات التي كانت تتدرب عليها « بيرل » في شبابها في القسم المخصص للأطفال بجريدة « شانجهاى ميركوري » التي كانت تطبع بالإنجليزية . وظلت تسهم بما تكتبه بضع سنوات ، وكانت تمهرها بتوقيع « المبتدئة » . وثابرت « مسز سيدينستريكر » على تشجيع ابنتها على التعبير عن أفكارها فيما تكتبه . ولا ريب أن هذا الإصرار على التدريب على الأساسيات قد أتى أكله في تنمية الإحساس بالكلمات ، والقدرة على التعبير عن الأفكار بطريقة جلية قوية ، وأسلوب متميز واضح سلس .

وبالإضافة إلى التدريب الذي تلقتة في اللغة الإنجليزية ، فإن الفتاة

الصغيرة تعلمت على يد « السيد / كونج » وهو مدرس خصوصي خريج مؤسسة كونفوشيوسية ، سبق أن قدمت له منحة للدراسة فيها . لقد علّم « بېرل » قراءة وكتابة اللغة الصينية وليس هذا فحسب ، بل علمها أيضًا كثيرًا من مبادئ وقواعد السلوك ومعتقدات الكونفوشيوسية ، ودرست معه التاريخ الصيني ، وتنبّهت إلى الإمبريالية والاستعمار الغربى واستغلاله لموارد الشرق الأقصى. وهى لا تنسى أبدًا مناقشاته وما درسه لها عن ثورة « البوكسر » تلك الجمعية السرية التى حاولت عام ١٩٠٠ طرد الأجانب من الصين ، وحمل المنتصرين الصينيين على الارتداد عن المسيحية، (ومن أثر ما فعلته هذه الثورة أنهم اضطروا فى وقت سابق إلى الهروب هى ووالدتها وشقيقتها إلى ساحل البحر للنجاة بجلودهن) . وقد نَصَحَ « السيد / كونج » تلميذته المشمولة برعايته ، وكل الأجانب من الجنس الأبيض أن يلوذوا بالفرار من الصين نفسها لإنقاذ حياتهم .

إن هذه العاقبة هى نتيجة منطقية للاستغلال الغربى ، وما عاناه الصينيون من جَوْرهم وأعمالهم الظالمة .

وبعد وفاة الدارس المجّد « السيد / كونج » فى عام ١٩٠٥ تعلمت « بېرل » فى إحدى مدارس-الإرساليات ، ثم سافرت إلى « شانجهاى » لتلتحق هناك بمدرسة الأنسة جوويل ومن منظور أدبى كان آثمن شىء فى السنة التى قضتها « بېرل » فى هذه المدرسة هى الخبرات التى نالتها فى شتى الأعمال الاجتماعية التى كانت تؤديها مديرة المدرسة . وأولها هى

تلك الزيارات إلى مؤسسة للجوارى اللاتى هربن من قسوة معاملة مَنْ يملكونهن . ولما كانت « بيرل سيدينستريكر » تتحدث الصينية بطلاقة فقد أجرت كثيرًا من المناقشات والحوارات الطويلة مع أولئك التعيسات ، وعلمت منهن خلفياتهن وخبراتهم وتجاربهن . وفى محاولة لزيارة وتقوية مشاعر « بيرل » الدينية ، ولكى ترى ضرورة القيام بأعمال طيبة صالحة ، كانت الأنسة « جوويل » كثيرًا ما تصحبها معها إلى مؤسسة تؤوى نساءً بيضاوات فقيرات منبوذات ، وكانت غالبيتهن من بائعات الهوى . وفى ذلك الوقت كانت « بيرل » فى طور المراهقة ، فأخذت على عاتقها تعليم النزيلات الحياكة ، وقراءة الكتب والقصاص لهن ، وأدت غير ذلك من الأعمال الخيرية ولكنها حين ذهبت لزيارة والديها فى عطلة أعياد الربيع ، وتحدثت عن إسهامها فى الأعمال الخيرية التى تقوم بها الأنسة « جوويل » رفضت أمها السماح لها بالعودة إلى هناك . وإذا افترضنا أن السنة التى أمضتها « بيرل » فى مدرسة الأنسة جوويل لم تتح لها مزيدًا من التعلم من الكتب ، فإنها وسعت وعمقت خبراتها وتجاربها الإنسانية ، ومنحتها مزيدًا من معرفة العالم .

هذه الخلفية العريضة ، والتدريب التربوى المتنوع أثبت نفعه حين سافرت « بيرل سيدينستريكر » فى عام ١٩١٠ إلى الولايات المتحدة لتلتحق بكلية « راندولف ماكون » النسائية بولاية « فرجينيا » وهناك كانت تكتب قصصًا فى المجالات والصحف التى تُصدرها الكلية ، وأسهمت فى كتابة مسرحية تُمَثَّل فى الفصل وفازت بجائزتين أدبيتين فى

عام التخرج ، كانت إحداهما عن أفضل قصة قصيرة تكتبها طالبة في كلية « راندولف ماكون » ، والجائزة الأخرى عن أحسن قصيدة .

وسرعان ما أدركت « بيرل » خلفيتها الصينية ووعتها جيدًا حين لفتت أنظار زميلاتهن من الطالبات اللاتي كُنَّ ينظران إليها بفضول ، واعتبرنها غريبة الأطوار . وحتى تصبح جزءًا من المجموع رأت أنها يجب أن تَقْصِلُ إلى درجة ما بين عالميها ، ولهذا بدأت تلبس وتتحدث بمزيد من الأسلوب الغربى . وحين أتمت أول أعوامها هناك ، كان انتسابها إلى عالم جديد قد اكتمل تقريبًا ، ومع ذلك فقد سجلت أنها لم تكن مرتاحة ومتحررة من القلق تمامًا في السنوات التي أمضتها في كلية « راندولف ماكون » ، ولكنها أخيرًا أصبحت في مكان الصدارة على فصلها .

وكان من أشق الأمور أن تتكيف مع أقارب والديها ، والذين كانت كثيرًا ما تزورهم في العطلات . لقد أصبحت مولعة بمنطقة جبال « أليجيني » التي يقطنون فيها، غير أن طفولتها والتعليم الذي تلقت في الشرق الأقصى حال بينها وبين أن تصبح جزءًا متكاملًا مع حياتهم ، ومع ذلك ، فبينما كانت تشعر في بعض الأحيان أن الشد والتوتر الشرقى والغربى في خلفيتها منقسمان ، فإنها أصبحت تدرك أن تلك التوترات كانت في الحقيقة مشدودة ومرتبطة معًا بشكل دائم في عقلها وقلبها .

وبعد أن حصلت على بكالوريوس في الآداب من كلية « راندولف ماكون » النسائية في عام ١٩١٤ دُعِيَتْ إلى العمل بها كمدرسة مساعدة في قسم علم النفس والفلسفة ، وقد قبلت هذا المركز بعض الوقت ، غير أن

مرض أمها الخطير جعلها تعود إلى الصين قبل نهاية عام ١٩١٤ . كان والداها قد أنجبا سبعة أطفال ، لم يعيش منهم إلى طور المراهقة سوى ثلاثة فقط . إن شقيقتها الذي يكبرها بعشرة أعوام سافر ليدرس في الولايات المتحدة ، حيث استقر هناك نهائياً . ولما كانت شقيقتها «جريس» تصغرها بسبع سنوات ، ونظرًا لانشغال والداها في أنشطته الخاصة بإرساليتها الدينية، كان لزاماً على « بيرل » أن تعود إلى الصين لرعاية أمها المريضة وقد أخذت على عاتقها العناية بها وقامت أيضاً بتدريس اللغة الإنجليزية لطلبة السنة النهائية في المدرسة العالية . وفي أوقات الفراغ واصلت دراسة الكتابة الصينية بشكل أعمق ومكثف . وعندما استردت والدتها صحتها جعلتها ترأس جلسات اللقاءات التي تُعقد مع النساء الصينيات لمناقشة مشاكلهن والاستماع إلى وجهات نظرهن . وأخيراً أتاح لها شفاء أمها فرصة تكريس كل وقتها لمزيد من الدراسة بجانب الاضطلاع بمهنة التدريس .

وبعد انقضاء ثلاثة أعوام على عودة « بيرل سيدينستريكر » إلى الصين ، تزوجت « د جون لوسينج باك » وهو خبير زراعى أمريكى جاء أصلاً من ولاية نيويورك ، وكانت هيئة الإرساليات البروتستانتية قد عينته لتعليم الصينيين طُرُق الزراعة الأمريكية . وذهبت «بيرل » وزوجها ليعيشا في «نانهسوتشو» في إقليم «آنهوى» بشمال الصين . وهناك اطلعتُ بعمق على أحوال الفلاح الصينى ، وطُرُق الزراعة التى يتبعها ، وكفاحه مع الجفاف والقحط والمجاعة ، وأساليب نشاطه المعتاد يومًا

ببوم من أجل البقاء . وكانت تُصاحب زوجها في رحلاته العديدة للريف . وبينما كان هو يناقش الرجال في طُرق الزراعة وأساليبها التكنيكية ، كانت « بيرل » تختلط مع النساء والأطفال وتلاحظ حياتهم .

وفي تلك المنطقة الواقعة في شمال الصين ، لم يكن سوى قلة من الجنس الأبيض يعيشون هناك ، وكانت هي أول شخصية بيضاء تقع عليها أنظار معظم السكان في ذلك المكان ، وكانت تستمتع بزيارة هؤلاء الناس وتغريهم بالمشاركة في الحوار الطويل معهم لكي تعلم الكثير عن حياتهم . وقد فتنتها تلك الأسر الريفية التي كانت تعمل بالزراعة على نحو بالغ المشقة ولا تحصل إلا على قدر ضئيل من المال . ولما كان زوجها على معرفة عريضة بشئون الزراعة ، أمكنها أن تستقى معلوماتها مباشرة وبدقة من ملاحظاتها الشخصية ، ومما درسه زوجها وتخصص فيه . وقد رأت « بيرل باك » في هؤلاء الناس الذين يعلمون بالزراعة في شمال الصين أنهم يمثلون الصينيين الأكثر أصالة والتصافاً بالأرض في السراء والضراء ، وفي الضحك والبكاء ، من المهد إلى اللحد . وتقول « بيرل باك » إن زيارتها للأسر الريفية قد أصبحت وسيلتها الخاصة وراء البحث عن الحقيقة ، وأنها وجدت بينهم الإنسان الأشد قرباً من الكائن البشرى ومنذ ذلك الوقت تغلغل في أعماقها ، وانتشر بين جوانحها حب ثابت صامد مخلص للفلاح الصيني الذي غرس حبها له في كل كيائها ، وارتحل معها إلى أعمالها الأدبية .

مكثت « بيرل باك » خمسة أعوام في شمال الصين ، ثم رحلت مع

زوجها جنوبًا إلى « نانكينج » حيث حصل « جون لوسينج باك » على وظيفة مدرس في جامعة « نانكينج » لتدريس طرق الزراعة ، في حين وافقت « بيرل » على تدريس الأدب الإنجليزي بالجامعة نفسها . وكان ذلك بداية لفترة تقرب من عشر سنوات ، قامت خلالها « بيرل » بالتدريس ، ليس في جامعة « نانكينج » فقط ، بل في الجامعة الشرقية الجنوبية أيضًا ، وفي جامعة « تشونج يانج » .

وفي أكتوبر عام ١٩٢١ توفيت « كارولين سيدينستريكر » والددة « بيرل » ، وعقب موتها بدأت ابنتها تكتب سيرة حياتها كزوجة لمبشر في رسالة دينية ، وكان ما كتبتة تذكاريًا لأسرتها . وقد أنجزت مخطوطها الذي وُضِعَ جانبًا طوال سنوات عديدة . وكانت تلك السيرة الذاتية في الحقيقة أول كتاب لبيرل باك ، وعلى الرغم من أنه قد تمت مراجعته وتوسيعه وإيضاحه بالتفصيل فيما بعد ، فإنه لم يُطَبَّع إلا في عام ١٩٣٦ .

كانت حياة « بيرل باك » في « نانكينج » مختلفة تمامًا عن الحياة الريفية في شمال الصين ، فقد بدأت الأفكار الحديثة تتسلل الآن إلى العادات التقليدية الصينية القديمة وطُرق معيشتهم ، وكان كثير من الشباب الصينيين قلقين ، والثورة تتأجَّجُ في نفوسهم ، وكان طلبة الجامعة بوجه خاص في حالة حيرة وارتباك .. لقد تربوا في نظام محافظ بمجتمع أبوى يتميز بسلطة الأب المطلقة على الأسرة ، وهم الآن يواجهون أفكارًا متحررة ، وأساليب تفكير حديثة . . وكانت الثورة السياسية والاجتماعية تحلّق في الأجواء ، وظهرت المندادة بالشيوعية ، وشعر

هؤلاء الطلبة بوقوعهم بين فكَّين طريقة الحياة القديمة ، والأفكار الديناميكية التقدمية الجديدة . وتطلع الكثيرون منهم إلى الدول الغربية سعيًا وراء التنوير ، ومع ذلك فقد رَأَوْا تناقضًا وعدم ترابط منطقي وفسادًا ، ولاحظوا أن المثالية الغربية كثيرًا ما كانت تخالف التطبيق العملي في الغرب .

كانت حياة « بيرل » في الصين شيئًا أَسِرًا فاتنًا ، تفجرت فيه مواهبها . وبذلت جهدًا كبيرًا في كتابة سيرة حياة والدتها . كما عازمت على تسجيل بعض انطباعاتها عن دولة كانت تعاني آلام مخاض التغيير . وأرسلت أولى مقالاتها عن هذا الموضوع إلى مجلة « أتلانتيك » الشهرية التي نشرتها في عدد يناير عام ١٩٢٣ ، وكانت بعنوان « في الصين أيضًا » وقد ناقشت في هذا البحث بعض الممارسات الجديدة انتشرت تدخين السجائر شعبيًا ، نمو الاختلاط الاجتماعي الودّي بين الجنسين والصداقة بينهما ، الرقص الأمريكي ، والتمرد ضد السلطة الأبوية . وكانت مشكلة الزواج في تلك الأعوام شديدة التعقيد ، مثيرة للحيرة ، ففي الأزمنة السابقة كان الآباء يختارون للابن البنت التي ستُشاركه الحياة الزوجية ، وكذلك ينتقون لابنتهم الزوج الذي سيرتبط بها ، ويتولى هؤلاء الآباء أيضًا إعداد ترتيبات الزفاف ، أمّا الآن فإن الكثيرين من الشباب الصينى يطالبون بحق اتخاذ قرار الزواج بأنفسهم ، على النمط السائد في الغرب .

واصلت « بيرل باك » الكتابة عن تيمات معاصرة ، كما بدأت تظهر لها

مقالات إضافية في « فورم » و « نيشن » وغيرها من المجالات . وفي أثناء ذلك الوقت بدأت تكتب أيضًا قصصًا قصيرة ، وتخطط لراويتها الأولى . وكانت تواصل القراءة بنهم ، ليس في الأدب الصيني التقليدي فحسب ، بل أيضًا للكُتّاب الغربيين ، مثل الروائيين الفرنسيين « إميل زولا » ، و «مارسيل بروسست » ، والروائي والقصّاص الأمريكي « إرنست هيمنجواي » ، وكاتب المقالات الأمريكي « هنري دافيد ثورو » الذي تأثر بتولستوى ، وكذلك بغاندى ، الذى أوحى إليه بمقاله عن العصيان المدنى، الذى تطور إلى المقاومة السلبية . وبوجه خاص فازت أعمال الروائى الأمريكى « تيودور درايزر » بإعجابها . وقد سجلت « بيرل » أنها قبل أن تبلغ العشرين من عمرها كان الروائى الإنجليزى « تشارلز ديكنز » كاتبها المفضّل . وقالت عنه : « لقد فتح عينى على الناس ، وعلمنى حب شتى صنوف البشر » . لكنها بعد سن العشرين أصبح الروائى الأمريكى « تيودور درايزر » على رأس الكُتّاب الذين تختار أعمالهم ، وتبعه الروائى الأمريكى « سينكلير لويس » . وكانت « بيرل » مولعة بما تبوح به الشخصيات ، وما يتكشف للعيان ، خاصة إذا كان مثيرًا للدهشة على نحو مفاجئ . ونظرت بعين الاحترام والتقدير إلى « درايزر » و « لويس » والروائية الأمريكية « إيلين جلاسجو » لمقدرتهم على تحليل الشخصية الأمريكية .

وبالإضافة إلى الكتابة والقراءة على نطاق واسع في أثناء تلك الفترة ، واصلت نشاطها بكل طاقتها في مسيرة حياتها المتعددة الجوانب بكل كدٍّ

ومثابرة ، وبدون كَلَل أو مَلَل .. تلك التى أصبحت من الصفات الأساسية التى تتسم بها حياتها . واحتفظت بموقفها كمحاضرة جامعية فى الادب ، مع قيامها بواجباتها المنزلية ، وأزعجها وأرهقها كثيرًا حالة طفلتها الأولى «كارول» التى كانت تنذر بعلامات تثير الذعر ، تشير إلى تخلفها عقليًا ، فسافرت بها إلى الولايات المتحدة لتتلقى علاجًا طبيًا ، ومع ذلك فقد اكتشفت أن ابنتها الصغيرة ستظل مُعاقّة دائمًا .

ولكى تحوّل انتباهها عن هذه المأساة سجلت نفسها فى جامعة «كورنيل» كدراسة للحصول على درجة الماجستير فى الأدب الإنجليزى ، وكان زوجها يدرس هناك أيضًا، فغاب عن الصين لمدة عام . وفى السنة التالية أنجزت رسالتها عن كُتّاب المقالات البريطانيين فى القرن التاسع عشر ، ونالت درجة الماجستير عام ١٩٢٦

وحينما كانت فى «كورنيل» عانت من شدة حاجتها إلى المال ، فعزمت على الاشتراك فى المنافسة من أجل الفوز بالجائزة الكبرى التى قدمتها الجامعة ، وقدرها مائتا دولارٍ تُمنح لأفضل مقال عن موضوع دولى هام . وقد حاول أستاذها أن يثنيها عن عزمها ، ناصحًا إياها بأنه لاَحَظَ أن تلك الجائزة تُمنح عادة لطالب فى قسم التاريخ . وعلى الرغم من ذلك دخلت المسابقة ، وفازت بالجائزة . وكان موضوع مقالها عن «الصين والغرب». وهكذا التقى عالما الشرق والغرب بما يحملان من دلالة ومغزى فى حياتها مرة أخرى .

وقد استقالت «بيرل باك» من هيئة الإرساليات الدينية التبشيرية فى

عام ١٩٣٣ ، بعد أن نشرت مقالاً نقدياً عن المرسلين التبشيريين .

وفي عام ١٩٣٥ طُلِّقَتْ من « جون لوسينج باك » . وفي العام نفسه تزوجت « ريتشارد جون والش » رئيس شركة « جون داي » للطباعة والنشر ، ورئيس تحرير مجلة آسيا . وأقاما فيما بعد في الولايات المتحدة . واستمرت هذه الزيجة حتى وفاته عام ١٩٦٠ .

وقد اختيرت « بيرل » في عام ١٩٣٦ عضواً بالمعهد القومي للفنون والآداب . وامتد تعاطف « بيرل » نحو الجميع ، وخاصة الأطفال والبنساء الذين لا عَوْنَ لهم . وبعد الحرب العظمى الثانية أنشأت مع زوجها في عام ١٩٤٩ « بيت الترحيب » وكالة لتبني الأطفال غير الشرعيين من أصل أمريكي آسيوي . وفي عام ١٩٦٤ أنشأت مؤسسة «بيرل سيدينستريكر باك » لرعاية الأطفال الأمريكيين الذين بقوا فيما وراء البحار . وفي عام ١٩٦٧ تبرعت لهذه المؤسسة بمعظم ما كسبته من أموال ، والتي تجاوزت سبعة ملايين دولار . وعملت أيضاً على إنشاء مدارس مهنية للمعوقين . ومن أجل مجهوداتها الإنسانية مُنحت جائزة الإخاء من مؤتمر المسيحيين واليهود ، وجائزة « ويزلي » لما أدته من خدمات بارزة للإنسانية ، وأكثر من اثنتي عشرة درجة من درجات الشرف من الكليات والجامعات الأمريكية

لم تكن رواية « رياح الشرق .. رياح الغرب » أول رواية تكتبها «بيرل باك » فقد كتبت رواية قبلها ، غير أن جنود الثورة الشيوعية القومية التي نشبت من ١٩٢٦ إلى ١٩٢٧ حين استولوا على « نانكينج »

اقتحموا منزلها وأتلفوا تلك الرواية . وكانت السيدة « لو » قد أسرعت قبل ذلك إلى البوابة الخلفية حيث أنقذت أصدقاءها البيض .. « بيرل باك » وأسرتها ، وأخفقتهم في كوخها الطيني . وعمل جيرانها الصينيون على حماية تلك الأسرة ، ونقشت في ذاكرة « بيرل » امتنانها لكثير من الصينيين الذين خاطروا بحياتهم في تلك الفترة العصبية لمعاونة الأجانب البيض . كانت هناك خسائر مادية ، ولكن شعورها بأهمية العلاقات الإنسانية تغفل في أعماق قلبها . ولا غرابة أن كتابها « عوالم المتعددة » عن سيرتها الذاتية ، والذي يُعدُّ وثيقة حارّة عن الإنسانية ، نراها تعترف بنزاهية - ودون تحيز - أنها لو كانت صينية شابة - تعلمت ودرست عن شتى الحروب التي شنّها الرجال البيض ، والامتيازات التي حصلوا عليها ، واغتصابهم للسلطة ، وعقدتهم للمعاهدات غير المتكافئة ، وغير ذلك من المظالم التي جلبوها إلى الصين - فإنها أيضًا كانت ستتوق إلى إقصاء وطرد البيض من بلدها وقد أشارت « بيرل باك » في الوقت نفسه إلى أن هناك كثيرًا من الصينيين مَجَّدُوا الإنسانية والرحمة ، ورفعوهما فوق الحقد والعداء ، على الرغم من أنهم كانوا على وعى وإدراك بمظالم الماضي .. وقد نبع اقترابها الإنسانى من الناس في كل مكان من مثل هذه الخبرات والأفكار .

و « بيرل باك » لا تشجب التفرقة العنصرية حيثما تجدها فحسب ، بل نراها أيضًا في معظم أعمالها الروائية وغيرها من فروع الأدب ومقالاتها تسعى إلى شرح وتوضيح صورة الآسيويين إلى الأمريكيين ، والأمريكيين

إلى الآسيويين ، هادفة إلى تحقيق فُهمٍ متبادلٍ لمواقف وأوجه الخلاف ، ومشاكل كل من الطرفين .

ومن أوائل مقالات « بيرل سيدنستريكر » التى نُشرت فى مجلة «كريستيان سينشرى» فى عام ١٩٣٣ بعنوان « هل هناك قضية بخصوص الإرساليات التبشيرية الأجنبية » ، والتى أثارت غضباً من جراء اتهامها لتلك الإرساليات ، وما شنته من هجوم ضدها وضد الكنائس نفسها ، التى تقتقر إلى التعاطف مع الناس ، وكل همها ينحصر فى أعداد المهتدين إلى الدين الجديد أكثر من رعايتها لما يحتاجه جمهورهم إن « بيرل باك » كاتبة غزيرة الإنتاج ، وكانت أحياناً تكتب باسم مستعار « جون سيدجيز » لتجد حرية فى كتابة روايات تتناول موضوعات أمريكية .

ومن أهم أعمالها الروائية :

- « رياح الشرق رياح الغرب » (١٩٣٠) - « الأرض الطيبة »
- (١٩٣١) - « الأبناء » (١٩٣٢) - « الأم » (١٩٣٤) - « بيت منقسم »
- (١٩٣٥) - « بيت من الطين » وهى ثلاثية تشمل الأرض الطيبة - الأبناء - بيت منقسم .. فى مجلد واحد (١٩٣٦) - « هذا القلب المتكبر »
- (١٩٣٨) - « الوطنى » (١٩٣٩) - « آلهة آخرون » . أسطورة أمريكية
- (١٩٤٠) - « بذرة التنين » (١٩٤٢) - « سماء الصين » (١٩٤٢) - « الوعد » (١٩٤٣) - « انطلاق الصين » (١٩٤٥) - « صورة زواج »
- (١٩٤٥) - « أحد أبناء المدن » (١٩٤٥) (باسمها المستعار جون

سيدجيز) - « جناح الحريم » (١٩٤٦) - « الزوجة الغاضبة » (١٩٤٧)
 (باسمها المستعار . جون سيدجيز) - « نبات الفاونيا » (١٩٤٨) -
 « الأنبياء » (١٩٤٩) - « الحب المديد » (١٩٤٩) (باسمها المستعار جون
 سيدجيز) - « رجال الله » (١٩٥١) - « الزهرة الخفية » (١٩٥٢) -
 « الموكب المتألق » (١٩٥٢) (باسمها المستعار جون سيدجيز) - « تعالى
 يا محبوبتي » (١٩٥٣) - « أصوات في البيت » (١٩٥٣) (باسمها
 المستعار جون سيدجيز) - « امرأة إمبراطورية » (١٩٥٦) . عن آخر
 إمبراطورة صينية - « رسالة من بكين » (١٩٥٧) - « فلتأمر الصباح
 » (١٩٥٩) - « الشيطان لا ينام أبداً » (١٩٦٢) - « القصب الحى »
 (١٩٦٣) - « موت في القلعة » (١٩٦٥) - « الوقت ظهرًا » (١٩٦٧) -
 « العام الجديد » (١٩٦٨) - « بنات السيدة لياتج الثلاث » (١٩٦٩) -
 « الماندالا » (١٩٧٠) . رمز الكون عند البوذيين - « الإلهة باقية »
 (١٩٧٢) - « كلهم يلتحفون السماء » (١٩٧٣) - « قوس قزح »
 (١٩٧٤) .

هذا ، وقد حظيت رواية « رياح الشرق .. رياح الغرب » بشعبية
 كبيرة ، حتى أنها طُبِعَتْ ثلاث مرات في أقل من سنة ، وهى تدور عن فتاة
 تدعى «كواي لان» وزوجها الطبيب . وطبقاً للعادات الصينية القديمة ،
 قامت أسرة «كواي لان» بخطبتها إلى زوجها المستقبل حتى من قبل أن
 تولد . كانت كواي لان وأسرتهَا يتمسكون بالتقاليد والسلوكيات القديمة.
 ولكن زوج «كواي لان» الذى تعلَّم فى الخارج طوال اثنى عشر عاماً

يعتقد في المساواة ، والاتجاهات الحديثة ، والممارسات الديمقراطية الغربية. ومن هذا الانقسام والانفصال الناجم عن الولاء والإخلاص لقضيتين مختلفتين ينشأ الصراع الأساسي في الرواية . وكان ذلك الصراع مشكلة حيوية بالنسبة للصين في القرن العشرين ، ومبعث حيرة وارتباك وتعقيد في العشرينيات والثلاثينيات على وجه خاص .

وفي هذه الرواية تكتب « كواي لان » قصتها على شكل مونولوج تتحدث فيه طويلاً في سلسلة رسائل إلى صديقة لها - قَدِمَتْ من بلد أجنبي لكنها استقرت في الصين وقد اختارت « كواي لان » هذه المرأة دون ذكر اسمها ، متخذة منها مستمعة فقط ، لأنها تعرف كلاً من اتجاهات الغرب وممارسات الشرق . وقد شرعت « كواي لان » تروى قصتها ، لأنها لم تكن سعيدة في بداية زواجها ، وفي أَسْس الحاجة إلى سرد حالتها التعيسة ، والمأزق الذي تعيش فيه ، وإلى أَدْن حانية متعاطفة معها.

في ليلة زفاف « كواي لان » أخبرها زوجها أنه يعتبرها على قدم المساواة معه ، كرفيقة له وليست جارية أو إحدى ممتلكاته ، وقد شرح ذلك مبيناً أنه يريد أن يتبع الأساليب الحديثة السائدة في الحياة الغربية ، ووافق على منحها وقتاً كى تكيف نفسها مع هذا الوضع . صُغِقت « كواي لان » فهي - طبقاً للعادات والأساليب القديمة - تعتبر نفسها في مرتبة أدنى من زوجها ، وأنها مجرد تابعة له ، ولم تستطع أن تفهم رغباته . والأدهى من ذلك أنها تحيرت وارتبكت حين رفض زوجها أن

تقوم بواجباتها وخدماتها لوالدته ، وأنه لن يسمح بقيام زوجته بعمل الخادمة . كذلك كان من المعتاد أن يعيش الزوجان مع والدَي الزوج ، إلا أن زوج « كواى لان » أصر على أن يعيشا معاً في بيت مبنى على النموذج الغربى . وحين تقابل « كواى لان » بعض أصدقاء زوجها الغربيين ، تبدو غير مرتاحة ، إذ وجدت الأساليب الغربية عجيبة ، وشعرت بالقلق إزاء عُرْلة زوجها الذى يستغرق تماماً في اهتماماته الطبية . وعلى الرغم من أن أسرته بالغة الثراء ، ويمكنه أن ينفق أيامه في راحة وخمول ، وأن يختار حياة مُرْفَهة ، فإنه يرفض ذلك ، ويمارس عمله كطبيب بنشاط وحماس .

وأصرَّ زوجها على حل رباط قدميها ويقول : إنهما قبيحتان ويرسم لهما صوراً تحمل تلك الصفة ، ويرسم العظام منحنية ملتوية . وفجعت « كواى لان » باقتراح زوجها ، وهى التى كانت دائماً فخورة بقدميها الصغيرتين كمظهر عام من الجمال . وطوال مرحلة طفولتها كانت أمها تشرف بنفسها على نَقْعِهما في الماء الساخن وشَدَّهما بالأربطة « ويزداد الشَّدُّ يوماً بعد يوم ، وعندما بكت من الألم المبرح دعتهَا إلى تذكُّر أن زوجها في يوم من الأيام سيثنى على جمال قدميها . وها هى ذى الآن تعلم أن زوجها ينتقد ويعارض بشدة هذه الممارسة

حملت « كواى لان » مشكلتها إلى أمها، التى ذهلت مِمَّا قصته عليها ابنتها . وعلى الرغم من أنها ربتها وَفَّقَ الطرق والأساليب القديمة ، فإنها أخبرتها أنها منذ أن تزوجت لم تعد تنتمى لأسرة والديها ، ولكن لزوجها ، وليس عليها سوى طاعته والخضوع لإرادته . كانت تحب زوجها .

ورويًا رويًا كانت معرفتها للطرق والأساليب الحديثة تنمو ببطء ، ووافقت على حلّ رباط قدميها ، وأذعنت لما يرغب زوجها . وحين فهم أنها تحاول اتباع العادات الغربية عن طيب خاطر ، كفّ عن حياة العزلة ، وبدأ يُعلِّمها بعضًا من أساسيات العلم ، والأفكار الحديثة . ابتهجت «كواى لان» باهتمام زوجها ورعايته لها ، وأصبح زواجها الآن ناجحًا .

أما القسم الثانى من رواية « رباح الشرق .. رباح الغرب » فيتناول شقيق « كواى لان » ويضيف مشكلة الزواج المتبادل بين الأجناس والسلالات المختلفة إلى الصراع الرئيسى بين الطرق والأساليب السائدة فى كل من الشرق والغرب. وتواصل « كواى لان » مرة أخرى سرد الأحداث فى سلسلة رسائلها التى تبعث بها إلى نفس صديقتها

وقد علمنا فى القسم الأول من الرواية أنّ والدة « كواى لان » وأباها انزعجا حين رفض شقيقها الزواج من الفتاة « لى » التى خطبتها له . أسرته. ومن ثمّ رحل فيما وراء البحار ليدرس العلوم الطبيعية . ثم نعلم الآن أنه يود أن يتزوج فتاة أمريكية تدعى « مارى » . وها هو ذا يكتب رسالة إلى والديه يسألهمما السماح له بالزواج منها ، وفسخ خطبته القديمة لابنة « لى » حين كان طفلًا . رفض والده إجابته إلى طلبه ، وأمراه أن يعود ويؤدى واجبه الحقيقى نحو أسرته . ولكنه على الرغم من ذلك يتزوج « مارى » فى الولايات المتحدة ويعود معها إلى الصين .

يغضب والداه غضبًا منكرًا عنيفًا ، وتميِّزًا غيظًا.. وفى أول الأمر

ترفض أمه استقبال الزوجة الأجنبية ، ويعمد والده إلى الغياب لانشغاله في إنجاز أعماله . وأخيراً تُدثر « كواي لان » زوجة أخيها بثوبٍ صيني ، وتُدبّر الأمر كي تقدمها إلى الوالدة ، ولكن الأم لاتقر تلك العلاقة ، وتجهض محاولات « كواي لان » كي تتوسط لإصلاح ذات البين ويشتد اضطراب الأم ، ويزداد احتياجها ، وتمرض في النهاية . وتحت وطأة هذه الظروف تكتب إلى ابنها موافقة على مجيئه مع زوجته ليقطن في أحد مساكن بيت الأسرة . وعاونت « كواي لان » زوجة أخيها في حزم صناديقها ، وغادر شقيقها وزوجته بيت أخته راحلين إلى بيت أسلافه . وهناك نبذت الأسرة الزوجة الأجنبية ، وأرغمت على أن تعيش كسجينة معزولة عن العالم . وبعد أن تعلم الأم بأن الزوجة الأجنبية حامل ، تنهار في حالة إحباط ووهن وضعف . وسرعان ما تقضى نحبها دون أن تعترف بالأجنبية كزوجة لابنها . وطبقاً للقانون الصيني ، لا يحصل الابن على ميراثه الشرعي ما لم يعترف أحد الوالدين بزواجه

وبعد وفاة والدته يسأل الابن أباه أن يعترف بزواجه الشرعي، وبعد مراوغة يرفض الأب التماسه ، ويطلب منه والده - كما سبق أن طلبت ذلك أمه - أن يتزوج الفتاة التي اختيرت له ، وهي ابنة « لي » ، وبذلك يقدم الدليل على مودة الأسرة وفي فقرة درامية مكثفة يتبرأ شقيق « كواي لان » من أسرته ، ويصر على إزالة اسمه من سجلات العشيرة ، وقطع علاقته تماماً بأقاربه وأسلافه . وغادر هو وزوجته بيت أبيه ، وحصل على وظيفة مدرس بمدرسة حكومية . وأنجبت له زوجته ابناً .

وتصف « كواى لان » الحُزن الذى أحاط بمولد هذا الابن ، فقد انفصلت أمه عن بلدها ومواطنيها ، وَحَطَّم أبوه روابط أسلافه . هذا صحيح ، ولكن الطفل قد وَحَّدَ فى الوقت نفسه بين القديم والحديث ، وبين الشرق والغرب . وتختتم « كواى لان » حديثها مقررّة أن الطفل المولود حديثاً سيصل إلى فهم كل من الْعَالَمَيْنِ - الشرق والغرب - ويصبح أكثر قوة ، وأبلغ حِكْمَةً ، من ذلك المنطلق .

أبانت « بيرل باك » عن حِسِّ مُرْهَف وهى تكتب بأسلوب شاعرى ورومانتيكى حافل بكثير من الصور الثرية بالألوان التى تنبض بالحياة ، وتذكرنا بالترجمة الإنجليزية الشهيرة المتألّفة التى قام بها « إدوارد فيتزجيرالد » فى القرن التاسع عشر لرباعيات الخيام ، التى جادت بها قريحة الشاعر الفارسى عمر الخيام وهو يصور مباحج الحب وأحزانه .

وفى تصوير « بيرل باك » لشخصيات المحظيات فى بيت والد «كواى لان» بأدق التفاصيل ، حقق لها ما تقصده ، وهى تعدد لنا أسلوب حياة وسلوكيات الأُسَرِ الصينية الأرستقراطية ، وأتاحت لنا التأكد من الفروق الكاملة فى العادات بين الصين والغرب .

وكانت « بيرل » مقنعة فى سردها لواقعية المشكلة بطريقة معقولة توحى بالثقة . ونقلت إلينا الرواية ببراعةٍ نكهةً محددةً واضحة للخلفية والمشهد ، والمكان ، وبصدق أصبح فيما بعد صفة جوهرية فى روايات وقصص «بيرل باك» .

وأحيانا تسود النزعة العاطفية ، وخاصة في مشاعر « كواى لان » نحو بيت أسرتها ، وفرحها وسرورها بمولد ابن لها ، ورد الفعل بالنسبة لابن زوجة أخيها . وهناك أيضاً نزعة إلى الاستفاضة في التشابه بين « كواى لان » وزوجة أخيها في تأثرهما بجمال وسحر الأطفال ، إلا أن ذلك يقوى ويعزز نظرة عالمية واحدة ، وأن الناس في انفعالاتهم وعواطفهم ومشاعرهم متشابهون كثيراً ، بغض النظر عن اختلاف أجناسهم .

وتحوى رواية « رياح الشرق .. رياح الغرب » كثيراً من الفقرات المؤثرة، وتيمتها ذات معنى وهدف . والشخص تقع في أسر مآزق التحرر من القديم ، والأخذ بالأفكار العصرية . وكان الحل السعيد في حالة «كواى لان» والحل شبه المأساوى بالنسبة لأخيها ، مقنعين . وكان اعتراض الوالدين الصينيين على زوجة ابنهما الأجنبية ورفضها لها يضرب على وتر حساس عام ، وكانت التوترات الناجمة عن تعاملهما . وتحيزهما المغرض ، ومواقفهم الغريزية تلفت الأنظار إلى المشكلة ، وتثير الاهتمام بها. وتشير إلى أن « بيرل باك » ضليعة متمكنة من معرفتها لموضوعها ، وتمتلك ناصية حس قصصى أصيل . وأبانت عن أنها روائية تمتاز بفهم عميق لكل من الجانبين في شتى صراعاتهما بين عالمين مختلفين ، وبين العادات القديمة والجديدة . وهكذا أقامت محوراً صلباً أدارت حوله عديداً من أعمالها التى تتناول تلك التيمات.

ومن حياتها فى الصين حملت « بيرل باك » إعجاباً حاراً للناس العاديين الذين يعملون فى الحقول ، فالصين دولة زراعية ، وهؤلاء

الفلاحون يُكوّنون أربعة أخماس تعداد الشعب ، وعلى الرغم من كثرتهم الساحقة فإنهم كانوا أكثر الناس تعرضًا للمظالم ، وسوء المعاملة المستمرة على أيدي موظفي الحكومة ، واللصوص وقطاع الطرق ، ومُلاك الأراضي ، هذا بالإضافة أنه كان عليهم الكفاح من أجل البقاء وهم يواجهون أخطارًا رهيبة من الفيضانات والمجاعات ، وحتى عندما كانوا يضطرون إلى الهرب جنوبًا أو إلى مناطق أخرى بسبب تلك الكوارث ، فإنهم لا يلبثون أن يعودوا إلى الأرض كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا . وقد اقتنعت « بيرل باك » بأن هؤلاء الفلاحين الطيبين يُكوّنون القلب الأساسي للصين ، واهتمامها بهم كأناس منحها نقطة انطلاق في أعمالها الإبداعية ، وأصبح حبها وتأييدها للفلاح الصيني من العناصر الأساسية في أفكارها وكتاباتهما.

وفي رواية « الأرض الطيبة » تصف « بيرل باك » كفاح فلاح صيني وزوجته التي كانت جارية ، وتحلل لنا نمو الأسرة حين تتطور وتكتسب تدريجيًا قوة وتروة . وتُبيّن « بيرل باك » أن مثل تلك الأسر تبدأ من الأرض، وإذا نشأت ظروف مواتية ، تزداد الأسرة مكانة ومنزلة وأهمية . وقد استوقفتني اعتراف « بيرل باك » بأنها حين تهيأت لكتابة « الأرض الطيبة » لم تكن هناك حبكة أو خطة ، وأن الرجل والمرأة وأطفالهما تمثلتهم أمامها ، وهذا يُذكرني بما قاله الكاتب الروائي والقصاص الإنجليزي « إدوارد مورجان فورستر » ، فقد كان في سلسلة محاضراته بجامعة « كامبردج » لا يحفل بالشكل ، وحسب الكاتب في رأيه

أن يثب بنا إلى الاقتناع بشخصياته ، وأن يقدم لنا الحياة .. وهذا ما فعلته « بيرل باك » .

وتجيد « بيرل باك » مزج الواقع مع الرومانتيكية بنسب صحيحة .
وقد تُرجمت رواية « الأرض الطيبة » إلى كثير من اللغات ، ومنها الصينية والعربية

وإذا انتقلنا إلى رواية « الأم » نجد أن « بيرل باك » كَتَبَها بالأسلوب البسيط المتماسك نفسه ، والشاعري أحياناً ، إلا أن المؤلفة تصور هنا جانباً مختلفاً من حياة الفلاح الصيني .. إذ أنه أكثر قسوة ووحشية وألماً. والشخصية الرئيسية بلا اسم ، وتُدعى فقط « الأم » ، وهى مرسومة بعناية. أمّا الشخصيات الأخرى فهى مسطحة ولا تتطور ، واستُخدمت فقط كأهداف تجذب انتباه « الأم » .

كان عالم تلك « الأم » مخالفاً لعالم « وانج لونج » فى رواية « الأرض الطيبة » ، الذى شَمَّر عن ساعد الجد والاجتهاد ، وعمل بأمانة فأقبلت عليه الدنيا ، بعكس « الأم » التى عاشت فى عالمٍ من الضحايا والفساد والانحراف الخُلُقِي ، والمشوهين من ذوى العاهات .. عالم تشوبه الكراهية والقسوة ، فيالها من لوحة تصور حياة امرأة فى الصين ، حيث كانت الإناث - من الأطفال الرُّضَّع - يُقْتَلْنَ روتينياً ، فى حين كانت تباع الفتيات الصغيرات من الأسر الفقيرة كجوارٍ . ولم يكن هناك سوى الفرحة التى تثيرها مجيء حياة جديدة .. ولادة الأطفال ونموهم لتحدث توازناً مع الحياة البائسة التى عاشتها الأم .

وعلى الرغم مما يقابلنا في عالم تلك الروايات من المأسى والأحزان ، والإحباط والسخرية ، والخيبة والفشل ، فإنها ليست عالماً بلا أمل . و « بيرل باك » تذكرنى هنا بالأديب الروسى الشهير « أنطون تشيخوف » الذى تُعانى شخوصه من اليأس ، والإحساس بالتفاهة والبلادة ، ومع ذلك فإنهم يتشبثون بالحياة ، وعند فشلهم يحملون بالمستقبل .

و « بيرل باك » تكتب رواياتها وقصصها بلغة بسيطة ، تبدو فيها متأثرة بلغة الإنجيل ، الذى كانت أمها تجعلها تقرأه منذ صغرها بصوت عالٍ . هذا بجانب أنها متأثرة أيضاً بأسلوب القصصيين الذين تتدفق كلماتهم دون أى تكنيك آخر سوى مقدار قليل من الوصف يأتى عرضاً ، بحيث يكفى فقط لإعطاء حيوية للمكان أو للشخص ، على ألا يؤدى ذلك إلى إبطاء أحداث القصة

وعلى الرغم من أن معظم جمل « بيرل » طويلة ، فإنها أحياناً تتكسر إلى جمل أقصر ، تنقطع متغيرة إلى أجزاء من الفكر ، تتموج فى حركتها .

ونلاحظ أيضاً أن « بيرل باك » كثيراً ما تكرر الكلمات للتأكيد على نقاط معينة ، وهى لا تستخدم أى كلمة باللغة الصينية ، ولم تكن فى حاجة إلى شرح إحداها ، بل كانت تترجم الكلمة الصينية إلى اللغة الإنجليزية كما تعنى بالنسبة للصينيين .

و « بيرل باك » تتناول رواياتها - مثل « رياح الشرق .. رياح الغرب » و « الأرض الطيبة » و « الأم » وكثير من أعمالها - بطريقة موضوعية ، متجردة غير متحيزة ، ومستقلة فى الرأى . شأن ما يتصف

به الأستاذ عالم الطب وهو يقوم بفحص المرضى أو تشريح الجثث على مشاهد من الطلاب متوخياً الدقة، وإيضاح كل شىء بإسهاب ، دون أن يُحجب عنهم أية تفاصيل أو يستغنى عنها . وبالمثل نجد « بيرل باك » لم تبخل على القارئ بأية تفاصيل . وروايتها تزخر بشتى الأحاسيس والانفعالات ، والعواطف، والآلام ، والأحزان ، وخيبة الأمل ، والغضب ، والحقد ، والقلق ، والارتباك ، والحيرة ، والشك ، ومشاعر الخوف والحر ، والإشفاق والابتهاج . و « بيرل باك » تتحرك هنا في إطار المدرسة الطبيعية في الأدب ، ورائدها الأخوان « جونكور » . « إدمون دى جونكور » و« جول دى جونكور » ، وهما كاتبان فرنسيان عاشا في القرن التاسع عشر ومن رُؤاد المدرسة الطبيعية أيضاً الروائي الفرنسي الذائع الصيت « إميل زولا » من القرن التاسع عشر أيضاً ، وكان من أكبر المعجبين بالأخوين «جونكور» .

والطبيعية في الأدب محاولة لتطبيق الأسلوب العلمى في الكتابة الإبداعية . ويركز الكُتّاب الطبيعيون على العالم الطبيعى ، واستبعاد كل ما هو « فوق طبيعى » أى إقصاء أى قوة خارقة للطبيعة . ونادى « زولا » بأن الطبيعية هى تسجيل وثائقى لشريحة من الحياة بكل واقعيتها الخشنة المؤلمة ، وفحصها ودراستها ، كما يفعل العالم عندما يفحص عيّنة تحت المجهر «الميكروسكوب» . ويعتقد الكُتّاب الطبيعيون أن كل ما يفعله الإنسان تحدده الوراثة أو البيئة ، أو كلاهما معاً . ويؤكد الكُتّاب الطبيعيون أن أعمالهم تقترب من الواقع والحقيقة بأمانة ودقة أكثر من كُتّاب الواقعية ، فنالوا انتشاراً ورواجاً . ومع ذلك فبيرل باك تختلف عن

الكتاب الطبيعيين في أنها تثق أيضاً في الإرادة الحرة ، وتؤكد قوتها .

وفي ميدان القصة القصيرة .

- كتبت « بيرل باك » « الزوجة الأولى وقصص أخرى » (١٩٣٣) -
 « اليوم وإلى الأبد » (١٩٤١) - « سبع وعشرون قصة » (١٩٤٣) -
 « الأقصى والأدنى » (١٩٤٧) (وهى قصص عن الصين واليابان
 وأمريكا) - « الصين وأمريكا » (١٩٤٧) « لوح الرسم الثلاثي
 الأمريكي » (١٩٥٨) - « القلوب تجيء إلى البيت وقصص أخرى »
 (١٩٦٢) - « العمل الطيب وقصص أخرى » (١٩٦٩) - « ذات ليلة عيد
 ميلاد » (١٩٧٢) - « الشرق والغرب » (١٩٧٥) - « أسرار القلب »
 (١٩٧٦) - « العاق وقصص أخرى » (١٩٧٧) - « المرأة التى تغيرت
 وقصص أخرى » (١٩٧٩) .

وفي غير الأدب الروائي والقصصى ، نُشرت لبيرل باك الكتب الآتية .
 « الشرق والغرب والرواية » (١٩٣٢) - « كل الرجال إخوة » (١٩٣٣)
 (وهى ترجمة لكتاب من تأليف تشوى هو تشوان) - « المنفية »
 (١٩٣٦) (وهو كتاب عن سيرة حياة والدته بيرل باك المتعسة المحبطة
 كزوجة لمبشردينى) « الملك المناضل .. صورة روح » (١٩٣٦) (وهو
 كتاب عن سيرة حياة والد بيرل باك ، ويمتاز بأنه أكثر موضوعية ،
 ويرينا ذلك الوالد المبعوث في إرسالية دينية تبشيرية ، والذي كان يفيض
 حماساً بقلب قاسٍ) ثم كتابا « المنفية » و « الملك المناضل » في مجلد
 واحد بعنوان « الروح والجسد » (١٩٣٧) - « الرواية الصينية »

(١٩٣٩) - « عن الرجال والنساء » (١٩٤١) وأعيد طبع الكتاب عام
 (١٩٧١) - « أمريكا المتحدة وآسيا » (١٩٤٢) - « ماذا تعنى أمريكا
 بالنسبة لى » (١٩٤٣) - « الصين بالأسود والأبيض » (١٩٤٥) -
 « حديث عن روسيا » (بالاشتراك مع ماشا سكوت) (١٩٤٥) - « فلتخبر
 الناس » (بالاشتراك مع جيمس ين عن حركة التربية والتعليم الشاملة)
 (١٩٤٥) - « كيف يحدث ذلك » (حديث عن الشعب الألماني فى الفترة من
 ١٩١٤ حتى ١٩٣٣، بالاشتراك مع إرنا فون بوشتاو) (١٩٤٧) -
 « مناظرة أمريكية » (بالاشتراك مع إسلاندا جوود روبسون) (١٩٤٩)
 « الطفلة التى لا تنمو أبدًا » (١٩٥٠) (وهى تتعلق بابنتها المتخلفة
 عقليًا) « من صديق إلى صديق » (بالاشتراك مع كارلوس رومولو)
 (١٩٥٨) « ابتهاج الأطفال » (١٩٦٤) - « أطفال للتبنى » (١٩٦٥) -
 « الهدايا التى يجيئون بها » (دَيْن فى أعناقنا نحو المتخلفين عقليًا)
 (١٩٦٥) « شعب اليابان » (١٩٦٦) - « إلى بناتى مع الحب » (١٩٦٧) -
 « الصين كما أراها » (١٩٧٠) - « نساء كينيدى ... تقييم شخصى »
 (١٩٧٠) « قصة الإنجيل » (١٩٧١) - « أمريكا بيرل سيدينستريكر
 باك » (١٩٧١) « الصين فى الماضى والحاضر » (١٩٧٢)

وعن سيرتها الذاتية ألفت « بيرل باك » كتابين هما « عوالمى المتعددة
 » (١٩٥٤) و « جسر للمرور » (١٩٦٢).

وفى أدب الأطفال نُشر لها « الثائر الصغير » (١٩٣٢) - « قصص
 للأطفال الصغار » (١٩٤٠) - « يوم مشرق وقصص أخرى للأطفال »

(١٩٥٢) - « الرجل الذى غيّر الصين » (قصة صن يات - سن)
 (١٩٥٣) - « جونى جاك وبداياته » (١٩٥٤) - « أربع عشرة قصة »
 (١٩٦١) - «رواى القصص الصينى» (١٩٧١)

وفى التّأليف المسرحى نُشر لبيرل باك مسرحية « حَدْثُ فى الصحراء»
 التى قُدمت فى مارس عام ١٩٥٩ ،ويقابلنا فيها علماء يعملون فى مشروع
 حكومى سرى فى موقع بصحراء أريزونا . وحين يعلم أحد العلماء
 الإنجليز بأنه فى الحقيقة يعاون فى إنتاج سلاح تدميرى رهيب أراد
 الانسحاب . وفى نهاية المسرحية يسلم الجميع بالخطر الماحق للمنتج
 الجديد، فيقرر العلماء محاولة توجيه الطاقة الذرية كى تستخدم فى
 الأغراض السلمية

وفى هذه المسرحية تُناشد « بيرل باك » العلماء الأمريكين والإنجليز
 كى يرفضوا إعطاء حكوماتهم أى معلومات عن أسلحة ، يمكن أن
 تُستعمل فى حروب قد تشتعل فى المستقبل

وتنبع قوة « بيرل باك » ككاتبة وأديبة من ذكائها الخارق ، ورواياتها
 وقصصها وكتاباتاتها التى يستمتع بها القارئ ، والتى لها مذاق رسالة
 هادفة جليّة واضحة مشرقة ، تنطلق من خبرة واقعية . ولا ريب أن ما
 أسهمت به فى التبادل الثقافى بين الصين والغرب ، وما قدمته إلى رحلة
 الحضارة والفكر لا يُقدَّر بثمن .

وقد تُوفيت « بيرل باك » فى « دانبى » بولاية « فيرمونت » فى السادس
 من مارس عام ١٩٧٣ .



نُشر له ٢٨ كتاباً تشمل
روايات ومجموعات قصصية
ومسرحيات ودراسات نقدية في

الدكتور غبريال وهبة

الأدب الروائي والمسرحى كما نُشرت له ٦٧ قصة قصيرة ، و ٤٣٠ مقالاً ودراسة في النقد الأدبى والمسرحى والسينمائى بالصحف والمجلات بمصر وشقيقاتها العربيات . وهو عضو اتحاد الكتاب ، ونادى القصة ، وجمعية الأدباء ، ونقابة المهن التمثيلية (شعبة النقد) ، والجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما ، والجمعية العربية للفنون والثقافة والإعلام . ويعمل نائب رئيس تحرير مجلة عالم الفكر .

والأديب الناقد الدكتور غبريال وهبة حاصل على بكالوريوس كلية العلوم ، جامعة القاهرة - ودبلوم دراسات عليا في التربية وعلم النفس - ودبلوم إشراف فنى من كلية التربية ، جامعة عين شمس - وليسانس في اللغة الألمانية من كلية الألسن - ودبلوم في اللغة الإيطالية من معهد دانتي أليجييرى - ودرس اللغة الإسبانية لمدة عامين في المعهد الثقافى الإشبانى - ودبلوم الدراسات العليا في النقد الفنى من أكاديمية الفنون - وماجستير في النقد الفنى من أكاديمية الفنون - ودكتوراه الفلسفة في الفنون من المعهد العالى للنقد الفنى بأكاديمية الفنون .

كتب صدرت للمترجم :

١ - الكيمياء في خدمة المجتمع :

لجنة البيان العربى ١٩٥٦ .

٢ - الطاقة الذرية :

لجنة البيان العربى ١٩٥٦ .

٣ - طرائف ومداعبات علمية :

مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧ .

- ٤ - دنيا الدم :
- لجنة البيان العربى ١٩٥٨ .
- ٥ - الأصبع أو الزمن ينصرم :
- ترجمة ودراسة - من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٨ .
- ٦ - أيها الخادم الطيب المخلص :
- ترجمة ودراسة - من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٨ .
- ٧ - سأخذ بثأرى :
- ترجمة ودراسة - من سللة روايات عالمية - المؤسسة المصرية للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٧٠ .
- ٨ - الدوامة :
- الهيئة العامة للتأليف والنشر (زارة الثقافة) ١٩٧٠
- وهى الرواية الفائزة بجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .
- ٩ - العاصفة :
- العدد ٢٩٩ من روايات الهلال - نوفمبر ١٩٧٣ .
- ١٠ - ليالٍ لا تُنسى :
- العدد ٣١٧ من روايات الهلال - مايو ١٩٧٥ .
- ١١ - المسحوق السحري ومسرحيات أخرى :
- مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥
- ١٢ - جسر بنات يعقوب :
- من سلسلة الإبداع العربى - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٥ .

- ١٣ - دانتي والكوميديا الإلهية :
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧ .
- ١٤ - أثر الكوميديا الإلهية لدانتي في الفن التشكيلي :
من الألف كتاب (الثاني) - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة
الثقافة) ١٩٨٧ .
- ١٥ - الزوجة الأولى :
من سلسلة الرواية العربية - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة
الثقافة) ١٩٨٧ .
- ١٦ - الغلطة الوحيدة - صوت من الفضاء :
مسرحيتان علميتان - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨ .
- ١٧ - دون كيشوت بين الوهم والحقيقة :
من سلسلة دراسات أدبية - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة
الثقافة) ١٩٨٩ .
- ١٨ - كاميلو خوسيه ثيلا :
الفائز بجائزة نوبل في الأدب لعام ١٩٨٩ .
من سلسلة المكتبة الثقافية - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة
الثقافة) ١٩٩٠ .
- ١٩ - بلد التعليم :
المركز الثقافي لجمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية ١٩٩٢ .
- ٢٠ - جرح في كرامة رجل :
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٢ .
- ٢١ - باولو وفراتشيسكا :
ترجمة ودراسة - من سلسلة المسرح العالمي - وزارة الإعلام بدولة
الكويت - ١٩٩٣ .

- ٢٢ - العجوز والبحر :
ترجمة ودراسة - من سلسلة روايات جائزة نوبل - الدار المصرية
الليبنانية - ١٩٩٤
- ٢٣ - الدراما الهيلىنية على خشبة المسرح (باللغة الإنجليزية) :
القسم الثقافى بسفارة لبنان - ١٩٩٥ .
- ٢٤ - دعوة إلى المسرح الإغريقى :
القسم الثقافى بسفارة اليونان - ١٩٩٥
- ٢٥ - نساء من بارود :
من سلسلة المسرح العربى - الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة
الثقافة) ١٩٩٧ .
- ٢٦ - سليمان الحلبى فى القاهرة :
رواية تاريخية - مكتب النيل للطبع والنشر - ١٩٩٧ .
- ٢٧ - ثلاث أدبيات مبدعات :
« فاطمة العلى - تونى موريسون - إقبال بركة » دراسة نقدية - دار
نشر عيون جديدة - ١٩٩٨
- ٢٨ - رياح الشرق .. رياح الغرب :
ترجمة ودراسة - من سلسلة روايات جائزة نوبل - الدار المصرية
الليبنانية - ١٩٩٩ .



Bibliotheca Alexandrina



0261308